رسائل في التجديد والتنوير



تأليف سامح عسكر

مقدمة

هذا الكتاب هو الأول لي من نوعه حيث يناقش معظم قضايا الفكر والرأي العام على الساحة، وهو السابع في ترتيب أعمالي، حيث كانت الأعمال السابقة تتنوع ما بين فنون السياسة والأدب والفلسفة، أما هذا الكتاب فهو جامع لمعظم هذه الأمور في عملٍ واحد ..هو خلاصة مجهودي طيلة أعوام في الفكر وفي البحث، وقد فضلت أن أطرح ما جاء في شتى الرسائل المنشورة سابقاً كما هي عملاً بمحاكاة أفكاري في ظروفها، والهدف هو اختبار هذه الأفكار مع مرور الوقت والظروف وبيان جودتها وصلاحيتها.

أصل هذا الكتاب هو مجموعة دراسات وأبحاث منشورة على الشبكة في الفترة ما بين أعوام..2011 إلى 2014، أي هو خلاصة ثلاثة أعوام من الفكر والبحث، وقد راعيت فيه طرح هذه الدراسات حسب صنوفها ومضامينها الفكرية، وبترتيب آمل أن يحوز على رضا القارئ، وهذا يعني أنه حتى الساعة لم أنشر ذلك الكتاب، وفور القدرة على ذلك لن أتأخر، في السابق كنت قد تحدثت مع الدكتور.."عمار علي حسن"..على تقديم أول كتابي عن الإخوان فاشترط أن تكون النسخة مطبوعة، لذلك لن أتقدم له أو لغيره بتقديم الكتاب أو النظر فيه أو نقده أو تنقيته إلا بعد أعمال الطبع بإذن الله.

الكتاب موجه للجميع لا فرق بين مثقف وعامي، فهناك من الدراسات ما يفهمها البُسطاء لما فيها من ترتيب ووضوح شديدين، فأنا من المتحمسين للوضوح والسلاسة بما يساعد في إصابة الهدف بدقة، وإن كانت بعض أفكاري بحاجة إلى فهم ودراسة من المتخصصين..بالذات في الرسائل ذات النزعة الفلسفية الكلامية، هذه أمور صعبة على العوام لا أنصح بتقديمها إلا لمن يفهمها، فعقول العوام ترتبك من تلك النزعة العقلية، وبعدها يقوم هو بدوره في تثقيف نفسه والناس بأسلوبه.

سيُلاحظ القارئ تنوع المواضيع..مما يعني عدم تسلسلها تحت عناوين أو هوامش أورئيسيات، فالهدف من الكتاب ليس تسويقاً لفكرة واحدة والتدليل عليها وربطها بأخرى، بل الهدف هو اقتحام الحصون المغلقة منذ عصور وإلى الآن، البعض قام بهذه المهمة منذ القِدم ..ولا أنكر استفادتي من بعضهم، بل هم الفرسان في هذا المجال، وسيلحظ القارئ من عناوين الرسائل أنها تهتم أكثر بنقد الحديث والقائمين عليه، ذلك لاعتقادي بأن أزمة المسلمين الآن هي في الحديث وما يزعم به بعض الأغبياء أنه سُنة الرسول، بل هو ليس سنة، والسنة أرقى من ذلك وأعلى.

إذ لا يستقيم إيمانك بالسنة في حال تعارضها أو تجاوزها في حق الله أوفي حق الأنبياء أوفي حق البشر..هذه خطوط حمراء يحاربها الدين ولا يدعو إليها، لذلك فهمت من السنة أنها لا تتعارض مع القرآن ولا تتعارض مع العقل وأسس التفكير السليم، بينما الأحاديث كثير منها ضعيف ومتعارض..حتى الأحاديث الصحيحة ليست بالجودة التي يُعتمد

عليها في بناء مفهوم السنة، وأعلم جيداً أن المسلمين منذ القِدم يختلفون حول هذه الأشياء..فتاريخ اختلافهم يبدأ من تاريخ الفكر والحريات، وكلما نضجت معاني الحرية في المجتمع كلما فقه الناس أمر دينهم وعجز الكذابين والمتاجرين بالدين عن غزو عقولهم.

لذلك أؤمن جلياً أن أولى خطوات الإصلاح ستأتي بالحريات وأهم هذه الحريات هي حرية الفكر، ومنها تتفرع حرية الاعتقاد وحرية التعبد والسلوك تحت قوانين مجتمعية ملزِمة لا تفرق بين أحدٍ بمجرد الجنس أو اللون أو الدين، هنا نستطيع أن نطمئن على مسار الحركة الفكرية، وأنها ستنحصر بين قولٍ ورد، ومعها سينتعش العقل المسلم ويرقى لدرجة الحضارة، بحيث يفهم وظيفته جيداً في الدولة وفي المجتمع وفي الحياة بأكملها.

سامح عسكر

السبت 21 مارس 2014

الفهرس

رسالة في السلفية

كنت في وقتٍ ما سلفياً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن لم يُصبح ذلك لدي مدعاةً للتكفير والتشديد، ففطرتي تنفر من هذه الأشياء، وأميل إلى تأويل النصوص باليُسر وليس بالعُسر، ومعها اعتقدت أن لكل مشكلة حل في النصوص الدينية ، وهو ما اكتشفت زيفه بعد ذلك، فالنصوص بحاجة إلى عقلٍ راسخ وضمير متيقظ وقلبٍ صافٍ مُطهر من الدنايا، وبدون هذه الأشياء تُصبح النصوص مجرد أحجار في صحراء بحاجة لمن ينقلها أو يستخدمها لمصلحته، بالضبط كمن يستخدم النصوص لمنفعته بسبب أنه تعامل مع الحَجَر كأنه من أملاكه.

السلفيون يتعاملون مع النصوص كأنها تركة ورثوها من الآباء عن الأجداد، لذلك ترى نزعة احتكار الفهم فيهم واضحة، ومعها تفسير تلك النصوص حصرياً تُخالجُ ضمائرهم، وبما أن احتكار الفهم بحاجة إلى شجاعة ..فهُم يعتمدون في شجاعتهم على أمراض المجتمع العربي وأبرزها.."الجهل"..فطبيعة الجاهل أنه يرى النصوص برؤية ظاهرية تخلع عباءة النص وتُلبِسه رداءاً آخر أكثر قابلية وانسجاماً مع النفس، وهو ما أسميه بتكييف النصوص مع المصلحتين الآنية والشخصية.

كمثال تحريمهم لنكاح الزانية من قوله تعالى.."الزاني لا ينكح إلا زانيةً أو مشركة"..كانت الحُرمة نزولاً إلى الموقف العربي من المرأة بالعموم والزانية بالخصوص، والنتيجة أن كيّفوا النص الديني لثقافتهم وأعرافهم المحلية..وبالتالي مصلحتهم في بقاء الوضع اجتماعياً كما يرغبون، رغم أن النص الديني أوسع من ذلك، وقد قال الله في آية أخرى.."وأحل لكم ما وراء ذلكم"..وهو شامل لنكاح الزانية وغيرها، أي أن القرآن برئُ من هذا التفسير السلفي للنصوص ويتعامل مع المرأة كونها مخلوقاً يساوي الرجل في كرامته ومكانته.

لا أنكر أن من أسباب اختلافي مع الفكر السلفي هو عدم اهتمامهم بالفلسفة، فالأشياء التي في الضمائر والأذهان كثيرة بحاجة إلى واقع وفكر ولغة لتفسيرها، والفكر السلفي ضعيف لا يفسر هذه الأشياء، بل يردها -بغرابة-إلى عموميات دينية ، كمن يسأل عن حقيقة الوجود وطبيعة المواد نرى من يسارع بقوله.."ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم"..أو كمن يسأل عن حقيقة كُفر المسيحية واليهودية نرى من يسارع بقوله.."لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة"..رغم أن تحرير معنى الكُفر لغوياً يردنا إلى نتائج مختلفة تقول بأن ليس كل المسيحيين واليهود كفار، بل الكفر يثبت في شأن من عرف الحق وأنكره بعد حوارٍ وجدالٍ ظهر الحق للجميع.

وأزعم أن إطلاق صفة الكُفر في حق الآخرين بحاجة إلى تكليف ديني ووصاية بشرية تحمل فلاناً أو مجموعة من الناس أن تتحدث باسم الدين، وهذا الشرط غير موجود كون الحديث باسم الدين حرام، والأفضل أن

يُقال.."هذا ما ظهر لي من أمر الدين"..وهو معنى ينفي أي امتلاك للحقائق أو جواز احتكار فهمها وتفسيرها.

كذلك فالسلفيون لا يفصلون بين رؤية السابقين لدينهم ودنياهم وبين واقعهم المعاصر، وهو ما يلزمه إسقاطاً تاماً لأقوال السابقين من 1000 عام -حيث عصر البداوة والتداوي بالأعشاب وبالحيوانات- وبين عصر الحضارة والثورة العلمية والطبية، وعندما نقول عصر البداوة فليس امتهانا للعصر أو لمن عاشوا فيه، بل على طريقة.." انظر كيف كانوا يعيشون"..وهي جملة حالية تحفز على الاعتبار باختلاف الزمن والكون، وربما يتعاطف القلب معهم مثلما تعاطفنا مع آبائنا وأجدادنا الذين عاشوا دون مياه أو كهرباء أو تلفزيون أو انترنت، فنسأل حينها لو كنا نعيش في زمنهم كيف سنبدع ونقضي أوقات فراغنا الصعبة.

الغريب أن أحدهم سيرد ويقول أن أجدادنا كانوا منسجمين مع واقعهم وبيئتهم، وأنهم كانوا يبدعون ويقضون أوقات فراغهم في أشياء هي بالنسبة لهم تعتبر مثل التلفزيون والإنترنت بالنسبة لنا، وهو إقرار ضمني بحقيقة.."أن لكل زمان نسبة وتناسب"..فلماذا يعيبون علينا رفض منطق السابقين وأن منطقهم -حتى لو كان صحيحاً لهم- فليس بالضرورة أن يكون صحيحاً لنا، وهو المعنى من وراء النسبة والتناسب الزمكاني، بل لا يكتفون بذلك ويريدون العودة كلياً إلى زمنهم بحُجة أن زمنهم هو خير القرون ويجب علينا اتباعهم وكأن الإنسان هو مجرد حيوان لا عقل له ولا منطق ليُفكر، وأن كل وظيفته في الحياة أن يقول ويعمل مثل فلان وعلان..!!

لقد شاءت حكمة الله أن يخلق الناس مختلفين ومتفاوتين في أفهامهم وعقائدهم وألوانهم وألسنتهم، وإلا فالناس لو كانوا أمةً واحدة تعرف معنى التواصل لساد الخير هذا العالَم، ويظهر معه أن اختلاف الناس هو لحكمة الاجتهاد في التعارف والحوار، ولحصار تلك الأمراض التي نجمت عن هذا التفاوت سواء من الفهم الخاطئ والتطرف، كيف سأفهم الآخر دون معرفته؟..هذا سؤال مركزي تُبنى عليه نظريات علمية واجتماعية، فيجتهد الإنسان لمعرفة نفسه كمقدمة لمعرفة الآخرين، وللحقيقة لم أرى هذه الميزة إلا في الفلسفة، فهي التي أتاحت لي المعرفة والانطلاق في فضاء الكون والتفكر في أحوال الموجودات.

وبما أن الفكر السلفي له موقف من الفلسفة فقد بدأت أشك في حقيقة هذا الفكر، وحقيقة اتصاله بالدين، فوجدت أن هذا الفكر له جذور راسخة في كل مصائب وبلايا التاريخ، وأنه كان سبباً في انحطاط المسلمين والعرب قروناً طويلة، فتكلمت في السلفية على استحياء، والسبب أنني كنت لا زلت عضواً في جماعة الإخوان، فما بين الإخوان والفكر السلفي ما يمنع من انتقادهم بحدة، أو الخروج على المفاهيم الرئيسة التي شكلت هذا الفكر، لأن هذه المفاهيم الرئيسة هي نفس المفاهيم التي شكلت العقل الإخواني تحت ظل السمع والطاعة وتحت سيف الخروج والبدعة..

وهناك جوانب أخرى تشمل تورط الفكر السلفي في الصراعات الطائفية، وأن الموقف السلفي السياسي مرتبط بالمصلحة غالباً، والمصلحة ليست جميعها على ضلال، بل لو انحصرت لمصالح في دائرة العفو والإيمان

بحقوق الآخرين فهي مصالح عامة وشخصية مزدوجة، حتى لو آمنت باختلاف مصلحتي عن المصلحة العامة، ولكن ضمان بقاء الحياة واستمراريتها –كفائدة مرجوة من المصلحة العامة-يجعل مصالحنا الخاصة مجرد نزوات ورغبات غير مشروعة، وهو ما اعتقدته في مصالح الفكر السلفي حيث خرجت لدي بصورة غير مشروعة لأنها تعارضت مع المصلحة العامة.. التي تقتضي الاعتراف بحقوق الآخرين التي هي لديهم ثانوية وأحياناً معدومة.

وزاد الموقف سخونة أن السلفيين يرون مصالحهم بصورة دينية، وهي أقذع وأبشع صورة في الوجود، أن ترى مصالحك مقدسة وليذهب الآخرين إلى الجحيم، حينها يحل الكذب والفجور محل الصدق والإيمان، فيكذبون على الله وعلى الناس من أجل مصالحهم التي هي لديهم مصلحة الدين، فلا اعتقاد نسبي لديهم ، الجميع لديهم إما أبيض وإما أسود، وهكذا نعود إلى صورة الأفلام القديمة التي اعتقد فيها جيل الشباب أن البشر في هذا العصر لا يعرفون الألوان، وأن حياتهم كانت بالأبيض والأسود، رغم أن فيلم.."رد قلبي"..عرضته السينما المصرية بالألوان في الخمسينات حيث فترة ازدهار أفلام الأبيض والأسود.

إن أقرب تشبيه للفكر السلفي أنه لا زال يعيش في أفلام الأبيض والأسود، وما لهذه الأفلام من سطوة معرفية حملت البعض على إنكار الألوان والزعم أنها مصطنعة، حتى لو لم يحدث فهو استثناء كالذي يحدث مع السلفية، هم يرون الحياة دون ألوان ويصرون على أنها كذلك، حتى عندما يختلفون مع أنفسهم أو يتمردون أو يحاربون تصبح

نظرية.."الأبيض والأسود"..هي السبب في تدميرهم، ويعودون بحماقة مرة أخرى للسؤال لماذا لا ينصرنا الله، والجواب من أنتم ومن هم، عليكم بتعريف أنفسكم والآخر، حرروا علاقتكم بالغير، إن ما قرأتموه وانطبع في أذهانكم من سيرة السابقين كان في عصور انتشرت فيها الرؤية المحلية، فيجري تفسير النصوص على ما تراه العين دون القلب.

فلو قيل أن تلك العصور لم تكن محلية وأن علماء المسلمين كانوا عالميين قلنا أخرجوا لنا شعباً غير العرب والمسلمين يعرف ابن تيمية وابن حجر والبخاري والذهبي، بل أخرجوا من يعلم حرفاً واحداً في الشرق والغرب عن الأئمة الأربعة، بل لا يوجد مشهور في العالم سوى من اتُهِمَ في دينه عند العرب كابن سينا والفارابي وابن رشد وابن حيان ...وغيرهم، هؤلاء من أعطوا صفة العالمية للمسلمين كانوا متهمين ومضطهدين وأحرقت كتبهم وصودرت أفكارهم.

نفهم من ذلك أن الأفكار التي تعيش يجب أن تتصف بالعالمية، وهي لن تكون كذلك حتى تخاطب الإنسان لا المعتقد، فقولوا لنا بربكم هل خاطب أئمتكم الإنسان أم دينه؟..فلو قلتم أنهم خاطبوا الإنسان قلنا لو حدث ذلك ما ذبح المسلمون بعضهم على الدين، إن خطاب الإنسان يعني خطاب العقل والروح والضمير..يعني خطاب المنطق والتوافق..يعني خطاب الحوار والتواصل..يعني خطاب الرأي والرأي الآخر، فلو تحقق هذا الخطاب كانت معه قواعد الدين راسخة.. لأن الأديان شرعها الله للإنسان، فكيف يكون الخطاب عقدياً قبل أن يكون إنسانيا؟..لو صح هذا

الادعاء بأن الخطاب عقدي فالإنسان ليس له دور سوى التسليم بمواقف كهنة العقيدة.

فما من عقيدة إلا ولها كهنة يقومون على أمرها ويحرسونها ضد المخالفين، وهم الذين يحتكرون الحديث باسمها ، ورغم ذلك توجد لديهم بواقي رحمة يستعينون بها على التمكين ، فيشيع بينهم خطاب.."التسامح"..لإقناع ذوي القلوب، بينما خطاب التسامح هو من منطق وصائي يملك حق القرار، وكم شرحنا وأسهبنا في رفض هذا الخطاب وقلنا أن البديل له هو خطاب.."قبول الآخر"..هنا كان الاعتراف بحق الآخر في الوجود كأساس لقبول معتقداته وكافة حقوقه، بينما خطاب التسامح يجعل هذه الحقوق رهينة لتقدير هذا الطرف أو ذاك لتلك العلاقة.

وهو تقدير محكوم بالمصلحة وبالنسبية ومقيد بالعاطفة، فأيما أحببت فلان فهو صالح يستحق الخير، وأيما كرهت فلان فهو فاسد مفسد يجب التحذير منه ومن شروره، هنا كان التسامح ينظر لنصف الكوب الفارغ ويضع الأديان والقيم في مهب الرغبات والأهواء والصور الخاطئة، بينما القبول يُعالِج فكرة الإنسان عن الأديان والمعتقدات ويحميها من قصور الإنسان وجهله، ويُحسن من توظيف الأخلاق في المعاملات، فالقبول يعزز من فكرتي .."التواضع والإيثار"..وكفى بهما مكرمةً للإنسان، فبهما تتعايش البشرية وتقل النوازع والحروب.

الغريب أن الفكر السلفي عندما يتعامل مع الأخلاق فهو أيضاً يتعامل بالمصلحة، وعندما تسأل لماذا آثر الأنصار المهاجرين عن أنفسهم قالوا

لوجه الله وللإسلام ولنصرة الدين، فهم لا ينزعون الفعل عن نتائجه ويخرجون بنتيجة هي لديهم الهدف النهائي من وراء الفعل، ولو كان ذلك صحيحاً فحروب داعش وجبهة النصرة في سوريا هي لنصرة الإسلام..فأي إسلامٍ يرغبون؟!...هنا كانت النسبية وراء تفسير الأعمال فلا يحق لأحد أن يربطها بالأفعال/ الأخلاق، والصحيح أن تجريد الأخلاق عن أهدافها الدنيوية ونتائجها البعيدة هو حصن منيع لها ضد الكذب والرياء والنفاق، والمعنى أنني أتواضع لوجه الله حتى لو خسرت، وأن أؤثر فلاناً على نفسي لوجه الله حتى لو كان ذلك في النهاية ضدي وضد منفعتي.

لأن خروج صور المنافع في النهاية قد تكون بصورة نسبية، أنا أكره فلان فالأفضل تجنبه، لأنه ليس كل تفسير للمصلحة هو حقيقي أو مطلق ، وهذه آفة فكر سلفية يعاني منها الشباب المتدين بكثرة، فتجد الشاب السلفي يربط بين مصلحته والدين، وعندما يوظف ذلك في العمل السياسي تكون كارثة، وقد كنت يوماً أعتقد بأشباه ونظائر تلك الأفكار، ولكن كانت تحدثني نفسي لماذا هؤلاء.."الكفار"..منسجمين مع أنفسهم وبلادهم نظيفة ولا يهتمون لأحوالنا وبما نقوله عنهم، ورغم ذلك نزعم أنهم سيدخلون النار، حينها كانت تصدمني النصوص بصورتها التأويلية التي احتكرها المشايخ منذ القِدم، وكان لدي شعوراً فياضاً بأن هذه النصوص لم تخرج لتكفير أو لعن هؤلاء، بل كانت موجهة ضد أقوام وجماعات بينها وبين العدل والإخلاص ما صنع الحداد.

أحكي موقفاً كان في تقديري هو السبب في إعادة نظري لمسألة الحديث برمتها، وقتها كنت متديناً سلفياً في جماعة الإخوان، أؤمن بأن ما نحن عليه هو منهج السلف الصالح، وأن الفرق والمذاهب الأخرى كالصوفية والأشعرية والمعتزلة والشيعة والعلمانية والليبرالية واليسارية ...إلخ..كل هذه فرق ضالة عن منهج الحق، وأنهم يعلمون ضلالتهم ..لكنهم يُكابرون، وأن هذه الفرق هي تصديق لحديث يقول فيه رسول الله.."افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار عدا واحدة..قالوا ما هي يارسول الله؟..قال ما أنا وأنتم عليه"..انتهى..

وبالتالي فجميع هذه الفرق السابقة تدخل في عداد الاثنين وسبعين فرقة التي هي في النار..فالسلفي يرى الصوفي والشيعي والعلماني والمعتزلي والأشعري والليبرالي أنهم جميعاً من أصحاب جهنم، نزولاً لنتائج هذا الحديث الشائع، وفي الحقيقة أن هذا الحديث يقوم عليه نصف الدين السلفي كونه يترتب عليه أمرين اثنين:

1-السلفية هي الفرقة الناجية التي ستدخل الجنة.

2-يجب على السلفية دعوة وهداية الآخرين لإنقاذهم من النار.

هكذا كانت عقيدتي التي أخذتها من كتاب.."شرح العقيدة الواسطية"..للشيخ السلفي ابن عثيمين، وكذلك كتاب.."محاضرات في

العقيدة والدعوة"..للشيخ آل فوزان، وكلا الشيخين سلفيين على منهج ابن تيمية، فشرح ابن عثيمين كان على كتاب العقيدة الواسطية لابن تيمية، ولكن كان في قلبي من هذه الكتب أشياء ونواغص تحدث لي أحياناً ، كون هذه الكُتب في مجملها تتضح بكراهية الآخر والوصاية عليه وإخراجه من رحمة الله إلى جهنم وبئس المصير، وأن السلفية هي الحق المطلق والمرسل من عند الله، وأن من رحمة الله بالبشر أن أرسل إليهم شيوخ السلفية قديماً وحديثاً حتى ينجوا بالناس وبأنفسهم جميعاً من النيران.

الذي حدث هو أنني كنت منذ ثمان سنوات أستمع لمحاضرات الدكتور سليم العوا التي عقدها في جمعية مصر للثقافة والحوار، وكانت محاضرات موسمية تناقش كل عام شيئاً في الدين برؤية واسعة وعرض لمعظم الآراء، كان هذا الأسلوب غريباً عليّ كشاب سلفي متدين نشأ على منطق.."الحق المطلق والمذهب الواحد"..وفي محاضرة ما تعرض سليم العوا لحديث.."افترقت اليهود....إلخ"..وهو الحديث المعروف بحديث.."الفرقة الناجية"..الذي تكلمنا عليه ويقوم عليه نصف الدين السلفي..ويالهول ما سمعت ، كانت ضربة قاصمة.. حيث قال العوا أن هذا الحديث مكذوب ومصنوع، وأن الذين صنعوه كانوا يريدون إيصال الفرق إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة فاخترعوا أعداداً لليهود والنصارى كي يمرروا هذا الحديث بين أوساط المسلمين..!

كان جواباً نقضياً وحلياً سريعاً وصاعقاً لم يترك لي فرصة للسؤال، بل صنع لدي مدخلاً للبحث في حقيقة ما قاله الرجل، فكان أن بحثت عن

صحة هذا القول في سلوك مني لم يحدث من قبل، وسألت بعض المشايخ قالوا أن هذا الكلام غير صحيح وأن سليم العوا هو مجرد مفكر وليس شيخاً أو فقيهاً حتى يؤخذ برأيه في الدين، وهو بذلك يطعن في السنة النبوية وبالتالي يطعن في الدين الإسلامي برمته.

لم أقتنع بهذا الكلام ولم أهتم بتلك الأقوال لأن الحقيقة عندي هي ذاتية وليست في شخص فلان وعلان، أياً كان الرجل حتى لو كافراً ولكن يجب البحث في حقيقة كلامه، وهذا يعني أنني أبحث عن الحقيقة لذاتها ولا يهمني من قال ومن سيقول، وكلام العوا خلق لي دافعاً للبحث ..فقررت أن أبحث عند شيوخ أثق فيهم-حينها-كالشيخ القرضاوي الذي كان ولا يزال مرجعية الإخوان الأولى في هذا العصر، فوجدته يقول شبه ما قاله العوا، أن الحديث ضعيف السند، وأن العلماء مختلفون في أمره، ولكن القرضاوي نكث عن هذا الكلام بعد ذلك للتذكير..!

خلاصة هذه القصة أنني بدأت أشك في هذا الحديث وتكلمت فيه سواء في الواقع أو في العالم الافتراضي، وظهر لي شبهات أكثر مما طرحها العوا والقرضاوي، وشرعت في حوار الرأي المخالف في هذا الأمر وعرضت كافة ما عندي من اعتراضات، ولكن لم أجد ما يدفع هذه الاعتراضات بل وجدت خطاباً تكفيرياً عنيفاً سواء من السلفيين أو الإخوان، أو في عالم الإنترنت الذي تعرضت فيه لأكبر حملة تشويه وتكفير بسبب إنكاري لصحة هذا الحديث، رغم أن القرضاوي والعوا- وهم من هم في عالم الإخوان- هم الذين قالوا هذا الكلام، وقديماً قال ابن حزم أن الحديث مكذوب، والشوكاني قال أن زيادة.."كلها في النار"..هي زيادة موضوعة،

فضلاً عن الدراسة المميزة للدكتور حاكم المطيري ..التي أثبت فيها أن الحديث منكر ولا أصل له.

عموماً بعد أن خرج بحثي في هذا الحديث بنتيجة جيدة -وهي اليقين بمكذوبيته-لم أطمئن لأي حديث آخر بعد ذلك إلا بعد التحري والسؤال، والسبب أن لكل فكرة مقدسة طريق إذا كان سالماً ظلت على قدسيتها، ولو كان وعراً فقد خرجت من قداستها لتُصبح عادية، وقد ساهم في ذلك التربية الإخوانية السلفية على أن الحديث هو وحيُ من عند الله، فما بالكم وأن هذا الحديث هو أشهر حديث بين الفرق على الإطلاق، والسلفية تستخدمه كثيراً في خطابها الديني... مما يُعد أصلاً في دينهم ،وقد ظهر أن هذا الأصل ضعيف وهش.. بل بالغ الهشاشة..ألا يُحدث ذلك أثراُ معرفياً في نفسي؟!

إن "زلزال" حديث الفرقة الناجية هو الذي أتى بعد ذلك بالبحث المستفيض في مسائل الحديث، واكتشفت أن أكثر الأحاديث الضعيفة والخرافية هي تُشكل أصولاً في دين السلفية، وبالتالي فهي أصول في دين الإخوان، ومن هنا فقدت حماسي السابق للفكر السلفي بعدما شعرت أنني كنت أتبع أوهاماً لا أصل لها في دين الله أو في الواقع.

كثيرة هذه المسائل التي ظهر لي ضعفها وعدم منطقيتها من الحديث، ولكن الجديد أن الغالبية العظمى منها كانت تخص أمرين اثنين:

1-السياسة والحُكم

2-القصص والأدب الشعبي

فالأولى هي التي شكلت في الوعي السلفي مسائل.."الخلافة والشريعة والمذهب"..أما الثانية فقد شكلت مسائل القصص والخرافات والأوهام كالادعاء بأن هناك عذاباً ثالثاً فوق عذاب الدنيا والآخرة سيكون في القبر، وقصص المهدي المنتظر والمسيخ الدجال ونزول المسيح وأحوال آخر الزمان وفضائل السور وفضائل النبات والحيوان..إلخ...كل هذه هي قصص وأدب شعبي قديم وأعراف بدوية تحولت بقدرة قادر إلى أحاديث مقدسة ووحيُ من الله يجب تصديقه دون التفكر فيه، حتى أن رائحة الأدب الشعبي واضحة جداً في قصص الصحابي المزعوم.."القعقاع بن عمرو"..والتي بحثنا فيها في السابق وظهرت أنها صناعة قبلية ولا يوجد صحابي بهذا الاسم مطلقاً، وكذلك قصص الدابة المشهورة.."بالجساسة"..واضحة أنها من بقايا أدب الإغريق رغم أنها في الصحاح..!!

لقد ظهر لي أن قواعد التحديث والعنعنة لا يمكن الوثوق فيها لأي بناء تشريعي، يمكن-لو صحت-الاعتماد عليها في القيم والأخلاق وفضائل الأعمال، أما أن تُصبح قاعدة ومعياراً للتشريع والحُكم بها على الناس..فهذا تصرف غير سليم وخطير على الإسلام والبشرية، ويتساوى في ذلك تراث السنة مع الشيعة ، لا فارق.. فالجميع يعتمد مبدأ التحديث والعنعنة الذي في تقديري هو يُشبه حديث النساء وإشاعاتهم وجلسات المصاطب، قال فلان وقال علان..طب وما أدراني أنه قال؟..وما أدراني

بصحة الاحتجاج به لو قال؟..كلامك ليس حُجة، والإجماع على هذه الأشياء مستحيل، وليس أدل من ذلك على أن العلماء جعلوا شرط اليقين بالرواية أن تبلغ مبلغ التواتر، وهذا شرط يصعب جدا -بل ويستحيل- تحققه في هذه الروايات..

لكن الغريب أن جمهور العلماء لم يلزموا تلك القواعد كما سنُبيّن بعد قليل، وذهبوا بعلومهم الفكرية والفقهية في اتجاه مختلف، حتى شاع على المنابر -وفي الكتب- لفظ.."قال رسول الله"..وهو لفظ يتعارض مع تعريفهم للتواتر ابتداء، لأنه لم يصبح شرطاً لليقين..بل كل رواية-حتى لو ضعيفة السند-يجوز نسبة قولها لرسول الله، وهذا أمر خطير.. وهو ما أنتج كافة الضلالات والانحرافات الفكرية والانشقاقات التي عاني منها المسلمون منذ وفاة الرسول وإلى الآن.

لقد قادني هذا الاتجاه إلى تأليف رسالة في التواتر كتبتها منذ عام ونيف..اعتمدت فيها على تعريف الغزالي للتواتر وردوده على القاضي عياض، وظهر لي أن التواتر يشترط فيه بلوغ العلم قبل الراوية، أي أنه ليس بمجرد الراوية يكون العلم حتى لو صحت أو تعددت طُرقها، طالما كانت مجهولة فهذا دليل على جواز الشك في نسبتها –يقيناً-لرسول الله، واختصاراً لهذا الأمر أعرض رؤية أبو حامد الغزالي في رده على من يُثبت التواتر بالعدد..قال .." عدد المخبرين ينقسم إلى ما هو ناقص فلا يفيد العلم وإلى ما هو كامل وهو الذي يفيد العلم وإلى زائد وهو الذي يحصل العلم ببعضه وتقع الزيادة فضلا عن الكفاية والكامل وهو أقل عدد يورث العلم ليس معلوما لنا لكنا بحصول العلم الضروري نتبين كمال

العدد لا أنا بكمال العدد نستدل على حصول العلم"..(المستصفى 254/1)..

ويظهر من كلام الغزالي تشدده في إثبات التواتر، والمعنى أن حصول العلم الضروري بالخبر يتبين به كمال العدد، لا العكس كما فعل البعض من الفقهاء وأثبتوا التواتر بمجرد إحصاء الطرق، فمنهم من أثبته على ثلاثين ومنهم من أثبته على عشرين ثم عشرة بل منهم من أثبته على خمسة طرق..وهذا استخفاف وانحراف وتهور وبه من الجرأة على رسول الله الكثير ، أن ينسبوا قولاً لشخص عادي بمجرد اجتماع خمسة أشخاص أو حتى عشرة أو عشرين..وربما يكونوا متفرقين ومن بلاد بعيدة مُشتتة..فسيكون أمر في منتهى الصعوبة ولن يرضوه طالما لم يكونوا متيقينين، فكيف يتجرأون على الرسول -وهو من هو في الدين الإسلامي-بهذا الشكل وينسبون له الأقوال بمجرد قول فلان وعلان..!

بالطبع كانت هذه ورطة شديدة ،ولكن لكي يُرضوا غرورهم ويُقنعوا أنفسهم اخترعوا علماً في الحديث يُسمى.."علم الرجال"..كي تكون لهم الحُجة بإثبات الأقوال للنبي بأي شكل، ولكن الأغرب أنه وبعد اختراعهم لهذا العلم لم يتفقوا على الرجال، وخرجت أحكامهم نسبية، ومنهم من ذم ومدح نفس الشخص، ثم يأتون بعد ذلك ويقولون أن الحديث صحيح ..!

في النهاية أنا لم أقتنع بأن فلاناً من الناس-أياً كان هو-له الحق في الحُكم على غيره ثم يدعي الفقهاء وجوب النزول على أمره، وكأننا في النهاية نتبع أشخاصاً ورؤيتهم للحياة، وأذكر أن لي كلمة قلتها على ملتقى

الإخوان منذ ثلاث سنوات قلت فيها.." أن الإنسان الذي يريد الحُكم على عدالة وثقة إنسان هو لا يضمن حتى عدالة نفسه أو أنها على هدىً وبينة"..وهذا قولُ يهدم علم الرجال وينسفه نسفا، رغم أن الخلاف حوله ليس سائغاً مما يجعله صحيحاً في المجمل، لأنك لو سألت أي شخص –حتى ممن يعملون في الحديث-سيُقر بأنه لا يضمن عدالة نفسه أو أنها على هُدىً وبينة..!

عموماً لقد انتقل الحديث عندي من مرحلة القُدسية إلى مرحلة أخرى عادية، وبهذا الانتقال أصبح الخروج من الفكر السلفي هو أمر حتمي بعد تعدد الخلافات معه وانكشاف أمره أنه يقوم في المجمل على الحديث وقواعده، والتاريخ وأحداثه، رغم اعترافي بأن الشروط التي وضعها المحدثون هي في المجمل جيدة وصارمة، فعندما يقول الأديب أبو الطيب الوشاء(ت325هـ) أن من قوادح الراوي أنه كثير الالتفات لأن ذلك من طبع اللصوص، فهذا شرط قاسي جداً ..وما الذي يمنع الالتفات مع الحفظ؟!..فالتلفت هو تصرف سلوكي عصبي قد لا ينفي سلامة العقل وصحة الذاكرة، ثم ما أدرانا أنه لو ثبت في حق الراوي تلفته أنه يكون ذلك استثناءا ؟... أو أنه شهادة كيدية من خصومه؟..أو أنه لم يحدث أصلاً وجرى تناوله على المُشاع؟

كثيرة هذه الانتقادات على قواعد الجرح والتعديل في علم الرجال، ولكن صرامة هذه الشروط يُخرجها في النهاية كمبادئ عامة لم يلتزم بها المحدثون والفقهاء، والأسباب كثيرة ..منها نقص في المعلومات، والخلافات المذهبية والسياسية، علاوة على نوازع التقليد والترديد، يكفي

معرفة أن صياغة علوم الحديث برمتها خرجت في عصر كان العرب فيه يعتمدون على الذاكرة، والذاكرة وحدها لا تكفي -مهما بلغت قوتها- في نقل الأخبار والكلام على حقائقهم، حتى صنع ذلك لمن جاء خلفهم نقصاً معرفياً حاداً كان هو السبب في الافتراق والتشتت والنزاعات والحروب، كل ذلك بسبب أنهم اعتمدوا على الحديث والراوية التاريخية في تفسير الدين، حتى أن كتباً كاملة ظهرت لتفسير القرآن كانت مخصصة للتفسير بالراوية ومساحة العقل فيها قليلة جداً تصل إلى حد النُدرة..!

أخيراً -وفي ختام هذه الدراسة- أوضح أن موقفي من السلفية كموقفي من الحديث، لا أرد السلفية جُملة ولا أرد الحديث جُملة، فالسلفية رغم ما بها من جهالة وحماقة وشرور إلا أن فيها بعض الخير ..كغيرتهم على التوحيد رغم أن أكثرهم متطرفون في هذا الجانب، ولكن مبدأي أن وحدة الآلهة في إلهٍ واحد هو مبدأ فكري عظيم يضع البشر والأديان في وحدة كونية متسقة تدين بالولاء لأمرٍ واحد، وتجعل الحياة أكثر تنظيماً واتساقاً من تعدد الآلهة، رغم أن السلفية غالباً ما يقعون فيما يرمون به خصومهم من الصوفية والشيعة، فهم يرون أفعالهم جارحة للعقيدة ولمبدأ التوحيد، والسلفية كذلك في تقديري هم يجرحون مبدأ التوحيد بتقديسهم لشيوخهم وإنزال أئمتهم صفتي القداسة والعصمة..!

فتراهم يغضبون بشدة حين تنتقد أحد أئمتهم أو رموزهم الدينية أو السياسية، لأن الأمور لديهم مختلطة، وهذا جانب آخر يكثر الكلام فيه ولكن أكتفي ببيان ما قلته في دوافع وكيفية انسلاخي عن الفكر السلفي،

وأوضح أنه وبعد تجارب كثيرة وانتسابي لبعض الأفكار والاتجاهات أن من يريد البحث أو الوقوف على أمراض المسلمين والعرب فلينظر إلى السلفية، فهي كحُجرة القمامة-عُذراً على التشبيه-تحوي بداخلها كافة بقايا الطعام والشراب والسلع، وتضم بين خلاياها كافة أمراض المسلمين والعرب العقلية والسلوكية، وهي مادة دسمة لأي باحث يريد استكشاف المستقبل، كمن أراد التنبؤ بمصير المسلمين والعرب منذ أربعين عاماً رصد انتشاراً للفكر السلفي، وتنبأ بأن العرب والمسلمين سيمرون بحالات من عدم الاستقرار وتكثر فيهم نزعات الحروب والفتن ..أجارنا الله وإياكم منها ..والله المستعان..

رسالة في الخلافة الإسلامية

منذ نشأة الإنسان على كوكب الأرض وهو في صراعٍ دائمٍ على الطعام أو على السُلطة، كان صراعه على الطعام لا يتوقف مع بني جنسه، بل كان يتعداه للصراع مع الحيوانات والطيور، وأحياناً لا تُساعده قدراته في الصمود أمام قوة هذه المخلوقات وفضائلها البنيوية والغرائزية، أما صراعه على السُلطة فكان ينشد منه الأمن لنفسه ولأهله، لأن السُلطة هي مصدر الأمن، وبدونها يخاف الإنسان وتُصبِح حياته مُهددة بلا معنى، فكان مُجمل صراعه لتحقيق أمرين اثنين.."الأمن والطعام"..وإذا ما كفى نفسه هذه الأشياء تجده وقد جلَت له الدنيا، فيبحث عن المزيد بُغية الحياة وزينتها.

كان مُحركه الأول في بحثه هو الطمع ، وحين كشف عقله الأديان لجأ إلى تشريع أعماله بصبِغة إلهية، فانتشر منذ القِدَم أن ممثل السلطة –أي الحاكم- هو خليفة الله في أرضه، وهو المتحدث باسم الله، أو كما زعم بعض خلفاء الأمويين والعباسيين أنهم ظلال الله في أرضه، أو كما زعم أبو جعفر المنصور أنه سُلطان الله في الأرض، سنرى هذه الصورة هي الصورة الفرعونية التي جعلت من الملك إلها، فإذا اتحدت صورة الدين مع صورة المُلك جعلت من الحاكم مُنزّهاً مقدساً لا يجوز نقده أو الخروج عليه بحال، وبالمناسبة كانت هذه الصورة هي صورة الحاكم في الشرق القديم، حيث كان الإمبراطور الصيني في منزلة أقرب إلى الألوهية تجري أعماله موضع الأمر، وعلى الشعب وجوب الطاعة وإلا كان العقاب.

أما عند العرب فقد تطورت هذه الصورة إلى معانٍ أقرب إلى الاحترام والخشوع بإضافة معاني الأبوة إلى صورة المُلك، حتى أن نتائج هذه الصورة لا زالت في وعي العرب إلى يومنا هذا، ولا تقتصر على المُلك الأكبر بل إلى كل مسئول صغير أو كبير، وهذا يعني أن صورة الخلافة قد صنعتها أيادي الأقوياء والنافذين وصدّقتها عقول الشعب القاصرة وأفئدتها الضعيفة، فالشعب لم يخلق مليكه إلا متأخرا، قبل ذلك كان لا يجوز، بل كانت الشعوب القوية تستعبد الضعيفة باستباحة أملاكها ونسائها وأديانها، جميع الأديان على كوكب الأرض انتشرت في الغالِب بالقوة، وقليلاً ما كانت تنتشر بالإقناع، وهذا يدل على أن أدواء السلطة وطمع الإنسان وبحثه عن أمنه ..حال دون أن يقنع الإنسان بما يعتقد،

وأجبره الأقوياء على القول بما يقولون والعيش على طرائقهم باستعبادٍ صارخ لا زالت البشرية تئنّ منه إلى اليوم.

في الدين الإسلامي يزعم البعض بوجوب ما يسمونه.."بالخلافة الإسلامية"..كضرورة تقتضيها الأحكام الشرعية، وهي بذلك.."حُكمُ شرعي"..واجب النفاذ نزولاً لتقليد الأولين في الأسلوب وفي التسمية، وقد عرّفها ابن خلدون في المقدمة بأنها.." حمل الكافّة على مقتضى النّظر الشّرعي في مصالحهم الأخرويّة والدّنيويّة الرّاجعة إليها إذ أحوال الدّنيا ترجع كلّها عند الشّارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا"..(مقدمة ابن خلدون 239/1).. أي أنها في تعريفٍ موجز وواضح بالعربية أن.."الخليفة هو حارس الدين وحكومته هي الموكلة بالنّظَر الشرعي"..وهو المعنى العام لتطبيق الشريعة عند هؤلاء.

فالخلافة والشريعة وجهان لعُملة واحدة يسعون لامتلاكها بغرض الفوز بالدنيا والنجاة في الآخرة، وبعد بيان التعريف أتساءل ما الفارق بين هذا المفهوم –عن الخلافة- وبين مفهوم المُلك الفرعوني والإلهي عند القُدماء؟

في الحقيقة أنه لا يُوجَد فارق، فالمَلك في دولة الخلافة هو مُتحدثُ عن الله كونه حارساً لدينه، ومن ذا الذي يحرس شيئاً لا يعرفه ولا يحق له الحديث باسمه؟..نحن إذا وكّلنا مديراً لشركة فهو يتحدث باسمها عبر قوانين موضوعة من عنده، فما بالنا بخليفة يرأس العامّة باسم الله، حُجّتهم

في ذلك أن الرسول كان هو الخليفة، ومن يخلف الخليفة فهو خليفة مثله، وهذا امتعاضُ لقدر وجلالة النبوة وحصرها في مسائل السياسة، فالنبي كان داعياً قبل أن يملك، ودولته كانت ضرورة تاريخية اقتضتها وسائل الدفاع،ولم يظهر من القرآن أنّ الخلافة هي حُكمُ شرعي واجب النفاذ، ودليلنا في ذلك أن مفهوم .."الحاكمية"..لم يتبلور في فكر سياسي قبل القرن الخامس الهجري، بدءاً من زمان ابن العربي المالكي والماوردي وابن خلدون وأبي يعلي، كانت السياسة قبل ذلك عبارة عن سُلطة لا فكر فيها ولا كياسة سوى قُدرات الحاكم.

أي ظل المسلمون 500 عام بعد وفاة الرسول لا يكتبون شيئاً عن السياسة، وبالتالي لا يعرفون شيئاً عن أساليبها ودروبها، فإذا كانت الخلافة هي حُكمُ شرعي فينبغي أن تُدرك بالسياسة لا بالسلطة وهذا معيار نقضها العقلي والديني، ولا يهمنا أن قام بعض علماء المسلمين السُنة بتأويل النصوص وليّ أعناق الآيات وتفسيرها بالروايات المكذوبة كي تُلائم صورتهم القاتمة والعضوضية عن المُلك و الخلافة، ناهيك عن تجاوز الخلفاء في صدر الإسلام بما نعتبره سلوكاً خاطئاً لا يجوز حمله على الدين، بدايةً من اجتماع السقيفة –أنظر رسالتنا عن السياسة-مروراً باغتيال الخلفاء وانتهاءً بعصر الفتنة الكُبرى التي نتجت عن التجارة بدم الخليفة عثمان.

أي أن من يزعم حق الخلافة هو في حقيقته يُريد العودة إلى أصول الإنسان الأولى بالصراع الدموي على السُلطة التي يعقبها طمعاً يقذفه في حضيض الفتن، كل ذلك من جراء تَملّكه باسم الله وزعمهم بأن الخليفة

هو حارس الدين.. تقريباً يمكن فهم عصر الخلافة والفتنة الكُبرى ضمن سياق تعريف ابن خلدون للخلافة، فأبي بكر الصديق وابن الخطاب وعثمان وعليّ ومعاوية كانوا جميعاً يتحدثون باسم الله ..ليسوا وحدهم بل كافة معارضيهم، ولا مفرّ من الاعتراف بذلك كحقيقة تاريخية وثقتها كُتُب السِيَر والتاريخ، وهو نفس السبب الذي افترق المسلمون من أجله، وهو الزعم بامتلاك الحقّ الإلهي الصادر من الله، ونسوا هؤلاء جميعاً -المطالبين بالخلافة- أنهم يؤمنون بانقطاع الوحي وباكتمال الدين بختم القرآن على قلب وعقل الرسول.

كما قلنا بأن من وضع مفهوم الخلافة كحق إلهي وحُكم شرعي واجب النفاذ، هو من يُطالب الشعب بسمعه وطاعته في الظاهر والباطن، وهم الأقوياء في كل المجتمعات، أي أن المسألة ليست قاصرة على المسلمين والعرب، بل في الشعوب الأخرى يكاد يكون المَلك إلهاً لا تجوز معارضته ويَحرُم الحديث في شأنه، حتى أن النصيحة يجب أن تكون في سياق القبول من الحاكم وإلا فلا، ولو تأملنا مجتمع الإخوان لرأينا أنهم يُطبّقون هذا المفهوم بحذافيره، وهم أشهر من يرفعون دعوى الخلافة، وعن طريقهم افترقت الجماعات في شكل هذه الخلافة، وإن كانوا يجتمعون جميعا في تعريف ابن خلدون سالف الذكر.

في السطور القادمة سأطرح رؤية جماعة الإخوان مُمثّلة في رأي مرشدها حسن الهضيبي لمقاربة فكرة الخلافة القديمة بالجديدة، وذلك باقتباس فقرة من بحثنا السابق.."نقد لفكرة أستاذية العالَم عند جماعة الإخوان"..وعِلّة هذا الطرح هو توافقه- رؤية الهضيبي الحديثة- مع

رؤية ابن خلدون القديمة، كلهم يجتمعون على صورة للخلافة السائدة في القرون الوسطى التي أعقبت عمليات التدوين الروائية الناسخة للقرآن ، ولا اعتبار لرؤية قرآنية أو عقلية خارج ماتُقره تلك الروايات، وقد كان ذلك هو المطبّ الذي وقع فيه ابن خلدون، فبرغم كونه مفكراً رائعاً إلا أنه كان غارقاً في التقليد حين يمس ما تعارف عليه المسلمون في عصره..

يقول الهضيبي في كتاب.."دعاة لا قُضاة"

1-(إن الحكومة الإسلامية "أو الإمام الحق" إنما هي الحكومة التي تعتنق الإسلام دينًا وتقوم على تنفيذ أحكام الشريعة وحراسة الدين)..

2-(أحكام الشريعة هي التي تأمرنا بحراسة الدين والذب عنه والتمكين للمسلمين في الأرض وصَدِّ العدوان الذي قد يقع عليهم، والعمل على نشر دعوة الله والقتال لتكون كلمة الله هي العليا (وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله)..

3-(كما يتعين أن يكون الإمام رجلاً: لقول رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة)..

4-(لا مراء أن الأمة مأمورة أن تنقاد للإمام المسلم الذي يقيم فيها أحكام الله ويسوسها بأحكام الشريعة ووحدة الصف وتماسك أفراد الأمة بعضهم ببعض والحرص الشديد على اجتماع الكلمة ومنع الفتنة من صفات

المؤمنين البارزة حتى إن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ ليقول: "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه).

نقد لرؤية الهضيبي:

1-لفظ(حراسة الدين) المذكور أعلاه موجود في فقه الجماعة بعدة تجليات عُرفت بالولاء والبراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع وخلافه..فبمجرد أن تكون هناك سلطة مركزية تعمل على(حراسة الدين)هذا يعني أنها ستحارب أي مبتدع أو منحرف أو عدو للدين..وبالتالي فهي ستحارب أي مخالف(لفهمها)للدين كنتيجة طبيعية لما قلناه في السابق بأن فهم البشر للأديان نسبي، وعليه كان يجب تحرير هذه الأشياء أولاً..(الحكومة الإسلامية-أحكام الشريعة-حراسة الدين)..ولكن لم يحدث ذلك لاعتقادهم بأن المسألة بديهية وهو أمر غير صحيح إطلاقاً والخلاف فيها كبير.

2-لا يوجد شئ اسمه(حكومة إسلامية)في ظل دستور يسمح بالمواطنة والتعدد والمنافسة الحزبية، وهذه إحدى تناقضات الوعي الإخواني بوجهٍ عام، حيث أنهم يؤمنون بالدستور وبفكرة المواطنة والمنافسة،ومع ذلك يقولون بأن تكوين الحكومة الإسلامية فرض واجب، فماذا سيفعلون مع منافسيهم ممن يرفضون أفكارهم ومناهجهم أصلاً؟!..هذا سيضعهم أمام خيارين اثنين ، الأول أن يفرضوا "رؤيتهم" للشريعة على كافة الأحزاب المنافِسة كي يُحققوا الحكومة الإسلامية.. وبالتالي سيرفضون منافسة هذه

الأحزاب من الجذور، وسيلغونها أو يطردونها من الحياة الحزبية العامة، أما الثاني فهو أن يُعيدوا النظر في تصورهم للدولة وللشريعة وهذا –في تقديري- أنه أمر غير ممكن مع الجماعة الحالية، فهي تتحالف مع "الراديكاليين" في مواجهة المعارضة بالعموم،فأصبحت النتيجة أنهم يدعون إلى المواطنة والتعدد ولكن ينقضونها بفهمهم للشريعة وسلوكياتهم وتحالفاتهم المشبوهة، فخرجت مفاهيمهم جوفاء لا دلالات لها على أرض الواقع ..إلا كما قال الدكتور عبدالحليم قنديل من قبل أن الإخوان فعلوا كل شئ في الحُكم عدا الشريعة.

3-أنهم يشترطون لتحقيق معنى(الحكومة الإسلامية) هو أن يكونوا جميعاً متدينين بالدين الإسلامي..فلِماذا كان قبولهم بولاية المسيحي في الدولة؟!..هذا يعني أنهم لن يقبلوا بولاية المسيحي إذا ما أيقنوا بأن الشعب قد دان لهم بالولاء وسيسنون التشريعات المُجرّمة والمُحرّمة لولاية المسيحي تحت دعوى الاستجابة(للرأي العام).

4-أنهم يشترطون لتحقيق معنى(الحكومة الإسلامية) أن يكون الحاكم رجلاً، ونفس ما ينطبق على ولاية المسيحي ينطبق على ولاية المرأة.

5-وهو أخطر ما في رؤية الهضيبي، أن الخارج أو المعارض (للإمام الحق أو الحكومة الإسلامية) هو خارج عن وحدة الصف بالضرورة ويجوز قتاله أو قتله، وعليه فالهضيبي لا يؤمن بوجود المعارضة (لحكومته الإسلامية)..وهذا يفسر معارضتهم لكافة أنظمة الحُكم السابقة وهي أنها لم تكن معارضةً للظلم الواقع أو للتقصير البائن بل كانت

معارضةً قوامها أن السُلطة ليست(إسلامية) وعليه فيجب الخروج عليها ومعارضتها وتحويلها كي تكون إسلامية.انتهى

يظهر كذلك من رؤية الهضيبي أن الخط العام للفكر السياسي السُني هو واحد منذ عصر الماوردي وابن خلدون وابن العربي إلى عصر جماعة الإخوان، ويتفقون جميعاً في إضفاء القداسة على الأحداث التاريخية الفاصلة واعتبارها أدلة ومصابيح يسترشدون بها في الظلام، وكذلك لم تتغير أساليبهم في تبرير أخطاء الحُكّام ، وقد ظهر ذلك جلياً في رؤيتهم للفتنة الكبرى وعصر الخلافة، بل ووصل الأمر إلى ملوك الأمويين قاموا جميعاً بتبرير أخطائهم وجرائمهم بنفس الخلفية السابقة، وهي اعتقادهم بأن الخليفة هو حارس الدين، بالتالي يجوز له أي عمل في سبيل تحقيق ذلك وفق رؤية الحكومة.

إن الخلافة تتحدث بالسُلطة والسياسة ولا علاقة لها بالتوحيد والإيمان بالرسل والملائكة ، حتى حكايتها على ألسن الفقهاء جاءت بأفهام وتأويلات تحاكي في مضامينها أحداثاً سياسية وليست دينية..وما ذكره الهضيبي كسره الإخوان بإيمانهم بالديمقراطية..فالعصا التي تُشقّ عصا الطاعة هي ذاتها وسائل الديمقراطية وآلياتها، فلا يُقال أن دستوراً يُجيز المنافسة الحزبية يتوافق مع مفهوم الخروج عن الحاكم المتعلق بمفهوم الخلافة الوارد عن ابن خلدون وتؤمن به كافة الجماعات الدينية.

إن مسألة الخلافة والدعوة لها الآن هي ضد الشريعة والعقل والمجتمع في آنٍ واحد.. فكرة الخلافة لا يصح تضمينها داخل مفهوم وأسلوب الدولة

الحديثة -دولة المؤسسات- علاوة أن الخلافة -كمفهوم وآليات -هي محاولة لاستدرار للتاريخ وعودة للناس بمفاهيم الماضي، كذلك هم يزعمون أن الخليفة سيكون حاكماً وقدوةً لنشر الدين في آنٍ واحد، وهذا خطأ لا يستقيم، فالسيطرة هنا عسكرية وليست عقلية سلوكية، لأن فكرة السلطة-المتعلقة بالخلافة-هي فكرة عسكرية بحتة، لأن التاريخ لم يذكر حادثة وحيدة حَكَمَ فيها الضعيف من هو أقوى منه.

معنى أن يطرح هؤلاء فكرة الخلافة يعني أن رؤيتهم المستقبلية غير موجودة، ولتبسيط ذلك فالزمان عبارة عن.."ماضي وحاضر ومستقبل"..وما حدث من أمور الخلافة بعد الرسول كان مستقبلاً لماضي قد انتهى وهو دولة الرسول، فيَثْبُت أن مستقبل الكون عند هؤلاء غير واضح المعالِم، لذلك هم يتخبطون وكلما أرادوا خلافةً في مكان نراهم وقد أصبحوا مجرمين، تَخرُب البلاد على أيديهم وتسقط ضمائر الناس وأديانهم، وهذا دليل إضافي على أن فكرة الخلافة هي فاسدة لا تصلح لأي مجتمع، حتى مع أمثلتهم ونماذجهم يعترفون أنه لا يوجد نموذج واحد يُمثّلهم، مما يعني أنهم يتصورون العالم بصورة طوباوية مثالية يُهرول إليها الجميع ، وهذا غير حقيقي وغير واقعي وهو ما أنتج صور الفساد والاستبداد السياسي عبر التاريخ..الدولة الأموية نشأت كذلك ..والعباسية والعثمانية كذلك..كان لكلٍ منهم مشروعاً عِرقياً أو دينيا عاطفياً أو وِراثيا..تعددت الصفات ولكن مشروعهم واحد، جميعهم استبدوا بالحُكم وظلموا الناس وقتلوهم في جرائم متتالية يندى لها الجبين.

من جانبٍ آخر لا يُمكن التعاطي مع دولة الخلافة -وتفسيرها- بدون التعاطي مع ما حدث بعدها ، هذا في حال تغاضينا عن ما حدث في دولة الخلافة والأسباب الحقيقية التي أدت للثورة الشعبية التي أطاحت بالخليفة عُثمان وقتلته...كُتب التاريخ تعج بهذه الأسباب وللأسف لا يذكرها إلا القليل، وكأن قدرنا أن نطمس تاريخنا بأيدينا خوفاً ورهبةً من أن يُقال عنا ما نكره.

كذلك في كل زمان أحداث ، هذه الأحداث يستحيل أن تتكرر بنفس الطبيعة والأسلوب، قد تتكرر شكلياً أي وصفياً، بمعنى أن الخلافة كانت موجودة في السابق ولكن يستحيل إيجادها في اللاحق كطبيعة وكآليات وكأسلوب، وهو ما شرحته في بحث.."أكذوبة خير القرون".. بمعنى أن التفكير الآن في الخلافة –بنفس مزاعم الداعين لها-هو درب من دروب الوهم، مع ذلك يمكن أن توجد الخلافة في صور أخرى.. كأي تكتل سياسي أو اقتصادي، ومع إمكانية تحقق ذلك فالعرب والمسلمين ليسوا مؤهلين له الآن، بل بينهم وبين هذه التكتلات العديد من السنوات الضوئية!

أخيراً فبمجرد ذكر الخلافة إلا ويعتري ذلك جرائم وفِتَن متعاقبة لا يسلم منها أحد، بينما الدين لا يُنادي بهذه الجرائم، بل ويُحاربها، جميع الأديان قد شرّعها الله لوحدة البشر وجمعهم على مصالحهم وعلاج مشاكلهم ولتعزيز فضائلهم والمحافظة على ثوابتهم الأخلاقية والنضالية، فلو أصبح الدين عند البعض سبباً للتفرقة أو انحطاط الأخلاق أو غياب الكفاح وانتشار الظلم فاعلم أن هذا الدين هو دين مزيف وليس له شأن بما أنزل

على الأنبياء ...المتدين الحقيقي هو الذي يَجمع ولا يُفرّق، يُناضِل ولا يقعد، يعلم ولا يجهل، ينشر العدل ويتحرز من الظلم ولو على مصلحته، إذا تدين الإنسان وبدأ بفرز عقائد الناس وإطلاق الأحكام في حق مخالفيه فهو ينصر نفسه وليس الدين..حتى لو نادى بالخلافة فدعواه كاذبة...لا خلافة في الإسلام.

رسالة في موقف البخاري من أبي حنيفة

بعد وفاة الرسول كَثُرَت الأخبار عنه وحكاياته وأقواله،وجاءت مراحلها لأغراض متعددة..كان فيها الوضع ينشط حسب الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية، فأثناء كل معركة حربية أو فكرية أو دينية تظهر أحاديث منسوبة للرسول تنتصر فيها لأطراف معينة ، وكعادة الجمهور فهو يتعامل مع هذه الأخبار بسلبية سمحت بانتشار هذه الأخبار ورسوخها كتراث ديني مقدس، وكعادة العُقلاء فقد قاوموا هذه الأخبار الموضوعة باتباع طريقين اثنين، الأول هو عدم الاعتراف بها والتحذير منها، الثاني هو تحكيم العقل وتشجيع إبداء الرأي في المسائل الدينية.

وقد سلك طريق العقل والرأي مجموعات من المفكرين والفقهاء في صدر الإسلام، وفي رد فعل طبيعي قمعتهم آلة السلطة وتيار المقلدين بالتكفير وأحياناً بالقتل أو العزل الاجتماعي، فكان كل من يُعمِل عقله في الأشياء هم تيار واحد من صفاته الزندقة والشطط، كانت من نتائج ذلك أنه وفي أولى الاختبارات الفقهية نشأت مدرسة الرأي في الكوفة على يد الإمام أبي حنيفة النعمان(80-150هـ)وجاءت هذه المدرسة امتداداً للحركة

الفكرية في عصر الأمويين التي قمعت فيها السلطة تيار الجعد بن درهم(ت105هــ) وغيلان الدمشقي(ت125هــ) والجهم بن صفوان(ت128هــ)ومعبد الجهني(ت80هــ)..كلهم كانوا مفكرين ودعاة حرية ولكن قتلهم الاستبداد والعنف الديني ورموهم باتهامات وثقتها آلة التبرير بعد ذلك.

أي أن مدرسة الأحناف نشأت كرد فعل على شيوع الوضع وتحريف الدين الإسلامي، وطبقاً لقاعدة نيوتن "لكل فعل رد فعل" نشأ تيار مُعادي للأحناف هو الآخر ، يطالب هذا التيار بالرجوع للأحاديث التي خاصمها أبو حنيفة بشكلٍ كبير ، وتوسع هذا التيار حتى شمل أئمة الفقه في أواخر عصر أبي حنيفة، وبما أن الكوفة كانت عاصمة الأحناف ومصدر قوتهم..كانت البصرة هي عاصمة الخصوم الذين عُرِفوا بعد ذلك.."بأهل الحديث".

أصبحت المعركة الآن بين أهل الرأي "الأحناف" وبين أهل الحديث الذين ظهروا بعد ذلك بمذاهب فقهية كانت المالكية ثم الشافعية ثم أخيراً الحنابلة، ورغم أن القوة غير متكافئة من حيث الكم والعدد إلا أن الكيف والجودة العقلية للأحناف خلقت لهم ميزة فقهية يستطيعون بها التقرب للجماهير التي تتوق إلى التيسير والبساطة، فكان على الطرف الآخر مواجهة الأحناف ومفكريهم ..فلجأوا إلى تدوين الحديث وتوسعوا في كتابتها بشكل يُقنع الجماهير، وهذا ما حدث بالفعل، ففي أواخر عصر أبي حنيفة بدأ الحديث يأخذ مرحلة التدوين بشكل رسمي بعد أن ظل لعقود متصلة شفهياً، وكان أشهر كتب الحديث التي -أسست لتلك

المرحلة- هو الموطأ لمالك بن أنس(ت179هـ)،وجاء بعد ذلك الشافعي(ت204هـ) ليضع إعلاناً دستورياً فقهياً بأن الأحاديث هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله..ثم جاء ابن حنبل(ت241هـ) وإبنه ليُعلنوا عن ولادة أكبر كتاب حديث بعد مالك وهو المسند.

كان مجموع ما كتبه مالك وابن حنبل حوالي 30 ألف حديث، غير ما كان مُشاعاً بين الناس ووصل إلى مئات الآلاف ،وبذلك خرج الوضع عن السيطرة وانتشر الكذب على رسول الله حتى بات يُهدد ذلك العلماء وحياتهم بشكل رئيسي، فنشأت الحاجة إلى كُتب حديثية جديدة تحقق شرطين اثنين، الأول أن يتصدى فيها المحدثون للكذابين ويستطيعون بها السيطرة على عمليات الوضع المتفشية ، والشرط الثاني أن تُحقق الكُتب الهدف الرئيسي لها وهو مواجهة العقلاء وأصحاب الرأي، أو ما يُعرفون حينها بالأحناف وكانوا يصفونهم أحياناً بالمرجئة وأحياناً بالجهمية.

ثم كانت الثمرة الأولى لهذا الاتجاه هو.."صحيح الجامع "..لمحمد ابن إسماعيل البخاري(ت256هـ)، فتمت عمليات الفلترة وتنقية موطأ مالك ومسند ابن حنبل وتصانيف آخرى بالحذف والإضافة، ثم كان تدوين ما كان يعتقده البخاري من عقائد نقلها عن شيوخه، وبعد جهد خرج صحيح الجامع بثلاثة آلاف حديث غير المكرر، ملأ فيها البخاري صحيحه بآراء فقهية مخالفة للأحناف، وكانت عبر شيوخ ورواة هم خصوم وأعداء لأبي حنيفة..سنكشف مثالاً من ذلك في الأسطر القادمة وكيف أن شيوخ البخاري كانوا ما بين مُكفّر ولعّانٍ لأبي حنيفة، ليكون ذلك دليلاً على أن

تأليف البخاري لصحيحه كان رداً على جهات فكرية بعينها، أراد المحدثون- عن طريقها- مواجهة أصحاب الرأي...

سأنقل هنا أحوال 10 رواة وشيوخ للبخاري، رغم أن العدد أكبر من ذلك بكثير، ولكن سنكتفي بعشرة فقط للإيجاز والمثال، ومن أراد البحث عن غيرهم سيرى نفس أحوال العشرة.

الراوي الأول هو .."عبدالله بن الزبير الحميدي"..توفي عام 219هـ

هو من أعظم وأجل الرواة عند البخاري، وكان يقول عنه.."إمام الحديث"..، بل أن البخاري قد افتتح كتابه ب.."حدثنا الحميدي"..هكذا دون مقدمة أو خطبة تمهيدية كسائر الكُتب..روى له البخاري في الصحيح 85 حديث، كلهم من رواية الحميدي حصرياً..كان الرجل متطرفاً تكفيرياً..كتب كتاب.."الرد على النعمان"..كفر فيه أبي حنيفة، وروي عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء شدة موقفه من الأحناف قائلاً:" والله لأن أغزو هؤلاء الذين يردون حديث رسول الله أحب إلي من أن أغزو عدتهم من الأتراك"... يقصد الأحناف...وقال:" ما دمت بالحجاز، وأحمد بن حنبل بالعراق، وإسحاق بخراسان، لا يغلبنا أحد"(619/10).

باختصار كان الحميدي حنبلياً يرد على الأحناف، وفي عصره اشتد الخلاف والعداء بين أهل الحديث وأهل الرأي، هذا هو حال أعظم راوي عند البخاري كان تكفيرياً مقلداً ، بل كان يعتبر مدرسة أهل الرأي هي مدرسة خارجة عن الملة.

الراوي الثاني هو.."أبو بكر عبدالله ابن أبي شيبة"..توفي عام 235هـ

وهو صاحب كتاب.."المصنف في الأحاديث والآثار"..أو بما يُعرف في الأوساط العلمية بمصنف أبي شيبة.....كتب عبدالله باباً كاملاً في الرد على أبي حنيفة وافتتحه بقوله.." كتاب الرد على أبي حنيفة هذا ما خالف به أبو حنيفة الأثر الذي جاء عن رسول الله"..ثم افتتحه بالأخبار عن رجم الزاني والزانية..وهذا دليل على أن الأحناف كانوا لا يقولون بصحة رجم الزاني في عهد ابن أبي شيبة..

الراوي الثالث هو.."نعيم ابن حماد"..توفي عام 229هـ

وهو من يُعرف.."بشيخ البخاري"..كان ملازماً له ،ورغم ذلك روى له البخاري أحاديث قليلة لكثرة طعن الأئمة فيه...وهو صاحب كتاب.."الفتن والملاحم"..الذي يُحتمل أن تأثر به البخاري ووضع أحاديث في كتابه عن الفتن بأسانيد ابن حماد..نعيم ابن حماد كان عدواً لأبي حنيفة ، وقال عنه الذهبي وابن عدي كان يضع الحكايات في مثالب أبي حنيفة..حتى أن ابن عدي قال عنه أنه متهم في رأيه بسبب موقفه من الأحناف..وقال عنه المزي في تهذيب الكمال(70/29) والذهبي في سير أعلام النبلاء(519/10) أنه وضع كُتباً في الرد على أبي حنيفة..

الراوي الرابع.."إسحاق ابن راهويه"..توفى عام238هـ

وكان شيخاً للبخاري..كما أجمع المؤرخون أن البخاري كان تلميذا لابن راهويه..ولكن!!..ابن راهويه كان تكفيرياً كذاباً، حكى إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة، وهو مذهب السلفيين وغلاة الحنابلة هذا الزمان، غير ذلك فالجمهور أفتى بكفر من أنكر فرضيتها وليس تاركها خلافاً لمذهب ابن راهويه..نفهم بذلك لماذا يحب السلفيين والحنابلة بالعموم هذا الرجل، بل يضعون في مناقبه أشياء لا تجتمع سوى للأنبياء..!

ابن راهويه كان عدوا هو الآخر لأبي حنيفة، وكان شديد التحامل عليه، ويُحكى أنه كان حنفياً ثم تحنبل وصار متعصباً للحنابلة وأهل الحديث كما حكى ذلك المروذي في كتاب.."الورع".. ص 122ومعنى القصة أن الرجل كان مقلدا لشيخه"عبدالرحمن بن مهدي"وبعد أن طعن بن مهدي في أبي حنيفة تحول إسحاق إلى الحنابلة هكذا دون نظر، وهي قصة عجيبة تعكس ضعف عقول هؤلاء وأنهم كانوا مجرد مجموعات من الجهلة والمتعصبين، أخذ عنهم أشباههم بعد ذلك وجعلوهم سلفاً صالحاً يحرم الخروج عن رأيهم..!

الراوي الخامس.."محمد بن عرعرة"..توفى عام213هـ

وكان أستاذاً للبخاري ، روى عنه 20 حديثاً دونها في صحيح الجامع، فيها ما يرد على مدرسة أهل الرأي ويسمونها في المتون "بالمرجئة" وهي التهمة التي نالت أبي حنيفة من قِبَل هؤلاء.ابن عرعرة هو سليل عائلة معادية بالكامل في البصرة لأبي حنيفة ، فأبيهم عرعرة ابن البرند وإخوته سليمان وإسماعيل بن عرعرة، وأبنائه إبراهيم وإسحاق..كانوا

جميعاً يمتهنون الحديث في البصرة ، وما بينهم وبين مدرسة الكوفة"أهل الرأي"ما صنع الحداد.

يكفي أن نعلم أن والد محمد .."عرعرة بن البرند".. كان شيخاً لنعيم بن حماد عدو الأحناف الأكبر والأشهر في العراق، وأن أخيه إسماعيل كان صديقاً وشيخاً للبخاري، وكان يضع له روايات للطعن في أبي حنيفة دونها البخاري في كتابه "التاريخ الصغير"(41/2).يعني عائلة بالكامل كانت تكره أبي حنيفة جعلها البخاري مصدراً موثوقاً فيه للأخبار، ثم نسأل لماذا كانت الروايات تخدم بعضها وكان الرواة يُعظّمون أنفسهم حتى بالغوا في وصفها بأوصاف لا تحق إلا للآلهة..!

الراوي السادس."أيوب السختياني"..توفى عام131هـ

روى له البخاري 7 أحاديث ،وكان معاصراً لأبي حنيفة وممن يُكفرونه ويشتمونه، روى عبدالله ابن أحمد في.."السنة"..(223:224/1) أن السختياني كفّر أبي حنيفة قائلاً." لقد ترك أبو حنيفة هذا الدين " وفي مشهد آخر رأى أبو حنيفة السختياني في الحرم المكي فأقدم عليه ولكن السختياني رفض ذلك وقال لأصحابه.."قوموا لا يعدنا بجربه، قوموا لا يعدنا بجربه"..هو لا يقصد أن أبي حنيفة أجرب، ولكن كان يشتمه عن كراهية.

الراوي السابع.."سفيان الثوري"..توفى عام 161هـ

روى له البخاري 5 أحاديث ،وهو من أئمة مذهب السنة ويُقال أن له مذهباً خاصاً..سفيان كان معاصراً لأبي حنيفة وشأنه كشأن أيوب السختياني ..كان ممن يُكفرون الإمام وزعموا استتابته وطالب بطرده من الكوفة، وقد روى ذلك عبدالله ابن أحمد ابن حنبل في كتاب.."السنة"..ب15 طريق عن سفيان..وروى شتم سفيان لأبي حنيفة ابن عدي في الكامل(5/7)

الراوي الثامن.."حماد ابن سلمة البصري "..توفى عام 167هـ

روى له البخاري 6 أحاديث معلقة ، ومعنى التعليق أن له سند ومتابعة على الحديث ليس هو السند الأصيل،ولكنه في النهاية سند مقطوع لسقوط بعض الرواة، والمعلق يعني استشهاد بالرأي كمن يقول حدث كذا وكذا والدليل أن فلان قال وصدق عليه، ومضمون التعليق يكشف ثقة البخاري في حماد ابن سلمة وأن رأيه في غاية الأهمية سواء في النقل أو الجرح والتعديل.

حماد كان تكفيرياً متعصباً للحديث..وقال في شأن أبي حنيفة.."كان أبو حنيفة شيطاناً"..وقد وثق ذلك ابن عدي في الكامل(8/7)

الراوي التاسع.."عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي"..توفى عام 157هـ

روى له البخاري 70 حديث فيهم بعض المعلقات، وشأنه كشأن سفيان الثوري، هو إمام من أئمة السنة ويُقال أن لديه مذهب خالف به مالك

وأبي حنيفة، ولكنه كان شديداً على أبي حنيفة من سفيان .كان الأوزاعي ممن يُكفّرون أبي حنيفة في أكثر من موضع وقد اشتهر ذلك لدى المؤرخين وأصحاب الطبقات، وهناك أربع كتب ذكرت تكفير الأوزاعي لأبي حنيفة هي:1-السنة لعبدالله ابن حنبل2-المجروحون لابن حبان3-تاريخ بغداد للخطيب 4-الكامل لابن عدي.

الراوي العاشر والأخير.."شعبة بن الحجاج"..توفى عام160هـ

وهو من أكثر الرواة الذين اعتمد عليهم البخاري في تأليف صحيحه، روى له البخاري مئات الأحاديث، وهو بذلك يقترب مما رواه ابن شهاب الزهري الذي فاق الألف حديث وأكثر مما رواه عكرمة 200 حديث..!..تخيلوا..!!..راوي واحد يروى مئات الأحاديث وكلها صحيحة مدونة دون لبس، هكذا كان البخاري يضع رواته في منازل الأنبياء لا يُخطئون وتوثيق كلامهم عن النبي دون نظر..

شعبة ابن الحجاج كان عدوا لأبي حنيفة النعمان فقد روى العقيلي في الضعفاء(491/8) ما نصه مروياً عن أبي سلمة الخزاعي.." سمعت حماد بن سلمة ، وسمعت شعبة يلعنان أبا حنيفة"..وقد تقدم الكلام على حماد وكراهيته للأحناف، وهاهو شعبة من أعظم رواة البخاري على نفس المنهج..فكيف يكون الرواة بهذا التعصب المذهبي إلا وكان دليلاً على امتهانهم الكذب في حق الله وفي حق النبي، بل ويحاربون ويكفرون ويقتلون من يدعوهم للنظر ولتحكيم ضمائرهم وعقولهم.

الآن وبعد استعراض 10 من رواة وشيوخ البخاري وموقفهم من أبي حنيفة، أقول أن ما جرى استعراضه هم عينة تم اختصارها منعاً للتكلف ، وأن سرد موقفهم يعني أن هناك تياراً في هذا العصر كان معادياً لأهل الرأي..

الأئمة الشافعي ومالك وابن حنبل كانوا أيضاً ممن يطعنون في أبي حنيفة، وقد شاعت مواقفهم في كتب التاريخ والطبقات حتى وصلت بعض الأخبار عنهم بتكفير أبي حنيفة وخروجه من الملة، وهذا يعني في مضمونه صراعاً بين تيار الحديث الذي بدأه مالك وأسسه الشافعي ثم ختمه ابن حنبل بمذهب حديثي وفقهي متكامل...وبين تيار الرأي الذي كان يمثله العقلاء والمفكرون وفقهاء الأحناف،هذا الصراع هو الذي جعل أهل الحديث يضعون الأحناف بجوار الجهمية والفلاسفة والمرجئة بل وصل لاتهام الأحناف بالزندقة..

والسبب أن فقه أبي حنيفة كان قائماً على الفكر والنظر دون التقيد بنصوص الرواية، ولهم أدلتهم في ذلك منصوص عليها في القرآن، ولكن لم يُعجِب ذلك أهل الحديث فردوا على أهل الرأي بتأليف كُتب الحديث كان فيها صحيح البخاري جزء من الحملة الموجهة ضد الأحناف،ويمكن تلمس ذلك في أبواب ومتون البخاري التي جاءت في سياق الرد الفقهي على أهل الرأي، وكذا أن البخاري كان يرد بقوله.."قال الناس أو قال هؤلاء"..بمعنى أنه دَوّن كتابه للرد الفقهي والعقدي على من أشار إليهم.

ختام ابن حنبل لهذه المرحلة كان إيذاناً بسطوع المذهب الحنبلي في الشرق، وهو ما تحقق بالفعل ومعه ظهرت مصطلحات البدعة والابتداع والفرق الضالة وحاربوا بها كل مفكر، وأصبح كل من يخرج عن الحديث بالعموم وابن حنبل بالخصوص هو مبتدع مشكوك في دينه، وقد حدثت إرهاصات ذلك في قتل المفسر والمؤرخ الكبير الإمام الطبري بمجرد خلافه مع الحنابلة، حدث ذلك في أوائل القرن الرابع الهجري وهو العصر الذهبي لغُلاة الحنابلة في الشرق، أي أن تأليف كتب الحديث جاء في المجمل لصالح الحنابلة والمقلدين، وصبت في اتجاه آخر مخالف لتعاليم وقيم الإسلام، فكل من أراد القتل والذبح فالحديث يكفيه، ومن أراد أن يأكل أموال الناس بالباطل فالحديث يكفيه..!

في المقابل كان هناك من يترصد للحنابلة في الغرب، وبالتحديد كان المالكية والأحناف والشيعة الإسماعيلية يتأهبون للانقضاض على من سرق دينهم في العصر العباسي ، وظهر للمالكية من يُفتي بكُفر الحنابلة كالقاضي أبو بكر بن العربي في كتابه.."العواصم من القواصم" وبذلك تحول الصراع ما بين مدرسة الرأي والحديث إلى صراع من لون آخر وهو الصراع المذهبي بين أهل الحديث أنفسهم...فمادة الصراع موجودة في كل فكر وفي كل مكان، ومن يجنح للصراع في العادة لا يستطيع السيطرة عليه.

رسالة في تدليس البخاري على أحد شيوخه

تعرضنا في السابق للعلل والأسباب التي دفعت البخاري إلى تأليف كتابه، ومنها أنه كان في سياق الرد على أهل الرأي أو من كانوا يسمونهم بالمرجئة أو الجهمية، وهم من كانوا يُعرفون بأصحاب أبي حنيفة، ووقفنا على أن الراوي عبدالله بن الزبير الحميدي(ت219هـ)كان من أعداء أبي حنيفة الذين تأثر بهم البخاري في شبابه، إذ توفى الحميدي وكان البخاري في الخامسة والعشرين من عمره، بعد ذلك أصبح الحميدي من أهم رواة البخاري ،فقد روى له في الصحيح 85 حديث، ورغم أن الحميدي كتب مسنده بأكثر من 1000حديث إلا أن البخاري حين نقل عن شيخه لم يتقيد بما أملاه الرجل في مسنده أو تعرض لاهتماماته التي دونها في كتابه.

مما سبق يدفعنا إلى الشك في دقة النقل ، ويعني أن البخاري قد تعمد تحريف أقوال شيخه أو أنه نسب إليه بالخطأ والوهم، وسنناقش ذلك بنماذج مفصلة عبر معلومات نعرضها لأول مرة، ولن يكون البحث تفصيلياً منهجياً إذ يتطلب ذلك مساحة كبيرة لا يسعنا التعرض لها الآن، ولكن سنتعرض لنماذج من تدليس البخاري عن شيخه الحميدي، حيث يقول الشيخ كذا وكذا..ثم ينقل عنه البخاري بالحذف والإضافة بما يوافق معتقده..وكي تسري هذه الأفكار إلى الأجيال اللاحقة فعليهم تغييب العقل وحصار النقد ، وهو ما حدث بقبول هذه الأخبار عن البخاري بمعايير الثقة والسمع والطاعة وحاكمية الرأي...

لأنه إذا تتبعنا السياق العام الذي كتب فيه البخاري كتابه سنجد أنه كان رداً على فئة معينة وفقهاء أحناف ومدارس للرأي، أصبح فيه كل من يؤيد البخاري في رده يصعب عليه نقده أو مراجعته..ومع تعاقب الزمان

تغير الوضع بصورة أقرب إلى حكايات ألف ليلة وليلة....فالكتاب صحيح لا يخالجه شك، والبخاري لا يكذب ولا يُخطئ بل ولا يجوز عليه ذلك، وإذا بحثنا عن السبب سنجده سبب مذهبي، رغم أن نقل البخاري عن شيوخه -ومنهم الحميدي- جاء بعد موتهم بسنوات أو بعشرات السنين، وفي هذا العصر لم تكن علوم النسخ والطباعة متقدمة كما هي عليها الآن، فإذا أراد البخاري أن يكون أكثر دقة فعليه أن يمتلك كمبيوتر أو اسطوانة مدمجة يسجل عليها ما قاله الحميدي.. خاصة في علم الحديث المختلط فيه الرجال وأقوالهم ممن لم يراهم البخاري ولو مرة في حياته.

الآن سنعرض أربعة أحاديث -كنموذج- على تدليس ووضع البخاري عن الحميدي، وسنرى أن الحميدي ساق الحديث بتمامه سنداً ومتنا، ثم جاء البخاري لينقل السند عن الحميدي بتلاعب واضح في المتن..!..وفي نماذج أخرى وضع البخاري أحاديث كاملة ونسبها للحميدي إما وهماً أو عمدا..

الحديث الأول: تدليس البخاري وحذف اسم الصحابي سمرة بن جندب

روى الحميدي في مسنده(9/1):"حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال أخبرني طاوس سمع بن عباس يقول بلغ عمر بن الخطاب أن (سمرة باع خمرا فقال قاتل الله سمرة) ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها".

ثم دلس البخاري هذه الرواية ونقلها عن الحميدي قائلاً (464/7):" حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال أخبرني طاوس أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول بلغ عمر بن الخطاب أن (فلانا باع خمرا فقال قاتل الله فلانا) ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها"

قلت: أن البخاري حذف اسم الصحابي "سمرة بن جندب" من المتن وهو ما بين المزدوجين، ثم وضع بدلاً منه كلمة"فلان"وهي تعني تستر البخاري عن بيع سمرة للخمر ولعن ابن الخطاب لهذا العمل، ثم حذف كلام ابن الخطاب"لعن الله اليهود" ووضع بدلاً منه"قاتل الله اليهود"والسبب أنه وبمجرد ذكر لعن بن الخطاب يعني جوازه على الصحابي وهو ما كان يرفضه البخاري أن يكون صحابياً في هذا الموقف.

الحديث الثاني: وضع البخاري حديثاً عن الحميدي في الفتن غير موجود في مسنده

الحديث رواة البخاري كالتالي(443/10):حدثنا الحميدي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن العلاء بن زبر قال سمعت بسر بن عبيد الله أنه سمع أبا إدريس قال سمعت عوف بن مالك قال:

"أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال اعدد ستا بين يدي الساعة موتي ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ

فيكم كقعاص الغنم ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفا"

هذا الحديث لم يروه الحميدي للبخاري مطلقاً ، وأنه يزيد الاحتمال بأنه من وضع البخاري نفسه إما عزواً بالخطأ وإما بالعمد، والدليل مُجمل في عدة شواهد:

1-أن الحديث غير موجود نهائياً في مسند الحميدي..

2- الحديث يحكي باب الفتن آخر الزمان، والبخاري كان شغوفاً بهذه الأخبار.

3- أنه مروي عن الحميدي عن الوليد بن مسلم، بينما في المسند لم يروِ الحميدي عن الوليد إلا ثلاثة أحاديث فقط ليس من بينها ما يخص الفتن- موضع الباب

4-عاش البخاري بعد وفاة الحميدي 37 عام وهي الفترة التي من الراجح أنه كتب كتابه فيها، أي أن الحميدي توفى والبخاري كان عمره 25 عام، حيث عاش البخاري 62 عاماً كما هو مشهور، وهذا يعني أمرين اثنين، الأول أن البخاري كان شاباً صغيراً حين نقل عن الحميدي، فكيف اتسعت ذاكرته لنقل وتسجيل ما قاله الرجل بعد عشرات السنين؟وهل كتب

البخاري صحيحه في فترة شبابه؟..الثاني أنه نقل أقوال الحميدي بعد موته من مسنده ثم كذب وقال"حدثنا"!!

5-لو فرضنا أن الحميدي حكى هذا القول للبخاري ولكن لم يدونه في مسنده فهذا يضعنا أمام احتمالين، الأول أن الحميدي حكى هذا القول لغير البخاري، الثاني أن الحميدي لم يتعرض لهذا الموضوع في حياته..

6-باستطلاع كتب الحديث وجدنا أن الحميدي لم يقل هذا في حياته لأي راوٍ آخر غير البخاري، وأن الحميدي بالأصل لم يكن مهتماً بالفتن موضع الباب ولا بعلوم القرآن، وأنه كان مهتماً فقط بسيرة النبي وأبواب الفقه للرد على الأحناف كما تقدم!!

7-في سنن الترمذي(ت279هـ) حكى المصنف حديثاً عن البخاري عن الحميدي قوله عن ابن مسعود.." آية الكرسي هو كلام الله وكلام الله أعظم من خلق الله من السماء والأرض"..(116/10)..وهذا الحديث أيضاً غير موجود في مسند الحميدي ولم يروه الرجل لأحد سوى البخاري، مما يعني أن البخاري كان ينقل عن الحميدي أحاديث لم يروها الحميدي في مسنده بل لم يسجلها البخاري في كُتبهِ أصلاً!

الحديث الثالث: قرينة على وضع البخاري عن الحميدي في الفتن

الحديث رواة البخاري كالتالي(472/11):حدثنا الحميدي حدثنا الوليد قال حدثني ابن جابر قال حدثني عمير بن هانئ أنه سمع معاوية يقول:

"سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك"

الحديث غير موجود أيضاً في المسند..و كما هو واضح من أبواب الفتن عن الحميدي عن الوليد بن مسلم، أي أن البخاري كان ينقل في الفتن عن الحميدي عن الوليد، وهذا ما لم يثبته الحميدي نفسه في مسنده، وبذلك يظهر أن البخاري كان يضع الأحاديث عن الحميدي في أبواب الفتن وعلوم القرآن من ذاكرته، تلك الذاكرة التي يصعب أن تنضبط بعد وفاة الحميدي ب37عام، أو أنها منضبطة ولكن الرجل مهتم، وقد ثبت في مسند الحميدي أن الرجل لم يكن مهتماً بالفتن وأخبارها مطلقاً..

الحديث الرابع: إسرائيليات البخاري ينسبها للحميدي

مثلما تقدم عن وضع البخاري أحاديث في الفتن عن الحميدي، وضع أيضاً أحاديث أخرى عن نفس الرجل تشرح أحوال الشمس والكواكب، وهو اتجاه عام للاسرائيليات في التراث، لأن التعرض لأحوال الغيب بالكيفية لم يكن إلا تكلفاً غير مبرر ونزعات أسطرة ضاربة في عمق التاريخ، وكُتب البخاري طافحة بهذا الاتجاه..

روى البخاري في صحيحه(494/14):حدثنا الحميدي حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال:"سألت النبي صلى

الله عليه وسلم عن قوله تعالى{ والشمس تجري لمستقر لها }قال مستقرها تحت العرش"

هذا الحديث هو أيضاً من وضع البخاري عن الحميدي لعدة أسباب:

1-أن الحديث غير موجود في مسند الحميدي نهائياً، أو شاهد ومتابعة واحدة تعطى اهتمام للحميدي بأحوال الشمس والمجرات.

2-أن الحديث مروي عن الحميدي عن وكيع بن الجراح(ت196هـ) ونقل الحميدي عن وكيع في مسنده لا يتعدى خمسة أحاديث كلها في أبواب الفقه وأحوال الصحابة.

3- الحديث منسوب لأبي ذر الغفاري، ولكن في مسند أبي ذر عند الحميدي لم يتحدث أبو ذر عن أحوال الشمس مطلقاً، وهذا يعني أن أبا ذر لم يكن مهتماً بالشمس ولم يذكرها عند الحميدي.

4-أطراف الحديث عند البخاري من روايات عياش عن وكيع عن الأعمش،وأبو نعيم عن الأعمش، وابن يوسف عن سفيان عن الأعمش ...جميعاً من رواية أبي ذر، وهذا يعني أن الحديث مشهور عند الحميدي عن أبي ذر-المتفرد بالحديث- فكيف لم يدونه الحميدي في مسنده؟!..ولماذا لم يتحدث الحميدي عن أحوال الشمس في كتابه ثم تحدث عند البخاري أصلاً؟!

5-في صحيح مسلم ومسند ابن حنبل وصحيح ابن حبان..الرواية عن وكيع ومحمد بن عبيد عن الأعمش وهذه قرينة على تفرد الأعمش بالرواية عن أبي ذر..

6-إذا علمنا تفرد الأعمش بالحديث فهذا يعني أن من وضع حديث سجود الشمس تحت العرش هو من وضع حديث .."استئذان الشمس".. لربها كي تغرب وتشرق كل يوم، والحديث في البخاري أيضاً عن الأعمش، وهو كارثة علمية بكل المقاييس، إذ ثبت علمياً أن الشمس بالنسبة للأرض ثابتة والأرض هي ما تدور حولها، ولكن من وضع الحديث كان يرى العكس..

7-الحديث بحكم عنعنته هو مقطوع السند لأن الأعمش مدلس ولا يحتج بحديثه ما لم يقل حدثنا...طبعاً هذا باصطلاح المحدثين..ولكن تحول الحديث بقدرة قادر إلى قرآنٍ يُتلى ما دام في البخاري...رغم أن البخاري وضع أحد رواياته عن الحميدي، فما الذي يضمن لنا انه لم يضعه عن الآخرين؟

باختصار الحميدي لم يتحدث مطلقاً عن أحوال الشمس ، بينما البخاري وضع روايتة بالكذب أو بالوهم- عسى أن لا نسئ الظن- ثم جاء البخاري ونسب الحديث للحميدي طالما كان عن الأعمش وهو من أكابر الرواة الذين نقلوا الإسرائيليات في تراث المسلمين، وعليه يظهر ملمح غائب من ملامح النقل والتدوين في العصور القديمة، وهو أن النقل كان عن المشاهير والثقات حتى لو لم يكن الضبط في الاتصال، وهذا الملمح

هو ما صنع الأخبار المرسلة والمكذوبة في التراث، إذ يصعب ضبط الأخبار إلا بالشهادة والتدوين، وكِلا الشرطين لم يتحققا بنسبة كبيرة في هذه العصور.

أضيف أن البعض قد استخدم حديث الشمس في تكفير الأحناف الماتوريدية أو من كانوا يسمونهم"بالجهمية" وقد ظهر ذلك واضحاً في الإبانة لابن بطة(5/ 475) باب كفر الجهمية، وهذا يرجح معلماً من معالم الصراع بين أهل الحديث وأهل الرأي في تلك الحقبة وكيف أن وضع الحديث كان أداةً للحرب بين العقلاء والمقلدين، بل بين المقلدين أنفسهم ، وهو يخدم نفس السياق الذي تحدثنا عنه في السابق، أن كُتب الحديث جاءت للرد على أهل الرأي"الأحناف"بالخصوص والعقلاء بالعموم، ولكن كي تظهر علومهم أكثر قوة في مواجهة أصحاب الرأي نراهم وقد مدحوا أنفسهم بأوصاف على شاكلة حافظ الزمان ووعاء العلم وأعجوبة البلاد ومثل هذه التوصيفات المهترئة التي لا تصمد أمام البحث العلمي والنقد الجاد والعقلاني.

رسالة في الإلحاد

البعض منا يذهب في سُبات عميق وهو مطمئن لمكانة الدين بين الناس، أو أنه لم يبذل مجهوداً لمعرفة آرائهم في ما يجري وتأثيره على عقائدهم بل ورؤيتهم للأخلاق..لقد فشى في البلاد ظهوراً جديداً للإلحاد والمروق من الأديان كنتيجة طبيعية لفقر الخطاب الديني وجهل القائمين عليه، علاوة على سلوك القائمين على الدين والمتحدثين باسمه، فمن الطمع

والجشع السياسي إلى الكذب والخيانة إلى استحلال الدماء جميعها تُسكِن بذور الإلحاد بين صفوف الشباب، وعليه كان السؤال، هل دخلنا في مرحلة شك على غرار ما حدث في عصور النهضة والتنوير الأوربيين؟..أم هي الفوضى الهدامة؟.. أما هي الخلاقة التي بشرنا بها الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق؟

أما هي مرحلة زمنية قصيرة تضطرب فيها الأحوال ثم تعود لطبيعتها؟..وهل يمكن أن تعود لطبيعتها بعد هذا الكم الرهيب من الغزو المعلوماتي والتواصل الإنساني الذي بدا وكأنه حصان طروادة لتعميم ثقافة الأقوى؟..الإجابة صعبة ولا يمكن التكهن بما سيحدث لأننا عاجزين عن تفسير ما يحدث أصلاً..لم يعد هناك معنىً للكلام وقد رأينا من يُجاهر بالخيانة ويرفع لواء القتل والتدمير دون حياء...نعم دون حياء، ففي الماضي كان الجبابرة يقتلون ثم يترفعون عن المسئولية، أما الآن فما أسهل أن تقتل الأبرياء ثم تجد من يوافقك ويشد من أزرك بدعوى الانتقام..

لقد اختل العقل الإنساني وبالذات في مناطق الصراع العربية، فأصبح الدين والمذهب مرجعية للظلم والكذب وسفك الدماء، وتراجعت بل وانحسرت الأخلاق إلى معدلات تنذر بالخطر على الحياة في هذا الكوكب، لعل ما يحدث هو نتيجة لتأثير الميثوس mythos على حياة البسطاء بل وبعض المثقفين..والميثوس يعني الأسطورة أو الخيال أو الأمنيات التي تجاوز واقع الزمان والمكان، وفي تقديري أن العقل العربي متشبع بهذا الميثوس إلى درجة أفقدته التواصل بينه وبين نفسه، فكلما

أراد النهوض..نهض على سرابٍ خادع ليس له وجود فيتعرض للتجارب القاسية التي تفاقم من الأزمة وتصعد بها إلى مستويات الانتقام فتشيع الكراهية على الصغائر.

ربما ليست المسألة بهذا السواد..وما يُعطي بعض الطمأنينة هو حاكمية العقل البشري المتمدن، والذي أصبح يرفض أي أشكال التمييز على أسس الاعتقاد، ونحن هنا لا نتحدث عن عقل جمعي، فلا وجود لهذا العقل كما بحثنا في الماضي، بل هو عُرف إنساني نتج عن ثورة المعلومات واتحاد العلوم، وهو ذاته العقل الفردي الذي يقرأ المعلومة ويرصد ويفسر الظواهر ، وهو نفس العُرف الذي ذرع بذور التمرد على الأديان، أي أننا تأثرنا –في المنطقة العربية- بهذا العُرف الإنساني ، وهو الذي مهد إلينا الديمقراطية كي نفهمها بهذا الشكل كمرحلة لابد من تجربتها كضرورة للوصول إلى اليقين.

إن تمدد الإلحاد هو نتيجة للعقلانية المفرطة والمشبّعة بعواطف متمردة على ظلم ذوي الأديان، وهو إشارة إلى نزوع الإنسان للانطلاق إلى فضاء أوسع من الخوف والأسطورة، ونحن هنا لا ننكر بالكلية على هذا التوجه، فالانطلاق لو كان بحدود وقواعد آمنة تُتيح لصاحبها الانتقال عبر منهج منضبط لكان من السهل التعرف على الأدواء العارضة وخلعها من السياق الديني المرفوض، فأكثر ما يعيب الإنسان هو القياس على النماذج ..وهو قياس ناقص، أي أنه لا يمكن الحكم على الأديان بأعمال البعض، حتى لو كانت الأغلبية فاسدة فالأقلية الحسنة تصلح

كنموذج، فلماذا لا يجري اعتبار هذا النموذج معياراً نقيس به ظلم النماذج الأخرى؟

وماذا لو ظهر لنا أن أمر الأديان أكبر من أن يناقشه عقل؟..وماذا لو كانت للروح وظائف اعتقادية وسلوكية مُضافة ومرتبطة بالعقل؟..وهل العقائد هي مجرد أفكار وأقوال أم هي منظومة فكرية وسلوكية متكاملة؟..وهل المضمون الديني هو تعايشي أم لا؟..وماذا لو لم يكن.. فهل هناك نماذج متعايشة أخرى؟..وهل الإلحاد يصلح لأن يكون نموذجاً محمياً من نزعات وأهواء الإنسان؟..فإن لم يكن محمياً فما مصير من ماتوا فداءً للشيوعية الملحدة لا المؤمنة؟..بمعنى أن التحرك نحو هدف مرسوم مسبقاً بقصد إعادة إنتاجه للدفاع عن الرأي ليس من أمراض المتدينين فقط، بل هو مرض إنساني يصيب الجميع، فلا يمكن اعتباره سبّة في جبين الدين دون أن يكون دليلاً لهدم فكرة الإلحاد..

في تقديري أن فكرة الجواهر والأعراض تنطبق على الدين..فلكل دينٍ جوهر لا يمسه أحد إلا بسُلطة عليا تخلعه من سياق الدنيا وتقذفه في رحاب الدين، أو ما يسميه البعض.."بالكشف النوراني"..من جراء التزام الإنسان بالصدق وعلو منزلته العقلية والروحية والسلوكية...وهذا في حد ذاته تساؤل مشروع حول ماهية الإنسان ..هل هي مادية أو روحية أم هي الاثنين معاً؟ ..فلا يمكن اعتبار الفهم البشري ديناً دون التعرض للانقسام داخل كل فكرة دينية..والانقسام كذلك لا يمكن مناقشته دون التعرض للبنية الوجدانية والأخلاقية للإنسان، وهي بالمناسبة بنية بعيدة كل البعد عن إطار الدين، إذ هي موجودة عند جميع البشر وتأثيراتها

على الجميع..كذلك فلو اعتبرنا أن الدين هو مجرد فكرة شأنها شأن جميع الأفكار.. فهل نجحت هذه الفكرة في إيجاد مجتمع منظم؟

الأسئلة كثيرة وهي تدور في محاور متعددة على مستوى الفرد والمجتمع بل والسياسة، وهي أسئلة مشروعة يجب طرحها قبل التعرض للانتقال الفكري سواء بتأُثير العقل أو بتأثير العاطفة، فنحن هنا لا نتحدث عن فكرة مقابل فكرة، بل نتحدث عن فكرة وردود أفعالها، فالفكرة التي تجابه الفكرة تكون في أجواء مستقرة مدعمة بالدلائل والقرائن، وأصحابها على مستوى عقلي وسلوكي جيد، حتى لو افتقدنا هذه الأجواء فقدومها مسألة وقت بتأثير التواصل، أما ردود الأفعال فعادةً ما يتحكم فيها المتعصبين، وقتها لن يبحث أحد عن صحة الفكرة، بل سيكون عنوان البحث هو الدفاع عن النفس والانتصار للعقائد.

أما الآن فدعونا نناقش مسألة الإلحاد بشيءٍ من النقد

ماذا لو أصبح أهل القرية لا يعرفون شيئاً عن الزراعة؟..هل ستكون قرية أم مجتمع آخر؟...وماذا لو كان العمال لا يُنتجون ..هل يستحقون وصف العامل؟..إننا بإزاء تغيير كامل في الهوية إلى هوية أخرى قد تكون على النقيض، والسبب كان في نزوع الإنسان إلى معالجة القضايا معالجة سطحية تخلو من روح الإبداع، فأهل القرية أبدعوا في زراعتهم كونهم عالجوا مسائل الزراعة بأسلوب دقيق، ولو عالجوها بسطحية لانهارت القرية بفساد الزراعة، حينها سيُصبحون عُمالاً أو صيادين أو حِرفيين أو فئات علمية ومجتمعية أخرى، وسيكون بينهم وبين الزراعة

ما بين الظواهري والأديان، يزعمون معرفتهم بالأشياء ولكن يعالجونها معالجة سطحية فينفر منهم الناس ابتداء ..ويكتسبون هوية أخرى انتهاء.

إن معالجة الظواهري السطحية للأديان ونفور العامة من تلك المعالجة.. لهي علامة على أن الدين عند البشر خلاف ما يراه الرجل، فهو وإن قرأ في الدين إلا أنه لم يقف على أهم أفكاره ومبادئه، بل انتقل وبسرعة إلى أعلى الأشجار كي يرى غيره فيسقط صريعا لغبائه، ولو انتقل من الجذور مهتدياً إلى الفروع لنجح في تعيين الأفرع القوية فيثب عليها حتى يرى الناس.

كذلك الإلحاد فهو يعالج الأديان والناس بطريقة الظواهري، لا يقف على أفكار الدين ومبادئه ويحصره في الإلهيات كما يحصر الظواهري دينه في الجهاد، ولم يسأل كيف للإنسان منذ نشأته أن يعرف الأديان، وهل المعرفة الدينية ممكنه أم لا؟..وماذا لو كانت ممكنة فما سر نشأتها عند الإنسان؟...هل الحاجة للإله والقوى الخفية الماورائية؟..فلو كان كذلك.. فحقاً أن نصم الإنسان بالجهل حتى يرى الإلحاد، ولم لا وهو إنسان فاقع العقل عديم التجربة عن الملحدين!..لا يرى العالم إلا بمنظور خرافي ويزعم أن متعة الأديان في لاعقلانيتها، فلو كان للعقل دور في رصد وتفسير الميتافيزيقا لفسدت أهم ميزات الدين وهي الإيمان بالغيب!

وأنا هنا أتساءل..هل يُمكننا نفي وجود الله بالعقل؟....في تقديري أنه لا يمكن ذلك ، لأن برهان النظم أقوى وأدلّ على الله من ادعاء "عاقل" بأن الله غير موجود..ليس هذا البرهان فحسب ولكن أشياء أخرى سنتعرض

لها إجمالاً على سبيل الإشارة وفي سياق التساؤل لا في سياق الرد والتفصيل..

أيضاً لو فرضنا أن العقل كان مصدراً للإلحاد فهل هناك مصادر أخرى تؤدي نفس الغرض؟....هل نعتبر أن ثنائية الزمان والوجود مصدراً معتبرا؟.. هذه أيضاً عقلية ولكن سنمر عليها، كثير ممن يقولون بأزلية العالم أن حدوثه يعني حدوث للوجود، فلو كان الله موجوداً فهو حادث، وهو بذلك يرى أن الزمان والوجود هما مقادير للحركة وليس أحدهم مقداراً للآخر، بدليل أنه رأى حدوث الله مع حدوث الوجود رغم أنه لا يلزم، هنا العقل يتدخل..فالزمان والوجود يلزم أحدهم الآخر، فلا زمان دون وجود والعكس، فكيف يكونا مقداراً للحركة وهم يرتفعان معاً؟..هذا يعني أنه لا حركة دون وجود وزمان فكيف كانا إذاً ؟!!..هنا الذهن يتصور الزمان محدوداً وإن لم يكن زمانا...وعليه -وبوصف الوجود قرين الزمان- فالعقل يحيل على الوجود إلا أن يكون محدودا...وأن هناك قوة أوجدت هذا الوجود والزمان معاً، قوة قادرة عليا حدت الحدود للزمان وجعلته مقداراً لحركة الوجود.

فكيف تكون ثنائية الزمان والوجود مصدرا للإلحاد وفي ذات الوقت تكون علامة على الإيمان؟..فالزمان له قبل وله بعد وهو ما نسميه خارج الزمان وفي عقائد المسلمين أن الله خارج الزمان ، وأن القيامة قامت بعلمه ولكن لم تقم بعلمنا لأننا محجوزين داخل صندوق الزمان، فهو حجز مُصاحب للوجود لأن الزمان يلزمه، ووقتما يفنى العالَم سيفنى

الوجود.. وهو في الأديان ما يسمونه بالعالَم الآخر، أي عالَم تختلف قوانينه عن عالمنا المشهود وقد بشرت به الأديان كافة..

أسئلة أخرى في اتجاه آخر..

صديقي العزيز الملحد..كيف تعتقد في وجود الأشياء بما فيها هذه الطبيعة ؟..هل خلقت نفسها؟..وهل الطبيعة عاقلة لديها إرادة كي تخلق؟!..وماذا لو لم تكن عاقلة ولكنها أزلية..وهل تصح الأزلية لجاهل وضعيف؟!...الطبيعة جاهلة لأنها لا تعلم وضعيفة لأنها عديمة القدرة بدليل أنها لم تخلق، وإذا خلقت فقد جمعت بين متناقضين ،إذ جعلت الشئ خالق ومخلوق فإذا كان فلتؤمن بعدم وجود الطبيعة كونها غير مخلوقة أصلاً، كذلك ونظام الطبيعة قانوني يمكن أن يختل في لحظة، ويمكن أن ينعدم تأثير القانون في أحيان كثيرة وقد حدث...كذلك في استحالة وجود الأشياء بالصدفة فلا وجود للشئ بدون فاعل، ولا ترجح دون مرجح، ولا معلول إلا بعلة..أما بقي على أن وجود الأشياء هو الدال على من أوجدها عقلاً؟

أعلم أن هناك انتقادات لبُرهان النظم، وقد ترجح لدي أن النقد ليس للمضمون ولكن للاستعمال، فيجوز أن يكون البرهان لإثبات وجود الله بالعقل وأخرى بالوجدان دون العقل...وفي النهاية البرهان هو دليل على وجود الله..لكن ليس هنا الإشكال، فالرغبة تقف حائلاً دون عمل العقل، ففطرة الإنسان تحمله على النظر في من أوجد الأشياء تلقائياً دون عمل العقل، وكأن هناك قوة داخلية تحمل الإنسان على الإيمان، أي أن العقل

وحده ليس دليلاً للإيمان بالله، فالإنسان كائن مُركّب من أجزاء كل جزء له وظيفتة في التعرف على الله ، كما أن أجزاء الماكينة دليلاً على وجود الصانع بداهةً دون أي عملية عقلية أو حسابية، حينها نُسلّم لرأي كانط- مؤقتاً -بأنه لا يمكن الاستدلال بالعقل النظري على وجود الله أو حتى نفي وجوده.

في وقفة سابقة مع الإلحاد أشرت إلى أن الإلحاد هو رد فعل من جراء الموقفين الأخلاقي والعقلي للمتدينين، أو أنه إفراط في العقل حتى إهمال الجوانب الأخرى في الإنسان الغير مادية، وأضيف أنه بحث عن الحقائق في ظل انشغال كامل بالحِسّيات..ومن أشهر هؤلاء هم ملاحدة المنطق الوضعي ولسنا في سياق الرد على الوضعيين بل الساحة زاخرة ببراهين وأدلة قوية ترد عليهم، ولكن ما أشغلني هو كيف اعتمادهم على الحس في نفي القوة العليا العاقلة، وكأن هؤلاء أرادوا من خالقهم أن يعيش معهم في الأرض.. يُشاركونه المباهج والأحزان، وهل حينها يكون إلهاً؟!...وما معنى الرب لديهم ؟ وما درجة امتثالهم للأوامر في حياتهم الشخصية؟..هل لو قال المدير افعل كذا بدليل عقلي سيرد ويقول أنت خاطئ بدليل حسي؟...وهل للإحساس وظيفة في كشف الغيب والمستقبل؟..فإذا لم يكن فكيف يُحكّمون فلسفتهم في الإلهيات؟..هذا والله لظلمُ عظيم!

لن أحكي تجربتي مع الإيمان لأنني لست في سياق إثبات أيهم الأحق والأصدق، ولكني في سياق التساؤلات المشروعة دون المناظرات

الممنوعة، فليس أشر على الإنسان أقوى من التناظرات في زمن ردود الأفعال، وسأقبل بالتناظر لو كان الخلاف بين الأفكار وليس بين الأشخاص والأعمال، فكلما تحدثت مع ملحد حتى لو كان صديقا ..ثم مسّ حديثنا جانب الإلهيات -والقدرة -رأيته يستشكل عليّ بأفعال الإخوان المجرمين والسلفيين المتنطعين..أو يذهب ليأتي بحديث أو بتفسير آية دون أن يُجهد نفسه في إطلاق مشاعره حولها، وكأنه إنسان معطل فاقد الذاتية وأعماله يشتري منها المواقف لا القلوب والعقول، لذلك رأيت مناظرات ومنعت نفسي عنها، لعلِمي أن المسألة حتى لو كانت عقلية فسلطان العواطف والأخلاق أقوى بكثير.

مثال من يرى بأن المفاهيم الفلسفية المتقابلة نشأت نتيجة لانعكاس الخارج في الذهن، وعليه فلا وجود ذاتي لها، كمفاهيم.."العلة والمعلول"..فهو لا يرى أنها مفاهيم تصلح للاستدلال على وجود الله لعدم ذاتيتها، أو أنها أعراض لمفاهيم أخرى... وهذا خبط وخبص عقلي..!..فكيف به وهو ذاهب إلى الطبيب ليُعالج أمراضه من الفيروسات؟..هل يصلح حينها أن نزعم وجود المرض فقط في الذهن وليس في العضو المُصاب؟!..ولماذا شعر بالألَم؟..وما دور الذهن في الجسد أصلاً؟..وما وظيفة العالم الخارجي إذا كان انعكاسه في الذهن لا يُحقق الذاتية؟...وهل لو جاء مخلوق من كوكب آخر سيرى هذا العالَم بنفس ما نراه أم سيراه بمفاهيم سببية أخرى ذاتية؟..فلماذا لا يكون المتكلم هو نفسه المخلوق العجيب الذي يتحدث على كوكب الأرض ويخضع لقوانينها ثم يستدل بقوانين أخرى مجهولة على كواكب مجهولة لم يستطع حتى الآن إثبات وجود الحياة عليها.

كذلك فمن يرفض دليل نظام الكون -كدليل على الخالق- كونه يرى عشوائية الطبيعة، وهو بذلك ينفي نُظُم الطبيعة المختلفة بدليل متهافت ومقدمة مصادِرة..وهي أن الكون عشوائي وعليه.. فلا وجود للخالق..!...وفي نفس السياق أتساءل، أليس كل جسم مركب من أجزاء أو ما نسميها ذرات؟..أليست هذه الأجزاء منسجمة مع بعضها بحيث تتحرك نحو غاية محددة سلفاً؟..ومن أين أتى الإنسان بالقانون؟..أليس وجود القانون دليلاً على النظام؟..فكيف فطن الإنسان للقانون والكون عشوائي؟..بل ما هي وظيفة الفلسفة أصلاً إذا كان النظام- لو وُجد- فهو نتيجة للعشوائية؟!!!..وإذا طال سؤالنا الفلسفة فسيطال العقل بالضرورة، ما هي وظيفة العقل في رحاب عالَم من العشوائية واللانظام؟

في تقديري أن مسألة الإيمان والإلحاد تخطت حاجز الأفكار، وهذه نقطة مكررة والتكرار في مواضع يؤكد القيمة، هي أن الفكرة لا تبحث في نطاقات من السرمد والأثير، بل لها من الأجواء ما يعبر عنها ويُعطيها صفة الفكرة، لذلك فكل قانون ونظام هو في ذاته أجواء تصنع الفكرة، ومن يبحث في القانون والنظام هو من يبحث عن الحقائق، إذ لا حقائق في عالَم عشوائي، وإلا ستُصبح حياتنا كومة من الأوهام والأساطير، وأن ما نراه هو ما يراه أصحاب المثالية الزائفة، وسيصدق –حينها- من قال أن الإيمان هو مصدر الأخلاق، ولولا وجود الأديان ما عَرِف الإنسان كذباً ولا صدقا، إذ المجتمع باعتباره يعجز عن تفسير القيمة فيما لو كان الأقوى هو المتنفذ، كمثال عالم الحيوان، فذاك هو عالَم القوي والضعيف،

ومع ذلك فهو مجتمع عاجز عن صناعة القيمة ، بل لم يحفظ الحيوان حقوق الغير .

رسالة في ثنائية الإلحاد والسلفية

الكثير من أصدقائي الملحدين الذين كانوا مسلمين قبل ذلك.. لاحظت عليهم أنهم كانوا يتبنون الفكر السلفي التقليدي قبل إلحادهم وانقلابهم على الدين، وسألت نفسي لماذا هؤلاء عندما ينقمون على فكرة ينقلبون عليها بالكُلّية؟!..رغم أن عالَم الإلحاد يختلف جذرياً عن عالَم السلفية، بمعنى أن الملحد يرى الدنيا بصورة مختلفة عن السلفي، وكأن تصورهما للكون كتصور الرجل والمرأة بقدر اختلافهما وتباينهما في رؤية العالَم، فيشرع الرجل في توظيف قوته لتوجيه المرأة وأن يفرض عليها قناعاته وأسلوب حياته، كذلك فالمُلحد والسلفي يظن في نفسه رجلاً والآخر امرأة، ويريد أن ترى هذه.."المرأة"..العالَم بنفس منظوره ورؤيته.

الفكر السلفي ما هو إلا حالة تجسيد لأفكار ورؤى الماضي، والبعض من الملحدين يعترف بأن الماضي ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً، وأن الأفكار الموروثة والمبادئ السُلطانية تشق جذوعها في البُنيان البشري، فلماذا عندما ينقلبون على السلفيين يتركون دينهم بالكلّية؟

لكي أكون أكثر وضوحاً أنا لم أنقلب على كامل الفكر الإخوانية حيث كنت أجسدها في يومٍ من الأيام، بل أعترف ولا زلت أعترف أن للإخوان مزايا على بعض المستويات، ولكن وقوفي هذا الموقف ضدهم هو أن ما

كنت أنتقده وأرفضه بدأ في الظهور للناس بشكلٍ عنيف، ربما لم أكن أتخيل أن يصل الوضع لذلك، ولكن في تقديري أن الانقلاب على الفكرة الإخوانية بالكامل غير صحيح وهو سلوك غير علمي وغير أخلاقي، ذلك لأن الانقلاب الكامل يعني إرادة تطويع هذا الفكر كي يناسب الحالة العقلية والوجدانية الجديدة، وهو سلوك مستبد ويرى في الناس ضرورة اجتماعهم على رأيٍ واحد ، رغم أن هذا غير ممكن على مستوى الواقع وغير جائز على مستوى الشرع والدين.

لا توجد فكرة صحيحة 100%..وكذلك لا توجد فكرة خاطئة أيضاً 100%..فإذا كان البشر نسبيون في تصورهم لعقائدهم فلماذا لا نفترض أن يكون المؤمن على حق، وأن تصور الملحد للدين وللكون يشوبه بعض القصور؟..لن أقول والعكس صحيح لأن الاعتراف بصحة قول الملحد في الدين يتطلب قياساً تاماً وهذا ليس مقامه، فعلينا أن نسأله أولاً ما رؤيتك للإله وللكون وللطبيعة وللإنسان؟..وكيف تفسر العلاقة بين الكون والإنسان وبين الإنسان ونفسه في ظل عدم اعتقادك بوجود الرب..أسئلة كثيرة تظل هي مدار الخلاف بين المؤمن والملحد، وفي تقديري أن كلاهما يفكر بشمولية زيادة عن اللزوم، وأن الحديث بتلك الشمولية يستدعي الأخطاء في الرؤى أحياناً، فيظن الآخر أنه انتصر ولديه من المعركة برهان على صحة اعتقاده، رغم أن التفكير في قضايا الإيمان والغيب تحديداً يتطلب عقلاً مرحلياً لا يُناقش البعيد ريثما ينتهي من القريب.

السلفيون كالملحدين يحبون من متاع الدنيا وزينتها ما شاء الله لهم أن يكون..فكلاهما بشر، من منهم لا يحب النساء والأطفال والأموال؟ ومن منهم لا يكره الاعتداء والفقر والمرض؟.. فإذا كان كذلك فثمة قاسم مُشترك يجمعهم على الرغبة..ولكنهم يفترقون في كيفيتها وأبعادها، فالسلفي يحرص على التعامل مع النساء بالبُعد الديني والاجتماعي والأخلاقي، أما الملحد فيتعامل مع النساء بكِلا البُعدين الاجتماعي والأخلاقي فقط....وهكذا في باقي المُشتركات.

ماذا يعني ذلك؟

يعني أنه لو افترضنا أن الفرق بين الملحد والسلفي يكون في البُعد الديني فقط.. فنكون قد وضعنا أيدينا على أول الطريق، وهو أننا يجب أن نبحث أولاً في كِلا البُعدين الاجتماعي والأخلاقي وعلاقتهم بالدين، فإذا كانا من الدين فالفارق في التعامل بين الملحد والسلفي يكون فقط في مدى تقبل كلٍ منهم لفكرة .."الوصاية والأمر"..لأن السلفي في الغالب هو عبد مملوك وليس حُرّا.. وهذه آفة التقليد بوجهٍ عام، أما الملحد فهو حر طليق وهذه ميزة الملحدين بوجهٍ عام...أي أننا أمام مدرستين متناقضتين فكرياً وسلوكيا..أعرف صديق ملحد متزوج من مسلمة، ويقول أنه لا يُجبرها على شئ،بل إن تدينها لا يُزعجه أصلاً ويتعامل معها تعامل الزوج لزوجته بشكل طبيعي، ولكي نُقابِل هذا السلوك عند السلفي سنجده يرفض إلحاد زوجته، بل ربما يقتلها إذا لزم الأمر.

الإلحاد والسلفنة كلاهما أثر للآخر..فلا يوجد أثر دون مؤثر، وعلى كل من يتبنى هذه الأفكار يبحث عن حقيقة أن الآخر هو انعكاس له في المرآة، فنحن عندما نضرب طفل صغير نراه على الفور يبكي وأحياناً يبحث عن الضارب ..وأحياناً أخرى لا يهدأ إلا بعد القَصاص له من ضاربه، وهذا يعني أن فطرة الإنسان تعلم أن لكل أثر مؤثر وأن العدل والقَصاص من الظالم هو هدف.."غريزي"..للإنسان بشكلٍ عام، فالغريزة تكون هي المحرك لكلاهما -في الغالب- كذلك لشيوع قانون الهوية لديهم على حساب قانون السببية، فالخلل الأكبر في هذا التشتت والانحراف العقلي والوجداني يكن في عدم وضوح قانون السببية بشكلٍ كاف.

فالسلفي عاجز كلياً عن تصور قانون السببية خارج فكرة الإله، بمعنى أنه يعتقد في أن الله هو السبب في وجود جميع الأشياء والظواهر التي يراها ويُدركها، وهو بهذا التصور -العمومي- لا يفهم أن الله هو المسبب وهو خالق الأسباب بمعنى أن الله ليس سبباً مباشراً.. إنما هو يخلق القوانين التي يحفظ ويُدير بها هذا الكون ويبقى الإنسان في صراعٍ دائم لاكتشاف تلك القوانين كي يُفسر أو يتحكم في الطبيعة والأشياء، وهو رغم إيمانه بالقاعدة-أي أن الله هو خالق الأسباب وهو المسبب- إلا أن تصور هذا المفهوم في ذهنه معدوم، فقوانين الخلق استدعت وجود الأسباب بالضرورة، أي أن السلفي يجهل القوانين التي يستطيع أن يفسر بها الطبيعة أو أن يتحكم فيها من خلال تلك القوانين، وهو سلوك يعزز من قيمة الخُرافة لديه،ويلجأ دائماً إلى تفسير الغير مفهوم بإحالته للمقدس بأن يدعي بأن الله أراد ذلك وكفى دون أن يفهم أو حتى يحاول الفهم.

أما الملحد فهو أيضاً عاجز كلياً عن تصور قانون السببية بوجود الإله، بمعنى أن الأسباب والمسببات لديه حالة إنسانية وطبيعية عامة خاضعة لقوانين ميكانيكية ليس لها مُحرك واضح، وهو يسعى لفهم هذا الحركة وتلك القوانين بعيداً عن الاعتماد على فكرة الرب التي هي لديه غير مفهومة، في حين أن البحث عن هذا المحرك يستوجب القطع لا الظن، أي أنه إذا ما اكتشف وجود قوانين ونظريات للحركة مرتبطة ببعضها فهو يلجأ لدمج العلوم والمعارف التي تساعده في فهم الكون والحياة عن طريق هذه القوانين وتلك النظريات، وهو كلما أمعن في هذا الاتجاه كلما غرق في بحر المادة، بينما الإنسان كائن مادي وروحاني مزدوج، ولا يمكن تفسير وفهم الإنسان والطبيعة بجانبٍ دون آخر، فقانون السببية حينها يفرض عليه البحث عن السبب الأول الذي لا علة له ولا مؤثر،فالكون لو كان في مدار علل وأسباب لا نهائية لكان وجود الأشياء على الأرض وجوداً خالداً وليس البقاء لفترة زمنية ثم الفناء.

بمعنى أن فناء الأشياء يعني أنها امتداد لأشياء أخذت دورها في الفناء المتصل، وهو ما يعني أن الأشياء على الأرض كانت في أصلها شيئاً واحداً على تنوعها، فلو قيل ما هو أصل الإنسان قلت أصله واحد سواء إنسان أو مخلوق آخر متطور عنه، هذا الواحد كان له سبب في الوجود..وهكذا بقية المخلوقات، وبالتالي نستطيع -وببداهة عقلية- تصور قانون السببية في ظل وجود سبب أول لا بداية له ولا نهاية، كذلك في فصل هذا السبب عن قوانين الحركة والسكون التي هي صفة ملازمة للأجسام، فجميع ما نراه في العالم أجسام وبحركتها وسكونها تأخذ صفة الحدوث، أي أن العالَم من حولنا حادث ، ولا حادث إلا ومُحدِث له،

كذلك وبضرورة أن يكون للمحدِثَ إرادة فلا يجوز القول بأن للطبيعة أو لقوانينها إرادة مخصوصة وإلا آمنا بأنها كيانات عاقلة تُريد ثم تختار.

هناك قاعدة فقهية أعشقها وتقول بأنه كلما اتسع الأمر يضيق وكلما ضاق الأمر يتسع، وهي قاعدة مأخوذة من واقع الحياة وتم إسقاطها على الأمور الفقهية للتيسير على الناس، والمعنى أن الإنسان -وطبيعة الحياة- كلاهما في تغيرٍ وتطورٍ مستمر، أحياناً يكون للأفضل وأحياناً يكون للأسوأ، وعليه فبقاء الحال من المُحال..ومن هذا نفهم أن لسلوكياتنا -والأشياء التي نراها من حولنا- حدود مفهومة، فإذا تجاوزنا هذه الحدود انقلبت أعمالنا إلى الضد، أي أن لكل شئٍ حد إذا زاد عن هذا الحد فقدنا المعنى والمقصود من الأمر كله..فإذا ربطنا القاعدة السابقة- وهي أن لكل أثر مؤثر- مع هذه القاعدة الفقهية سنرى بوضوح أن الإلحاد والسلفية في حقيقتهما ليسوا أفكاراً بل نوازع تخطت حدودها المسموحة والمفهومة سلفاً، والسبب أنهم نزعوا للمألوف لديهم ولم يستطيعوا مساوقة حياتهم فإما ينفتحوا بالمُطلق وإما ينغلقوا بالمُطلق.

التعميم ذميم..ليس كل الملحدين والسلفيين بهذه الصفات والشواهد، وما أطرحه ليس مقارنةً تُعطي الأفضلية لأحدٍ فيهم، أو نناقش حُجج أيٍ منهم، ولكن ما يجري هو عبارة عن مُقاربات فكرية للتعارف والتواصل..وشخصياً أميل للسلفيين في أشياء وأميل للملحدين في أشياء أخرى، ولكن حقيقة الدين وحقيقة الكون لا آخذها من كلاهما لأسباب تتعلق –كما قلنا-بنزوعهم للمألوف لديهم..فقد يتسبب هذا السلوك في شيوع العاطفة وتأثيرها الرهيب على الأفكار، بل الفكر لابد وأن يكون

للعقل دوراً في تحليله وتركيبه بشكل رئيسي، سوى ذلك فالعاطفة تُدمر أصحابها.

إذا كان الإلحاد والسلفية كلاهما أثراً ومؤثرا..فهذا يعني خضوعهم للتطور، وأن الملحد تطور وأصبح سلفياً وأن السلفي يتطور ويُصبح ملحداً، ولكن مع ذلك فيستحيل العودة للأصل بعد التطور، بمعنى أن السلفي الذي ألحد لا يمكن أن يعود سلفياً بعد ذلك، والعكس صحيح.. أن الملحد الذي يتسلفن لا يمكن أن يعود ملحداً كما كان..السبب في ذلك أن كلاهما يمر بحدٍ أوسط حين انتقاله الفكري، هذا الحد لا يسمح باتفاقه مع مكانه القديم الذي انتقل منه إذا أراد العودة، والتفسير لأنه تشبع برؤية عقلية ووجدانية تنقد القديم، فيُصبح القديم لديه حداً لا يساوي الجديد في القيمة والشكل، فإذا أراد العودة سيصطدم بهذا التشبّع الوجداني والعقلي الذي حدث، لأن الانتقال الذي حدث لم يكن إلا تشبعاً عقليا ووجدانياً عاطفيا حمله على رفض القديم أو قبول الجديد ولكن بحال لا يتطابق مع أي حالٍ سابق.

في هذه الحالة سيقف على آراء وسطية وأفكار تواصلية تسمح له بفهم الآخرين بصورة أكثر مرونة، فالحدود التي تخطاها في السابق كانت عن تجارب وليست عن ملاحظات، وبالتالي حين يريد الملحد -الذي تسلفن - أن يعود مُلحداً كمان كان فلن يعود بنفس التطابق الأول..فكما قال هيرقليطس أن الشخص يستحيل عليه أن يعبر النهر مرتين، والسبب أنه يتطور ويتغير باستمرار...وكذلك سائر الأشياء من حولنا هي في تبدلٍ

وتغيرٍ مستمر، ولا يسعه في ذلك مجرد الإرادة لأنه –في هذا الحال-لا يفطن إلى أن أفكاره هي الأخرى لو لم تتطور فهذا لا يعني كونها صالحة، فالأفكار وإن كانت صالحة لزمان أو مكان فليست بالضرورة أن تكون صالحة لزمانٍ أو مكانٍ آخر.

أخيراً وكما قلت أن الإلحاد والسلفية كلاهما نوازع أنتجت أفكاراً وليست أفكاراً في ذاتها تستوجب القراءة والاستماع، ولو أننا نقرأ ونستمع إلى أن الاعتقاد بكونهما نوازع بالأصل ينفي صحة وجود هذه المذاهب كمذاهب عقلية أو روحانية حُرّة، فالنزعات تكون في الغالب عن ردود أفعال، وبالتالي فهي مقيدة بسلوك الآخر وقتما ينضبط –بفهم الآخر-يُعيد من حساباته، وبالتالي خرج هذا الاتجاه من كونه اتجاهاً بحثياً إلى اتجاه يقبل رؤىً ومضامين معروفة لديه ومفهومة سلفاً، والعقل لا يتعاطى مع الأشياء بهذه الطريقة،بل يضع المعيار لديه للفهم هو أن يُحقق الدليل شروط الاعتقاد باستقراءٍ واستنتاجٍ تام، وبمناقشة عقلانية لكافة الأبعاد المتعلقة بالأمر، ولن يحدث ذلك إلا بالانفتاح والتواصل أكثر،فبالانفتاح نفهم ماذا يعني الإنسان وماذا يعني وجوده في هذا الكون.

رسالة في ثنائية القرآن والسنة

أكثر من يرمزون لمفهوم السنة فهم يرمزون لها بأنها هي التي تشرح وتفصل القرآن الكريم، وبالتالي كان وجودها يعادل وجود القرآن، وأهميتها من أهمية القرآن، لأنه -وحسب هذا المفهوم -سنعجز عن فهم القرآن..مبدئياً هذا من الناحية النظرية يكون مقبول عدا بعض

الملاحظات، وهي تحرير مفهوم السنة والفرق بينها وبين الحديث ابتداء، وهل السنة صورة عقلية قرآنية عن المُبلّغ.."الرسول"..أم هي صورة روائية مطبوعة في بعض الأذهان فجرى نقلها لنا فحدثت بعض الأخطاء التي شوهت صورة المبلّغ؟..كذلك ضرورة وضع معايير تضمن نقاء الأحاديث مما يخالف العقل والقرآن، جميعها أمور ضرورية يجب وضعها في الحُسبان قبل وضع قواعد التعامل مع السنة .

الدين الإسلامي في مُجمله لا يضع التركيز الأول على الرسول، بل يضع التركيز الأول على الله وما نص عليه قرآنه، ومن أكثر الإشكاليات التي يواجهها المسلمين هو أنهم يُركزون على الرسول فيُهملون علاقتهم بالله..ذلك لأن التشريع الإلهي لا يتعارض مع التشريع النبوي بالحقيقة والذات، ولكنه سيتعارض باللِحاظ والاعتبار، وفي تقديري أن ذلك يحدث من أثر الاجتهادات التي تضع التركيز الأول على الرسول ،فتكون النتيجة أنه وكلما زاد التركيز أكثر على الرسول كلما ضل الإنسان أكثر عن القرآن...مع أنه يمكن اجتناب ذلك بسهولة عبر التركيز على الرسول من خلال القرآن وليس من خلال المرويات التي هي في أصلها أفهام متعددة وصور شتى جرى جمعها في مفهوم واحد يعجز عن إيجاد صورة واضحة عن الرسول.

السبب في وجود هذه الإشكالية هي تقعيدهم لقواعد الإتباع التي خرجت بصور شتى وتحت مفاهيم متعددة من ضمنها..(السنة وفهم السلف وعدالة الصحابة والإمامة وعصمة الأئمة....وغيرها)..وجميع ما سبق يناقش العلاقة بالأشخاص وليس بالله، حتى أنك –في الغالب-لن تجد من يشك

للحظة بأن النقل عن المعصوم سيتعارض مع النقل عن الله..فإذا واجهته بهذه الإشكالية سيقول بأن النقل عن المعصوم هو نقل عن الله بالضرورة، فالعصمة تساوي عدم الخطأ والصوابية المُطلقة في الأقوال والأفعال..وهذا كمن قال بأن أفعال المعصومين في ذاتها تشريعاً منصوصاً عليه بالفعل، وعليه فزواج المسلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره سُنّة يُؤجر عليها، كذلك الزواج من امرأة تكبره في العُمر سُنّة، وكذلك التعدد هو سُنة، وتسمية أسماء الأبناء والبنات سُنة، كذلك من نواحي الملبس والهيئة والعادات ، تخرج جميعها من إطارها المجتمعي والإنساني الضيق إلى إطار آخر يضعها في مرتبة الدين والتدين والفوز بالجنة.

ألا تُلاحظون شيئاً هنا؟

لقد انحصر فهم الدين على السنة، وخرج التركيز من كونه ووجوبه أن يكون على الله فخرج إلى الرسول، وبالتالي انتشر بين المسلمين لفتات وأقوال يومية على شاكلة..قال الرسول..وقال الشيخ..وهو إيذانُ بضمور الدين في الأذهان وضيقه إلى مساحة بشرية ، بينما الدين في جوهره يضع تشريع الله مُعادلاً لإيمان المُبلّغ، وبالتالي لا يمكن أن يتعارض تشريع المُبلّغ -وهو الرسول- مع تشريع الله في القرآن..وأما ما رُويَ عن الرسول من روايات بشرية فلا يمكن أن نتعامل معها خارج سياق القرآن، هذا لأن البلاغ النبوي للقرآن كان عن إيمان تام وتسليم بما وُرِد فيه..ولأن هذه المساحة من التشريع الإلهي والبلاغ والإيمان النبوي بحاجة إلى فرضيات -لفهم وإسقاط ذلك في واقعنا اليومي- فجرى

الاعتداد بالدليل العقلي الذي يضع ويُفسّر هذه الفرضيات، وهذه سمة من أراد الموافقة الفكرية والسلوكية وحرص على عدم تعارضهم.

أشير إلى أن العقول في الغرب لم تكن تتعامل مع الدين الإسلامي بمفاهيم المسلمين أنفسهم، بل كانت تُطلق على الإسلام.."المحمدية أو الدين المحمدي"..ويعني ذلك أن سيدنا محمد في أذهانهم هو الذي أوجد هذا الدين ، بينما نحن نؤمن إيماناً قاطعاً وجازماً بأن الرسول كان مُبلّغاً بشرياً عن الله، ولم يكن إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل..وهذه مفارقة لطيفة أذكرها كموضع شاهد، أن المسلمين هم من أجبروا الآخر على أن يفهم ديننا بهذه الطريقة، وذلك من كثرة تركيزنا على الرسول وانتشار مفاهيم السنة والصحابة والحديث والإمامة وغيرها على حساب مفاهيم القرآن الأولية التي خرجت بإحكامٍ بالغٍ في الدقة وحصرت الدين في قواعد كلية..(كالسلام -والتسامح –وقبول الآخر -والحريات –وفعل الخيرات -والدعوة بالموعظة الحسنة -وخطورة التجارة بالدين -وإعلاء قِيَم العقل -وحُرمة بيع الجنة والنار)...وغيرها من القواعد التي أحكمها الله في كتابه كان الهدف الأول منها هو الإنسان وتنميته وتطويره كي يكون مخلوقاً عاقلاً يبني حضارته بنفسه ويتعايش في كل زمانٍ ومكان.

هم يبررون هذه التسمية بأن المسيحيين منسوبون إلى المسيح، وعليه فالمسلمين ينبغي وأن يُنسبوا إلى محمد، وبالتالي جعلوا لدينا محمداً كالمسيح!...حقيقة ينبغي علينا أن لا نتجاهلها وهي أن إيماننا بأن سيدنا محمد بشراً رسولاً فينبغي ألا يتخطى أثاره الاعتبارات المنطقية وأولها أن سنة النبي لا تتعارض مع رسالته الإلهية، ثانيها أن الإسلام كإسم

يعني السلام والاستسلام التام لهذه الرسالة، ثالثها أن النبي بشر لِذلك فيجوز عليه كل ما ينطبق على البشر وأهمها الجهل بأحوال الغيب ..والخطأ والنسيان، وأن العصمة الذي آمنا بها للنبي هي في رسالته البلاغية عن الله، وبما أن الرسالة تعني في مضمونها الاصطفاء فنؤمن بأن اصطفاء الله للأنبياء كان عن سابق أعمالهم وفضلهم وحِكمتهم،وأن الانحراف العقلي والخُلقي في حقهم لا يجوز.. كونه يُفرغ مسألة الاصطفاء من مضامينها الشرعية، ويُصبح من كان أفضل منهم -في زمانهم -أحق بالاصطفاء وبحمل رسائل الله المتوالية للبشر، وبما أن الله عدل فلا يجوز هذا الانحراف في حقهم ،وأنهم- كبشر- كانوا أفضل من عاشوا على الأرض كلُ في زمانه.

هذا الفهم لتلك الاعتبارات سيضع لنا إطاراً للدين كلياً في الرسالة البلاغية، ويُقاس عليه الحكمة العقلية للمبلّغ إضافة إلى أخلاقه وسلوكياته..سيظهر لنا في النهاية دين متكامل أساسه السلوك المنسوب كأمر لله وكتنفيذ للنبي وللناس، وبالتالي كان النبي قدوةً في الخير ولا يجوز عليه أن يكون قدوةً في الشر، لأن النبي لا يجوز عليه أن يحمل رسالة الشر للناس.. لاستحالة أن يرضى الله الشر لعباده، فإذا تحقق الشر في فعل النبي لم يكن نبياً بل كان شخصاً آخر..هذا سيضعنا في مفارقات عِدة وأهمها أنه لا يجوز قبول أي أثر عن النبي يحمل في مضمونه الشر والاعتداء، فمن يزعم بأن النبي أمر الناس بقتل المرتد فيتم تكذيبه لاستحالة أن يصدر ذلك عن النبي لسابق الحكمة العقلية التي تقتضي الحرية في الاختيار والاطمئنان والسكون للعقائد، كذلك من يزعم بأن النبي صدّق على قتل من يشتمه فيجري تكذيبه.. لاستحالة أن يرضى

النبي ذلك وهو من كان على خُلقٍ عظيم، فلا يوجد شخص خلوق ينتقم من شاتمه فما بالنا بنبيٍ مُرسَل؟...قِس على ذلك أمور عدة تناقَلَتها الألسن عن الرسول منها ما وافق المنهج فنُصدقه ومنها ما تعارض معه فنُكذبه، ومنها ما كان في مضمونه يحتمل التأويل فيُأوّل.

كذلك وكي نفهم ثنائية القرآن والسنة بشكلٍ آمن... فالإسلام نؤمن بأنه ليس ديناً جديداً بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هو امتداد للأديان والشرائع السماوية السابقة، وبالتالي ما اتصفت به هذه الأديان.." في حقائقها".. فيجوز على الإسلام، وقد فعل خيراً بعض الفقهاء باعتدادهم بشرع هذه الأديان إذا لم يوجد ناسخ، ورغم الخلاف حول هذه القضية إلى أنني أميل إلى أن شرع من قبلنا بالعموم هو شرعُ لنا إذا لم يوجد ناسخ له في شريعتنا، من جهة أننا نؤمن بأن الإسلام هو امتداد لحقائق هذه الأديان، ومن جهة أخرى أنه ليس كل ما أتانا منها سنُصدقه فسنراه كما رأينا الأثر عن المُبلغ النبوي.

أخيراً أحسب أن فهم ثنائية القرآن والسنة ينبغي أن لا يخرج عن فهم الواقع الموضوعي والثابت، كذلك عن فهم كافة المُشتركات الإنسانية والاعتبارات العقلية والوجدانية العامة، وإلا حينها شاب الفهم قصوراً من ناحية الفكرة أو التطبيق، وأما ما ساغ الخلاف فيه من أمور جرت عليها العادة واتفقت أو تعارضت مع الدين فينبغي أن نناقشها كفرضيات عقلية أولاً، ذلك أن القصد التشريعي في التحريم يكاد يكون متفق عليه، كمثال شيوع الانحلال الأخلاقي فالكل يرفضه، ولكن سيختلفون فقط في ما هو هذا الانحلال وهل سيتعارض أو يتفق مع العقل والدين وينسجم مع

المجتمع أم لا؟..وماذا لو وضعنا الفرضيات التي تربط ما بين الظواهر وحقائقها هل سيُتيح لنا ذلك أن نفهم الواقع أم لا؟..وهل المُحرّمات لدينا هي بالفعل مُحرمات إلهية أم قيود بشرية صنعها الإنسان لاتساقها مع أعرافه وصورته.."المشوهة"..عن الدين...وهكذا.

رسالة في السنة المُجردة

بدا لي وكنت أنظر في السماء أن وَهَجاً شديداً أصاب عيني، فقلت ما هذا ياتُرى وما كانت اللحظات تمضي إلا وكشفت أن ما رأيته لم يكن إلا وهماً توهمته..فما رأيته لم يكن الحقيقة.. كيف ذلك وقد رأيته..هذا ما حدث...لقد رأيت سراباً ضاع في لحظة، سراباً أصاب عقلي وامتلك وِجداني حتى ظننته حقا...سيسأل سائل وما المقصود من هذه الرؤية..وما فائدة السؤال مع وهمٍ توهمته ، ألا يجوز أن يكون السؤال نفسه وهماً؟..هكذا حال الإنسان حينما يصل إلى الشك في معلوماته، وأن ما تشرّبه منذ الصِغر لم يكن إلا زيفاً حقيقياً مَلَك الفؤاد وما رأى إلا الوهمَ فصُدِم.

قلت لا مناص من المُراجعة، اليوم فقط أيقنت بأن المنهج الحقيقي ليس منهج قال فلان وعِلان..بل هو قال فلان ثم قلت أنا..الأول مِنهجٌ تقليديٌ قِحّ، لا يقع فيه ذوي الألباب والبصائر وليس بحاجة إلا لإنسان رَكن عقله عند أول ركن من أركان الشارع، أما الثاني فهو منهج العُقلاء ودين المؤمنين ومذهب العارفين، لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها،وأن يفرض الفرضيات ويسأل السؤالات ويبحث عن الإجابات..هذا هو المنهج

الصحيح.....كيف لنبي الله أن ينشر دين الله دون تعاطيه مع عقول الناس، أفلا يظن هؤلاء أن في الدين شك؟..

رأيت في الماضي أناساً حملوا على عاتقهم هم الدعوة، ينشرونها باسم السُنّة والسلف الصالح..فقصّروا الثياب وعطّروا أنفسهم بأجمل العُطور وتعاونوا مع بعضهم في السراء والضراء، وأعفوا اللِحى وقصوا الشوارب وتحدثوا عن الصحابة وأن الإسلام هو الحل وأن زمن صلاح الدين سيعود، وأن الأفلام حرام والمسلسلات عبث والأغاني والموسيقى رجسٌ من عمل الشيطان، ورأيت ثلاثة أحاديث عن الرسول ما أشهرهم، يُرددهم الكبير والصغير الشيخ والغفير الطبيب والأمير....الأول.."من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد"..والثاني.."تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي"..الثالث.."ستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة كلهم في النار عدا واحدة، قال الصحابة من هي يارسول الله قال ما أنا وأنتم عليه"..

فالحديث الأول كانوا يستخدمونه لضبط المبتدعة ولغلق أي محاولة للاجتهاد، والحديث الثاني لترغيب الناس في السنة، وغرس مُصطلح السُنّة في خيالهم فيفترق عند أول غياب للمصطلح.. فيقولون هذا الفِعل من السُنّة، يقول الثاني لا..فيقولون إذاً لا تفعله فمن أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد، وكأن الحديثان يتفقان في الجوهر ويفترقان في اللفظ...والحديث الثالث يستخدمونه ضد كل من يكسر طريقتهم في العبادة....فينصحونه بالحديث الأول والثاني..وإذا لم يعود ينهرونه بالحديث الثالث، أن ما نحن عليه كان عليه رسول الله-وهنا أستغرب

كيف عرفوا ذلك ولم يروا الرسول- وبما أن رسول الله يقول بأن من لم يكن على طريقته فهو في النار فاحذر على نفسك..هنا كان القلب يرتجف إن لم تفعل مثل هؤلاء فأنت في النار.

ألم تروا أن هؤلاء يبيعون الجنة والنار؟..وإذا قيل لأحدهم أنت تبيع الجنة والنار يقول وما أنا العبد الذليل لكي أبيع..وكأن كلامه تبرؤاً من مقاله ويقينه..فإذا قلت له أنت قلت كذا وكذا يوم كذا وكذا..يقول نعم قلت وهذه هي سنة الرسول..يقول الله تعالى.."وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"..فإذا قلت له من أين علمت بأن هذا كان فِعل الرسول..يرد على الفور .أنني عَلِمتُ ذلك من السُنّة.

لا أقتنع بأن السنة الحقيقية تجعل الإنسان يعلم مصائر الناس في الآخرة..أو أن يحكم على الناس بأنهم جَهَلة ومذبذبين في أديانهم بمجرد توهم الداعي بمخالفتهم له، فمقاصد الدين -أي دين -لا تتعارض أبداً مع السلوكيات المفروضة على الأتباع، بأن الأمر بالالتزام هو أمر في ذاته للشخص وليس للاعتقاد بوصايته على الآخرين، أو أن يُحكم عليهم بالضلال، فقد حَكَمَ بناءاَ على نظرته الضيقة، التي وإن نظر من زوايا أخري- بعد فترة من الزمن- في نفس المسألة- فسيرى بأن من ضللهم في الماضي كانوا أفضل منه حالاً مع أنفسهم وشعوراً بإنسانيتهم واحتراماً لبشرية وعقائد الآخرين.

إن السُنة الحقيقية لا تصادر أحلام الناس في عقائدهم ولا تجعل من الناس أوصياء على جنة الرحمن أو أن يبلغوا مبلغ العلم بأهل النار، فمن عظمة

الله أن اختص ثوابه وعقابه له، وأنه هو القائل أن المؤمنين وغير المؤمنين لن تُحدد مصائرهم في دار الدنيا بقوله عز من قائل.." إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد"..وقال تعالى في آية ٍ أخرى....." إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. "....

فعِلمُ الله نافذ وأنه لا حق لإنسان أن يعلم مصير أخيه..وأن على الجميع أمر واحد، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يعمروا الأرض ولا يفسدوا فيها ، وأن يعملوا صالحا ويتجنبوا الطالح من العمل، وأن يجعلوا العدالة مقصدهم، فالإنسان لن يعرف الله إلا بالعدل مع نفسه ومع الناس وبإصلاح نفسه قبل البحث عن إصلاح الآخرين...وأن لا قناعة راسخة إلا باشتراط العدل والإنصاف..فلو لم يكن... فالقناعةُ زيف من أركان السُنة المزيفة.

سألت حينها بعد هذه القناعة..وما مصدر الحديث الثالث الذي أدخل الجميع النار إلا من سرى في فَلَكِ هؤلاء وقلدهم..سألت العلماء والباحثين وإذ بي أجد أن الحديث مكذوبٌ على رسول الله، وأنه لا صحة لحديث يقول بافتراق الأمةِ أبدا..وأن من حرص على تصحيح هذا الحديث حرص عله بوازعٍ مذهبي..ينصر طائفته بمَتنه..يضحك على عقول البسطاء الذين يتلهفون شوقا لاسم رسول الله في جُملةٍ مفيدة..فما بالك وأنت تبتدئ معهم الحديث..ب "قال رسول الله"...كانوا ولا –زالوا-

يحرصون على تصحيح هذا الحديث ونسبه لرسول الله زوراً وبُهتانا، وكأنه أملهم الوحيد في التحكم على عقول ورقاب الناس..فإذا اعتقد الناس بأن الجميع أسوياء..وأنه لا إمكانية لتعيين السُنة الحقيقية إلا بفهم مقاصد الدين وبالعمل الصالح، وأن لا نتقول على رسول الله بقولٍ يُخالف منهج القرآن وآياته المُحكمة، حينها سيشعر هؤلاء بالحَرَج أن مقاصد الدين لديهم ستنسف أحلامهم بالتسلط والوصاية، وأنه لا أمل بعد اليوم إلا بكدّهم واجتهادهم وأن يعملوا صالحاً، فسيف التسلط قد ولّى وانتهى.

لا يمكن تحييد بعض صفات وملَكات الإنسان الأزلية كالنزعة والغرور والغضب والأدلجة والطمع والنفاق وحب الظهور وغيرها عن حالة افتراق الأمم عامة وافتراقهم داخل المجتمعات الدينية خاصة، فالقرآن يوضح بجلاء أن الخِلاف "منبع الافتراق"..هو حُكمُ إلهي لحكمة يعلمها الله بقوله تعالى.." ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"..فالاتفاق يعني عدمية الصراع..والصراع هو أصل وجود الخير والشر في هذا العالم، لذا كان افتراق الأمم حالة تتسم بالبداهة..

ولكن هناك من استخدم هذه الحالة لتعيين الخير والشر، ومن الطبيعي أن تنشأ فكرة الخير لدى الداعي في نفسه وأن الآخر هو الشر بل أفكاره هي منبع الشرور...من هنا يأتي الصراع ومن هنا يأتي افتراق الأمم....كانت هذه مقدمة لتبيان أصل الافتراق وحُكمه في هذا العالم..ببيان موجز يُدحض فكرة من اعتقد بأن أصل الافتراق هو الحديث المشهور الذي

تبين كَذِبه سنداً ومتناً، وأوضحنا استغلال دُعاته في غرس الكراهية والتمييز بين بني البشر وخاصة في المُجتمع المسلم..

السُنة المزيفة لا يَمَلّ أتباعها من غرس الدونية والتمييز بأنهم الأحق والأعلم..لا يُفرقون في العادة ما بين الجوانب السياسية والدينية..فالأمور لديهم مُختلطة فيعتقدون بأن حِزبهم السياسي هو الذي يحمل لواء الدين ويدافع عنه، كذلك يعتقدون بأن مذهبهم الديني هو أصل الخير وبدونه يفنى العالم،وبالتالي فهو الأحق بالجنة من غيره من دُعاه العِصيان والشر..هكذا يُفكرون، ولا أخفي سراً أنني اعتقدت هذا الاعتقاد في زمانٍ ما لم يبقى معي سنوات قليلة بفضل الله ومنته..طبيعي أن يكون اعتقادي نتيجة لمناهج التدريس على أيدي الشيوخ، وهنا وبصفتي كنت عضواً في جماعة الإخوان المسلمين أشهد بأن الجماعة بريئةُ من هذا الاعتقاد الأحمق..وأن ما تعلمته من دونية وتمييز لم يكن إلا على سماع وقراءات شيوخ السلفية الذين سلّمت لهم عقلي في يوم من الأيام...لقد تركنا الإخوان فريسة لدعاة التشدد والانحراف العقلي والوجداني، ولما لا وقد أصبح حالهم بعد السلطة كمثل من انحرف بعقله عن الصواب والمنطق السليم.

ولكن مع هذا ففي أواخر أيامي مع الإخوان قمت برصد وتفسير ما يحدث من تغلغل الفكر السلفي التقليدي داخل جماعة الإخوان المسلمين،وظهر ذلك واضحا في تمدد النزعة الإقصائية والمذهبية في كثيرٍ من الكوادر، رغم أن هذه النزعة كان يواجهها الشيخ حسن البنا –رحمه الله-في كثيرٍ من رسائله وخطاباته..وفي الوقت نفسه لم أعد

أستغرب عدم وجود هبّة عُلمائية داخل المجتمع الإخواني تواجه هذه الأفكار المنحرفة ..التي وإن وُجدت في مجتمع فهي إنذار صريح بُقرب انهيار هذا المجتمع واستبداله بمجتمع قائم على العنف والتمييز والانحطاط الخُلقي وانعدام القيم...ولكن سرعان ما وقعوا في الفخّ..وكأن صعودهم للسُلطة كان إيذانُ باعتقادهم للسنة المزيفة...سُنّة رآها الناس أجمع عندما صعدوا إلى السلطة..يقتلون ويكذبون وينافقون ثم يزعمون استقامتهم وربانيتهم..ياله من خداع!

إن الخروج من أُثر هذه الصدمة يتطلب انفتاحاً وانعتاقاً من الفكر الجامد، وأن السنة بمعناها الأصيل تعني التقوى ..وكأن تفسير الحكيم لها أصبح ماثلاً في الأذهان، يبرق إليه كل طالبٍ للحقيقة..ينشد بفعله رضا الرحمن..يقول الحكيم.." التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد إلى يوم الرحيل"..وأي خوف من الجليل في ظلال الترصد والإقصاء؟..وأي عملٍ بالتنزيل ونحن نُأوّل محكمات آياته لصالح متشابهاته؟..وأي رضاً بالقليل ونحن نطمع في خير الدنيا وزينتها وبهجتها وسلطانها ونعيمها الزائل؟..وأي استعداد إلى يوم الرحيل ونحن نخاف من الموت؟.. وإذا أصابتنا الشجاعة للموت كانت لأن نخدم أهوائنا الإقصائية والمذاهبية والحزبية فنُرسل أبنائنا وفلذات أكبادنا كي يهلكوا في سوريا وليبيا والعراق...أرضٍ اختلط فيها الحق بالباطل، وشعوبُ تحترب فيرفع دعاة .."السنة المزيفة"..سيوفهم للجهاد وهم يعلمون أنهم ما حاربوا لإعلاء كلمة الله، ولكن لإعلائهم صورتهم .."المشوهة"..عن السنة..

أما السُنّة الحقيقية فهي التي تنشر السلام والمحبة بخلفية ليست وصائية كفكرة السماحة مثلا..فهذه الفكرة في ظاهرها الرحمة وفي مضمونها الوصاية..هي التي تجعل من المرء أكثر تحفظاً نحو فعل الخير مع الناس، وأن ما يفعله لا يعدو إلا كونه تنازلاً للآخر قد يسلبه منه وقت ما يريد، والأصل في ذلك أن السُنّي الحقيقي يوقن بأن الآخر له حق القبول كوجود بدني وفكري وديني وحقوقي غير منقوص، وأن قبول الآخر لديه شرط مقدس من شروط السُنّة الحقيقية المتمثلة في منهجه المقاصدي، هذا المنهج الذي لا يجعل من الرأي ديناً..بل يضع كلٌ في نِصابه...

على جانبٍ آخر فكثيراً ما نسمع عن مُصطلح الرجعية فيعتقد البعض أنه خاصاً بفكرة العودة إلى الأزمان الماضية بمفاهيمها وثقافتها وأعرافها كاملة، ولكن في تقديري أن المُصطلح أشمل من ذلك، فالرجعية تصف حالة عامة -أكثر من وصفها واقعاً منقوداً- وهنا قد يأتي النقد في غير محلهِ فنرى بعد فترة من الزمن أن الصواب كان ما تم نقده، ويحدث هذا كثيرا في مجالات البحث العلمي وجدليات الفلسفات المختلفة ..كذلك في أوهام احتكار الحقائق، فالرجعية قد تصف تياراً يقضي بمفاهيم ماضية في واقعه ولكنها كانت ناجحة في الماضي، أما محاولة عصرنتها منه دون إدخال أية تعديلات تُحاكي كافة المؤثرات فهذه المحاولة هي رجعية بحتة، والعكس صحيح ومدار ذلك على منفعة الإنسان وصلاحية الفكرة للتطبيق.

فالسُنّي المزيف يعتمد اعتمادا رئيسياً على مفاهيم سلفه التي يظن أنها صالحة لكل الأزمان، فلو دخلت بيته ستجد مكتبتة قد ملأت حُجرات بيته

المتعددة، وإذا فتحت حاسوبه ستجد على ذاكرته آلاف الكتب والمرئيات والصوتيات، وفي حين وجود هذا العلم الغزير لديه فلا تجده ينتفع من أي كتاب من هذه المكتبة أو مرئيُ وصوتيُ واحد ،أو ينعكس ذلك على سلوكه أو أهلية أفكاره للتطبيق، فيجد نفسه معزولا بأفكار يظن أنها المُخلّص الأول للبشرية!.. هذا العلم الغزير في مكتبته هو أصل عُزلته، فالواقع الافتراضي -أياً كانت حالته -يتغير كل ساعة وليس كل عام ، يتغير بمفاهيم جديدة وبثقافة جديدة عبر مؤثرات ودوافع جديدة، هكذا يتطور الإنسان فالعقل البشري منذ 1000 عام لا يُمكن مُقارنته بالعقل البشري المُعاصر، هناك ثوابت عقلية ولكنها في الغالب محكومة بالعلم وبالتطور البشري على مر العصور.

فما بالنا بعقول قاصرة على البحوث الدينية والمذهبية دون القفز إلى العلوم العقلية التي وإن قفز إليها الباحث وشربها ودَوّنها في كُتبه ربما تصلح أفكاره لمجاراة أكثر العصور، فالعقل البشري له قدرة على التفكير لا تتغير، هذه القدرة هي التي جعلت فيلسوفاً قديراً كأرسطو كان يعيش منذ أكثر من 2000 عام جعلته أذكى وأكثر قدرة على التفكير من ملايين البشر ممن جاءوا بعده، وما دون العلوم العقلية التي تبحث في الواقع والمستقبل أكثر من تقيدها بنصوص قد تحصر تفسير النص في بيت زُجاجي مغمور لا يسع عِدة سنتيمترات، بينما لو كان عقلانياً لاتسع عقل هذا الباحث ليكسر البيت الزجاجي ويخرج إلى فضاء الواقعية.

أما السني الحقيقي فهو المُتحد مع نفسه ولا يؤمن بمتناقضات، ويخضع كافة الشُبهات للسؤال والعمل على تحريرها بإجابات منطقية تُحاكي

الواقع أكثر من كونها إرضاءً للنفس..فقد تجد السني الحقيقي يبحث في مسألة تحريم الموسيقى مثلا فيجد أمامه نصوص موافقة ومعارضة لا تتفق جميعها على نتيجة واحدة، فيلجأ السني الحقيقي إلى إخضاع هذه النصوص للعقل حينها سيسأل نفسه ولماذا خلق الله لنا الكروان يغني ويُطرب الآذان أو عصافير الزينة وهي تُزقزق بألحانٍ عطرة، أو نسمع ألحاناً عذبة من فيض الطبيعة كحفيف الشجر، ثم يُحرم الله علينا سماع كل هذا؟؟..حينها سيكشف التناقض، أن تحريم هذه الأشياء ليس له أصل في دين الله، وأن كل ما وُرِدَ من نصوص تحريم لا ينبغي النظر إليها..

طرحت مسألة الموسيقى وكيفية التفكير العقلاني فيها كمثال للسني الحقيقي المُفكّر، وغيرها من المسائل التي اختُلِفَ فيها بين علماء الشريعة المسلمون، فبِحسبة عقلانية بسيطة سنخوض في أمر آخر هو أكثر أهمية..أمامنا الآن رجلين الأول يؤمن بوجوب قتل المُرتد ورجم الزاني المُحصن حتى الموت، أما الثاني فيؤمن بوجوب قتل المرتد مع النظر في مسألة الرجم هذه كونها عملية إعدام بشعة تفوق قوة إعدام قتل المرتد، فخياراته انحصرت في بيان رُتبتي الزنا والكُفر، فلو آمن بوجوب الرجم حتى الموت لصارت هناك شُبهة عقلانية تُجزم بأنا جريمة الزنا أعظم عند الله من جريمة الردة..وهنا إشكالاً ليس عقلانياً فحسب بل هو إشكالاً شرعيا أيضا..

في المُجمل سترى الرجل الأول يؤمن بالمتناقضين، أما الثاني فكان أكثر اتحاداً مع نفسه وبالتالي سيكون أكثر التزاماً بالسُنّة الحقيقية..أيضا نوضح أنه لا عقوبة إسلامية للردة مُطلقا، وكان هذا المثال للتشبيه وتقريب

الفكرة كمثال للتفكير العقلاني للسنّي الحقيقي لا أكثر..وبهذا سيُخضع السُنّي الحقيقي طريقة تفكيره ومقابلاته الشرعية بحالة عقلية افتراضية تتسق مع طُرق التفكير السليم..ويخضع ضوابطه لكِلا الدليلين الشرعيين وهما الدليل العقلي والنقلي، وأنه لا مجال لتعارضهما إلا إذا سلك الإنسان سلوكاً يبتغي فيه الهوى والرغبة.. أو كان ممن أغلقوا عقولهم لصالح الأشخاص..أو ممن قصّر في طلب العلم..ذلك لأن الله لم نعرفه إلا بالعقل، وعلى العقل مدار التكليف والعمل، وأن السنة المجردة لن تخرج من هذا المعيار...

رسالة في التفكير

كثيراً ما تخدعنا أفكارنا وما نصل إليه من نتائج لسبب بسيط وهو تفكيرنا بالمضمون لا بالأسلوب، والمعنى هو التركيز على الشئ نفسه لإثباته أو نفيه، أو التدليل عليه أو منعه أو وصله أو ما شابه من عمليات فكرية، والصحيح في هذا الأمر أن نتعامل مع الشئ بالأسلوب لا بالمضمون...كمثال:هو أن نحاول الربط ما بين الإنسان وأفعاله عن طريق إثبات صحة أو خطأ الفعل، فتُصبح عملياتنا الفكرية مُقيدة في دائرة الفعل ذاته، أي أنه ومن كثرة التركيز على الفعل نُخطئ في تفسير وشرح الإنسان نفسه، هنا لا يُمكن الفصل فلا نقاش للفعل دون التعرض للإنسان وشرحه ذاتياً من أبعاده الثلاثة.."المادة-الروح-السلوك"..فكان التفكير بالمضمون –حينها-مُخلّاً بماهية الإنسان أو أن يحاول كلٍ منا فهم نفسه أو فهم الآخرين.

الصحيح هو أن نفكر بالأسلوب ، والمعنى أن نتعرض بأساليب فهمنا للدين وللحياة وللكون للشئ فنحاول تفسيره كُلياً ولكن بمناهج الفهم التي تعلمناها بعيداً عن إصباغ صفة التقدير للشئ، ويعني ذلك أنه وكلما أضفنا القُدسية أو التقدير للشئ كلما ابتعدنا عن الفهم الصحيح، لأننا حينها أصبحنا نفكر في مضمون ما نحاول فهمه فانطبعت في ذاكرتنا صورة المضمون حتى تُصبح عقولنا عاجزة عن التعاطي مع المؤثرات أو الأبعاد المتعلقة به..النتيجة الحتمية تكون بتعدد الأخطاء في التفكير فإما يسترشد كلٍ منا طريقاً آخر بالمضمون فيزداد ضلالاً فوق ضلال..وإما يسترشد بطريق آخر بالأسلوب فيكتشف خطأه مبكراً أو أن معلوماته وطريقة تفكيره بحاجة لمراجعات.

المتعصب بالعموم لا يفكر إلا بالمضمون، لأنه يحاول إثبات وجهات نظره بعيداً عن الشكوك المتعلقة بها، أما المفكر والعاقل الراشد فلا يفكر إلا بالأسلوب ولا مكان في تفكيره أبداً للمضمون، وإلا حينها أصبح مقلداً أو متعصباً لديه أفكار مسبقة تشكل لديه حواجز وخطوط حمراء لا ينبغي تجاوزها بالأسلوب...وهذا منطق خاطئ تماماً..لأن طريق هداية العقل وقناعته الرئيسة يكون بالأسلوب ، أي أنه وبالأسلوب وحده يصل لمرحلة اليقين، والسبب أن الأسلوب يُعالِج بالخيال أي معتقدات أو أفكار متوارثة، فيضع تلك المعتقدات كمُنتجات عقلية قابلة للدحض، بينما التفكير بالمضمون لديه نتيجة اختبار مسبقة تفرض النجاح كختام للعملية التفكيرية، والسبب أن المضمون يقوم على معطيات يعتمدها المضمون نفسه وليس العقل، بمعنى أن كافة المعطيات التي أتعامل معها -حين أفكّر بالمضمون-لم يُجرَى معها عمليات تحري عقلية للتأكد من صحتها

،وهو ما يُعرف بالتسليم بصحة المعلومات دون إخضاعها للشك، وتقريباً أغلب الناس يفكرون بهذه الطريقة فالبشر في أغلبهم لا يتحرون من صحة معلوماتهم.

لنفترض أن المضمون غير موجود أصلاً أو أنه شيئاً آخر لدينا محسوس، حينها يعتمد العقل أي مدارك أو مُدخلات للمعلومة، ولكن أن يُوجَد المضمون فهذا يعني أنه سيُشكّل لدينا جزئاً من التفكير، ذلك أنه وعن طريق الصور والأشكال- المتعلقة بالمضمون- تحفظ لدينا في خيالاتنا صورة هذا الشئ بعد مفارقته للحواس، فتكون –حينها-العلاقة بين السبب والمُسبب في الذاكرة غير واضحة، فيجري البحث عن تفسير أو تبرير لهذه العلاقة فلا يجد العقل سوى هذه الصورة للمضمون ليضعها كمُعطيات للفهم فيحدث الخطأ.

البديل هو التفكير العقلاني أو المنهجي أو ما أعرفه.."اصطلاحا"..بالأسلوب، لأن هذا النوع من التفكير قليلاً ما يُحدِث أخطاءً منطقية، والسبب أن العلاقة بين الأسباب والمسببات لديه واضحة، وبالتالي فهو قادر بالأسلوب أن يفهم المقدمات والشواهد والظواهر بطريقة أقرب للمنطق السليم..هي طريقة كما قلنا لا تضع معاييرها للفهم خارج نطاق العقل، أي أنها لا تستسلم للموروث أو للخُرافة أو أنها تسعى أو تتأثر بالتقليد، فقدرات الآخر أو العالم الخارجي حينها تكون متواضعة بالقياس على قوة العقل في الرؤية والإبصار.

من أشهر الأخطاء الفكرية هو أن يُسلم إحدانا بالموجود- ولو كان لا عقلانياً.. إما لأن التفكير العقلاني سيكشف لديه عيوبه ويضعه في مواجهة صريحة بينه وبين نفسه، وإما أن هذا الموجود يُمثّل لديه نتيجة سريعة تُريحه من عناء البحث والتفكير، والأخيرة هي سمة ضرورية للمجتمعات المتخلفة التي تعاني من الكسل أو التبرير، أما الأولى فهي السمة الغالبة للمجتمعات الغير مستقرة التي تنتشر فيها الحروب ويشيع فيها سفك الدماء وتُنتهك فيها كرامة وحُرّية الإنسان.

من يُخطئ بهذا الشكل فهو يفكر بالمضمون، أي أنه يحاول أن يُقنع نفسه بالمضمون..لا أن يكون العقل لديه وسيلة لتصوره ،وأشهر الأمثلة التي ينطبق عليها هذا السلوك هو من يُقنع نفسه بالحُكام والزعماء مهما فعلوا، فيلتمس التبرير لهم أو أن يتكاسل عن فهم ما استُشكل عند الآخرين، ولو أقدم على فهم هذا الشئ فيربطه بنتيجة عقلانية لديه تحمل تصوراً مضاداً للآخر، وهذا جانب آخر من سلوك المتعصبين ، أي أن هواة قد أجبره على عدم مفارقة المضمون مهما حدث.

في تقديري أن من أهم الطُرق المأمونة للتفكير بالأسلوب هو أن تُفكك القضية إلى عدة عناصر وهو ما يُعرف بالتفكير التحليلي، ثم يُعاد تركيبها بعد ذلك لاكتشاف زيفها والأخطاء المتعلقة بها..ولنأخذ مثال على ذلك وهو الأزمة السورية فيجري فهم الدولة أولاً بتفكيكها من كافة الأبعاد الداخلية الخاصة بالإنسان السوري وأرضه وتاريخه، ثم من الأبعاد الخارجية الخاصة بدول الجوار والنظام الدولي والإقليمي والظروف

السياسية والاقتصادية والدينية لهذه الشعوب وتلك الأنظمة كمثال، وبعد هذا التفكيك نقوم بجمع النتائج وتصور الدولة والأزمة في ظلها كاملة.

من ناحية أخرى فالحالة المزاجية والوجدانية مهمة في عملية التفكير، لأن دورها في بناء الرأي كدور النار في إنضاج الطعام، فمن الخطأ الاعتقاد أن الرأي هو من العقل وللعقل دائماً، وكثيراً ما يلعب المدلسين والكاذبين أدواراً في توجيه الرأي -وعمليات التفكير في بعض المناطق أو التيارات- بالأصل تكون موجهة لأهداف معلومة ومُرتبة مُسبقاً، وهو ما يُعرف لدي بالأداء الإعلامي التحشيدي أو التوجيهي، وأغلب من يقومون بهذا الدور هم من القائمين على الإعلام الطائفي أو الحزبي أو الأيدلوجي بالعموم.

فأساس هذا الفكر القائم -أو المتأثر بالحالة المزاجية والوجدانية- أنه قائم على التقديس ابتداء، أي أنه- وكما قلنا- أنه متعلق أكثر بالمضمون ، ولا يُخضِع عقله للأسلوب في البحث والنَظَر..ليس لعدم إرادته فقد يكون ممن يعشقون هذا الأداء ،ولكنه من فرط مزاجه ومن قوة وشدة الخديعة- التي تعرض لها- يعجز عن التفكير ويسير في طُرق ممهدة له مسبقاً لم يصنعها بنفسه ولكن يصنعها له غيره، وربما حينها لا يشعر بأزمته حينها يكون ممن يُحظر عليهم السؤال وترتاح نفسه لهذا الطريق فيسير فيه إلى نهايته، وهو مع ذلك يُصبح مملوكاً لا يرى خارج دائرة الخطأ.

كذلك ومن نتائجه .."المصادرة على المطلوب".. وهي إحدى جوانب التفكير السلبي بالمضمون، بمعنى أن الشخص من ضيق عقله وعَطَن

قلبه يخلط ما بين المقدمة والنتيجة لإثبات شئ أراد إثباته مقدماً، وما كان تفكيره إلا لإثبات صحة موقفه وليس للبحث عن الحقيقة، وهو ما يُشكّل تطويعاً للواقع لحساب الرغبة، وأكثر من يُصادرون على المطلوب هم المتناظرين أو العوام الذين تأثروا بشيوع هذه الآفة دون إدراكهم للجزء المغلوط، ففي تقديري أن العوام قادرون على رصد وفهم تلك المغالطات إذا ما حرص الإعلام على كشف هذه المسائل والتحذير منها،وبالكاد إذا ما لم يقم الإعلام –بكافة أشكالة-بهذا الدور يقع العوام أسرى لتلك المغالطات فتشيع الخلافات والاحترابات الداخلية.

ومن نتائجه أيضاً سلوك التعميم والتعميم ذميم، لأن أكثر الآفات التي تتعلق بطُرق التفكير هو التعميم، بمعنى أن يظن الشخص بأن المسلمين إرهابيين بمجرد ظهور أو شيوع مجموعة منهم بهذا السلوك، أو أن الشيعة سبّابون للصحابة بمجرد ظهور مجموعة منهم يفعلون هذا الفِعل، أو أن السنة يكرهون آل البيت بمجرد ظهور مجموعة منهم يُعظّمون قاتليهم وظالميهم، وربما لا يعلم البعض أن هذه الطريقة في التفكير تُسمّى.."بالقياس الناقص"..أي أن يقيس لإثبات شئ دون الحرص على تطابق نتائج القياس على الكل.

البديل في هذه الحالة هو ما يُعرف .."بالقياس التام"..أي أن يجري التأكد من صحة وصدق النتائج على الكل، فإذا أردنا إثبات أن الشيعة على خطأ في سبهم لأصحاب رسول الله فلابد من إثبات أولاً أن الشيعة جميعهم على هذا التوجه، فإذا لم يستطيع أحد تحقيق هذا العمل فالأسلم له أن يتوقف، لأن الاستمرار حينها يُوقعه في أخطاء ومغالطات ستؤدي

حتماً إلى العديد من المُشكلات، فالقياس الناقص قد يُشكّل جانباً من المصادرة أحياناً إذا ما رافقته نزعات إقصائية تحرص على إرضاء الذات مهما حدث.

أخيراً فلا يمكن إنتاج رأي أو قرار صائب يكون نسبة صوابه 100% في ظل الالتزام الحرفي بالنصوص والقوانين، ذلك لأن التفكير السلبي في الغالب يقوم على أساس حرفي من البناء الفكري على القوانين، فكل قانون له بناء فكري يجيز هذا ويُحرّم ذاك، وعليه فحياة الإنسان ما بين الجواز وعدم الجواز، وأكثر من يفكر بهذه الطريقة يُفاجأ بأنه يتشدد في ما لا يلزم، والسبب أنه تغاضى عن الغرض والمقصود أو ما يُعرف بروح القانون أو النص، وإذا لم يفطن الإنسان لهذا السلوك فسيظلم آخرين وسيظلم نفسه حتماً، وربما إذا كشف هذا المقصود يبدأ في الشك.

وعليه فأنا لا أثق في ادعاء من يزعم بأنه على الحق المُطلق في أي شئ حتى في الدين،لا يمكن أن تقول بأن الله موجود وأنت تعبده هكذا دون أن تُحدِث عملاً عقليا وروحيا يحملك على هذا الاعتقاد، وإلا حينها تشوب أفكارك بعضاً من الظواهر السلبية كالتقليد والآبائية، لأن الشخص حينها إذا سأل نفسه لو كان قد وُلِدَ في مجتمع آخر أو على دينٍ آخر فهل سيبحث عن الحق بنفسه أم سيتعصب لدين قومه بنفس مقدار ما عليه الآن من مواقف؟!...الأديان بالعموم تخاطب العقول، لِذا فالعقل ضروري لتصور الدين، والدين بالعموم هو جزء من عملية التفكير بل ربما يكون هو الجزء الأهم والأكبر، وهو الذي ينبني عليه كافة القوانين والنصوص المنظمة لحياة البشر بعد ذلك.

فمن يزعم بأنه لا حاجة للتفكير في وجود الإله فقد كَذِب، وهذا يعود بنا لما قلناه قبل ذلك بأن من سمات المجتمعات المتخلفة التسليم بالموروث والتبرير له، أو الكسل في تفسير وفهم ما استُشكِل عليه من أمور الدين والحياة والكون، فالدين بحاجة إلى عقل متحرر كي يفهم حقائق الدين التي تتجدد وتتطور بتطور الإنسان وبيئته، فمن أراد إخضاع الواقع للموروث فقد جعل موروثه مضموناً يحوم حوله لإثباته والدفاع عنه مهما حدث، والسبب أنه حرص على الانتفاع بسائر المكتسبات التي رافقته في جزء من حياته، فظن بجهله أن هذه المكتسبات هي الجائزة لهذا الاعتقاد ولا يحاول تفسير وجود مثل هذه المكتسبات في أيدي الآخرين، وهنا يكمن الخطأ في التفكير لأن تغيير الأفكار لا يلزمه الهدم بالضرورة، فالتغيير ضروري لاتساق هذه الأفكار مع التطورات التي تطرأ على حياة البشر، وبالتالي فالذي يحدث هو تطوير بمعنى تنمية وتجديد وليس هدم الفكر والشخصية بالكلية.

رسالة في حاكمية التفكير البدائي

في فلسفة التاريخ تتنوع المقدمات فتتنوع النتائج، ولكن لو توحدت المقدمات ثم اختلفت النتائج يحتار الإنسان ويسأل ماذا حدث؟..ولنضرب مثلاً بشيوع إحدى الأساطير في مكانٍ ما، وليكن أن وحشاً خفياً سيظهر في المكان الفلاني، هذه مقدمة سلبية قد تُنتِج فقراً معرفياً أو هواجس واضطرابات عصبية وخوف سيؤثر في معدل الثقافة والإنتاج، وهو مع ذلك يُشكل كينونة عامة يألفها الإنسان ومن ثم يقبلها على حالها، ولكن

في نفس الوقت قد تُنتِج دافعاً لقهر هذه الأسطورة والبحث في حقائقها وما يتعلق بها من نتائج لا تُرضي الباحثين، وهذا هو التنوع الذي في تقديري هو لازم كل مقدمة سلبية، وينطبق الحال على المقدمة الإيجابية فهي لا تشترط بلوغ النهضة والعلم، إذ كان وجودها يخلق دافعاً للتخلف والوهم.

هذا ما أقصده بأن هناك وجوداً للتفكير البدائي في عقل الإنسان، وهو التفكير الذي يشدّه إلى الوراء، حتى أنه وكلما ظنّ الإنسان تقدمه يجد نفسه يتخلف، إنها قوة الميثولوجيا وعلاقتها بالطبيعة ومدى إدراك العقل لها، أو التفاعل معها، أو القضاء عليها، هو تفكير له حاكمية في البُعد المكاني أكثر من الزماني، ففي داخل المكان تتنوع مصادر الجهل والتخلف كالعادات والمحظورات ومن ثم غياب العقل الناقد، ولا يشترط ذلك الزمان أن يُوجد في مكانٍ آخر بنفس الأوصاف، فهناك أماكن تعرف قيمة العلم، وأماكن أخرى تجهل قيمة نفسها أصلاً.

لذلك تبدأ حاكمية ذلك التفكير من المكان وتتوغل داخل الزمان، شرط أن لا تُوجد قوة ناقدة تتصدى له تصدياً يحمله على التراجع، إنه العقل البدائي صاحب الكلمة العليا في انهيار الحضارات، وفي شيوع التخلف والجهل.

قديماً عند المسلمين -وإلى الآن- حدث وأن شاع هذا التفكير عدة مرات، وبفضل شيوعه ضَعُفَ العقل الناقد ذلك العدو التاريخي والأبدي للعقل البدائي، فتم نزع مقومات الحضارة عن سياقاتها في التاريخ ووضعها في سياقات أخرى تخدم ذلك العقل، مثلما جرى من انتساب قسري لحضارة

المسلمين إلى من يُعرفون.."بالسَلَف"..والمقصود منهم أهل الحديث والرواية أو الحنابلة، رغم أن الأسماء المطروحة كانت تُعادي ذلك العقل الروائي والتفكير البدائي بالكُلّية، من أمثال هؤلاء هم.. الحسن ابن الهيثم والبيروني والجاحظ والخوارزمي وابن حيّان والرازي والفارابي وابن رُشد وغيرهم، هؤلاء الذين صنعوا الحضارة، كانوا ضد منهج الحديث واعتباره ديناً وتشريعاً عن الإله، واعتبروا أن ما جرى في الحديث هو مجرد أكاذيب وأوهام بشرية دخلت في الدين عنوة وأصبحت من المُسلّمات، رغم أنها في النهاية مجرد أكاذيب وأوهام لا تُقنع العقل.

ولكن بشيوع –أو بعودة- التفكير البدائي للمسلمين شاع أن هؤلاء والسَلَف واحد، رغم أن السلف كفّروهم ولعنوهم لمجرد تحكيم العقل الناقد، وهذا يعني أن من يُعرفون بالسلف كانوا بدائيين ذوي عقل بدائي، وأقصد هنا من كتب الحديث الذي صار ديناً عند المسلمين، ولا أقصد جيل النبي والصحابة وآل بيته، فالوارد عنهم من أخبار لا أثق فيه، وأجعله مجرد فرضيات أو روايات تخدم مذهباً بعينه دون آخر، وقصة المذاهب في الإسلام هي أبرز تجلي وأوضح دليل على حاكمية التفكير البدائي، فكلما شاع هذا التفكير كلما انقسم المسلمون إلى فِرق ومذاهب، وإلى الآن لا زال البعض يخرج باجتهادات في الدين لا تخرج عن ما تعارف عليه المحدثون، فتكون النتيجة هي مزيد من التفرق والتكلّف في أمور الدين، بل ويُناقشون مسائل هي في غاية الانحطاط والبلاهة لا تعبر عن مشاكل المسلمين ، بل تُعبّر عن واقعهم البدائي الذي يُسلّم لمثل هذه المناقشات ويعتبرها فتاوى دينية هامة.

مثلما كانت للمُعادلات الكيميائية عوامل مساعدة على التفاعل فالتفكير البدائي له عوامل مساعدة على التألق والبزوغ، من أهم هذه العوامل هي .."التقليد"..إذ نعود إلى حاكمية العقل البدائي داخل المكان، فالبشر ينزع نحو التقليد، لأن تكوينه العقلي والبُنيوي يألف لرؤية الناس ويطمئن للبعض منهم، وبمجرد الاطمئنان تأتي بوادر الثقة واليقين، وتلك مراحل التقليد، الذي يقوم على سيطرة بعض الناس على أناسٍ آخرين، ومُجمل الوسائل التي تساعد في تلك السيطرة هي ما نسميها.."بالسياسة"..ومنها الخَطابة وحُسن المعاملة والانفتاح، كل ذلك يُساعد في عمليات السيطرة، ومن ثم شيوع التقليد ومعه ينتشر ويسود العقل البدائي الذي يتغذى على التقليد كأساس، وليس شرطاً أن يكون المقلد على صواب كي لا يكون بدائيا، فقد يكون صائباً ولكن بدائيته تحمله على التقليد فيرفض أي حُجة جديدة وأي دليل عقلي مهما كان صحيحاً.

كذلك الأيدولوجيا الحِزبية فهي ترتبط بالتقليد من جهة المنافع والاتساق العقلي المنطقي، لذلك فهي تساعد على تقوية العقل البدائي، بل وفي تقديري أن تأثير الأيدولوجيا في خدمة البدائية أقوى من حيث المفهوم، حيث أن التقليد يُعتبر جزء من الكل الأيدلوجي لا يقف عند حدود التقليد الشكلي، بل يتعداه لمسائل التنبؤ ومن ثم تكوين الأهداف المرحلية أو العامة، وربما تسكن الأيدولوجيا مرحلة من الزمن تكون فيها ضعيفة وتدعو لنفسها على مهل وبخفوتٍ تام بعيداً عن الأضواء، ثم لا تقف موقفاً من النقد كونها تؤمن بأن معركتها مع النقد لم تبدأ بعد، لكن لو شعرت الأيدولوجيا بقرب تحقيق أحلامها وتنبؤاتها صارت تُعادي النقد وتنتصر للبدائية بطريقة متوحشة.

وقد حدث ذلك مع جماعة الإخوان في مصر، ولن أشرح ماذا حدث بالتفصيل إذ تعرضت لما كان بأكثر من طريقة، وقد رآه العالَم بمناظير متعددة، فقط يكفيني هذا التفسير العقلي أعلاه، والذي يشرح لماذا تخدم الأيدلوجيات الحِزبية-كالإخوان-التفكير البدائي، وتنتصر له بطريقة متوحشة كونه يعود بهم إلى أصول المنهج والمذهب، وهو الغاية لديهم من تحقيق أهدافهم وتنبؤاتهم، مثلهم مثل أي جماعة أيدلوجية تُفكر بالبُعد الزماني أكثر من المكاني، ثم إذا شَعُرت باقتراب السيادة وتحقيق أحلامهم انتصروا فوراً لصالح البُعد المكاني كونه أصبح متاحاً السيطرة عليه، فالأيدولوجيا تخدم التفكير البدائي وحاكميته من جهة السيطرة، كونها تقوم على التقليد، ولو لم يكن تقليداً لانهارت الأيدولوجيا لصالح العقل الناقد.

رسالة في الموسيقى

كثيراً ما نسمع دعاوى متعددة بأن الأصل في الأشياء الإباحة، وأن التحريم لا يأتي إلا بنص صحيح وصريح لا يحتمل التأويل، ولكن عند التنفيذ فالأمر يختلف، ربما لأن هناك مساحة فراغ فكري يعاني منها العقل العربي منذ زمن بعيد، وأن هذا الفراغ يسمح بدخول توجهات وأهواء شتى يجري وصمها دينياً كي تكون من الشريعة...ولِمَ لا والعقل العربي مُعطل والاجتهاد متوقف عملياً منذ القرن الخامس الهجري، هذا القرن الذي أعده آخر قرون الاجتهاد والتنوير لدى المفكرين والأدباء العرب...بعدها صار القلق والخوف هو عنوان المفكرين والكُتّاب، وفي تقديري أن الذي حدث هو خوف من مصائر بعض المجتهدين في القرون

الخمسة الأولى، فالمفكر كان على عداءٍ كامل إما مع السُلطة، أو مع المنتفعين من هذه السُلطة، فصاروا يترددون ويتحسسون مواقعهم وكتاباتهم، فصار الأمل معقوداً على النجاح والأمان المضمون، بينما النهضة لا تضع هذا المعيار ضمن ثوابتها ، فأصبحنا منذ هذا العهد متخلفين وما كُتِبَ في هذه الحُقبة صار دروساً يجري ترديدها وشرحها في المجالس بعدها.

هذه المقدمة ضرورية لاستبيان أصل ثقافة التحريم في وعينا العربي، فقد ثَبَتَ أن التحريم -كسلوك- يفشى وينتشر في المجتمعات المُعطّلة، وبالتالي اشتهر بين الفلاسفة والمثقفين بأن معيار انحطاط الأمم يكون بقياس نسبة المُحرّمات في هذه المجتمعات، فكلما زاد التحريم كلما انحطّ الإنسان وتخلف، ذلك لأن قدرة الإنسان على الإبداع تأتي أولاً من حرية وجود عقله الناقد، وبما أن النقد غير موجود أو غير مسموح به فيتوقف الإبداع ويحل محله التقليد والترديد.

مسألة الموسيقى كانت من المسائل التي أخذت شوطاً كبيراً من الاجتهاد بين مؤيدٍ ومعارض، حتى في تلك القرون الخمسة الأولى كان الخلاف فيها حاضراً وبقوة، وما اشتهر بعد ذلك بالتحريم كان لشيوع رأي المعارضين لأسباب اجتماعية ودينية، ففي تقديري أن شيوع رأي المعارضين للموسيقى لم يأتِ إلا في عصور التخلف والانحطاط بِدءاً من القرن السادس الهجري، كان حينها حِفظ المتون الحديثية شائعاً ويعادل في فضله فضل القرآن، والحفظ كفِعل يعني الترديد، والترديد يعني الكلام دون النظر في المعاني أو الأصول أو المآلات..فكان الشيخ في مجلسه

يشرح ما حَفِظَ من المتون على تلاميذه، والشرح يعني أن هناك قبولاً للمشروح وسيأتي شرحه أو تأويل ما استُشكِلَ منه أو اختلف، ذلك لأن الحالة السيكولوجية للمعلم والتلاميذ حينها تعني أن هناك عِلماً وفضلاً يجري الاستفادة منه، فلو رد المُعلّم تلك المتون فلا حاجة للعلم والفضل..بتلك الطريقة جرى نقل آراء هؤلاء المقلدين المرددين إلى عصرنا هذا، والأعجب أنك ترى من يعيش بيننا ويسلك نفس سلوك التقليد والترديد حتى بعد أن امتلك في بيته جهازاً للكمبيوتر يبحث فيه عن المعلومة في ثانية واحدة كان الباحث في تلك القرون الغابرة يبحث عنها في شهرٍ كامل!

مسألة الموسيقى لم يأتِ فيها نصّاً صريحاً وصحيحاً يُحرّم سماعها، بل اختلطت النصوص ببعضها فصار المؤيدين يُحلّونها من نصوصهم وكذلك فعل المُحرّمين، ولكلٍ أدلته التي يميل إليها ويُصدّقها..وفي هذا المقام لن نتعرض لأقوال هؤلاء ولا إلى أقوال هؤلاء منعاً للتكلف وقتلاً للترديد والتقليد، ففي تقديري أن الحصول على آراء كل فريق أصبح في متناول الجميع، فمن يبحث عن التحريم سيبحث عن أقوال المحرمين ويتعصب لها، وكذلك سيفعل من يرى أن الموسيقى حلالاً فيبحث عن أقوال المُجيزين ويتعصب أيضاً لها..وكِلا السلوكين باطلين..فمسألة الموسيقى ليس لها وجهاً شرعياً قاطعاً، وغاية ما كان لأمر الموسيقى أنه لا يوجد نص صحيح وقاطع يُحرّم سماعها، وبالتالي فالموسيقى –لذاتها- ليست حراماً في دليلها الشرعي، وبما أن الشريعة تُؤخذ أيضاً من الدليل العقلي فيجري بحثها عقلياً..وبما أننا سنتحدث بالعقل وعن العقل فضروري أن نتحدث عن الإنسان.

تبدأ القضية من مرحلة الولادة فيسمع الطفل غِناء أمه أو موسيقى هادية وراقية فتهدأ نفسه وينام..ويكبر سنة بعد أخرى فيسمع أغنية أو موسيقى راقصة فيتمايل عليها ويرقص، كانت الفِطرة هنا مؤثرة على الطفل بأن سَمع سماعاً طيباً -على نفسه- فكان السماع مؤثراً والرقص أثر..في تلك المرحلة العُمرية لا يعرف الطفل حلالاً أو حراما، بل كل ما يفعله أنه يتفاعل مع الظواهر فحسب، ثم يقوم بوضع الفرضيات بطريقة أوتوماتيكية، بأنه سَمِعَ ما يُحب فيرقص كي يشعر بالسعادة ويضحك، وكأن الغريزة هي المحرك، فإذا قيل بأن الطفل لا عقل له فكيف يضع الفرضيات ويتنبأ؟.. قلنا أن الحيوان لا عقل له ويضع الفرضيات بأنه إذا مرّ من هذا الطريق حين وجود عربة فسيُقتَل، فيُقرر أن يُسرِع من نفسه وإلا هَلَك، فكان تنبؤ الحيوان تنبؤاً غريزياً كالطفل، فإذا قيل أن هذا ليس دليلاً على جواز الموسيقى قلنا بأن الله لا يجوز عليه أن يحرم ما استحسنته الفِطرة، وإلا كان خلقنا معيباً وهذا مُحال، فإذا قيل بأن الفطرة لا تعرف القتل فيجوز أن يقتل الطفل إنساناً أو حيوانا.. قُلنا بأن الطفل يقتل ولكنه يجهل ماهية القتل ونتائجه بل ودوافعه فكأنه يلعب فقَتَل، أما حين يسمع الموسيقى فيعرف أن هذا سماعاً طيباً على نفسه فيتفاعل..خلاصته أن هناك فارق فالقتل في غايته فِعلُ من الداخل، أما الموسيقى فهي مؤثر من الخارج فلا يجوز القياس.

كذلك في أصوات الطيور الناغِمة واللّاحنة كالبلابل والكروانات..فهي أصواتُ طبيعية أي أنها موجودة في الطبيعة، فإذا قيل أن هذه أصوات طبيعية خلقها الله أما الموسيقى فهي من آلات صنعها الإنسان..قلنا بأن

الله لا يجوز عليه أن يخلق سماعاً في الطبيعة يكونُ حراما..فلماذا إذاً لا تكون أصوات الحَمِير حراماً وهي أقبح من أصوات البلابل؟..بل كان صوت الحَمير مُنكراً لقُبحه ومع ذلك نسمعه ولم يُحرّم، والاستقباح دليلُ على وجود الاستحسان كضرورة وجود الضدين، وعليه فالصوت الجميل حَسنُ في ذاته قياساً على مُنكَرية صوت الحمير..هي مقابلة عقلية لطيفة تُشير إلى أن الطبيعة من حولنا تَعجُ بالموسيقى ..فلو كانت حراماً لكان كل شئ في عالمنا حراما..بل وجودها دليلُ على حُسنِها وأن الله أمرنا باستحسان الأصوات كما أمرنا باستحسان الأفعال والأطعمة وكذلك المشمومات والمرئيات..

من جهة ثالثة أن الموسيقى هي أثر من مؤثر على شئ، كذلك كلام الإنسان وغنائه، فالموسيقى أثرُ لحنيّ نتيجة لمؤثر العصا على الوتر، كذلك فكلام الإنسان- أو غنائه- أثرُ لحنيّ نتيجة لمؤثر عزم الإنسان وهوائه وتنفسه على أحباله الصوتية..فإذا كانت الموسيقى حراماً فكلام الإنسان حرام نظراً لوحدة المصدر!....هنا كانت العصا مؤثراً وهنا كان العزم أو التنفس...النتيجة هو خروج صوت يجري تنغيمه وتلحينه حسب الهوى والرغبة، يُثبت ذلك إمكانية تقليد الإنسان لصوت الآلة الموسيقية، فكثيراً ما نرى من مطربي ومطربات الأوبرا وهم يشجون بأصواتهم القوية مُحدثين فيها أصواتاً تُشبه صوت الآلة، فقُدرة الإنسان على التقليد لم تقف على الآلة بل تعدتها للحيوان والطير، وكلاهما نجد لديهم من يُقلد صوت الآلة، فالعصفور بزقزقته يُقلد عِدّة طبقات ومقامات موسيقية معزوفة..فكيف يكون سماع صوت العصفور حلالاً وما قلده من موسيقى

يكون حراماً..هنا يكمن التخصيص في تشدد وتنطع ديني في تقديري أن مصدره إما كراهية للحياة أو عُقَد نفسية أو جهل ناتج عن تقليد.

أعجب ممن يرفض سماع الموسيقى مُعللاً قوله بأن سماع ضرب الدف هو الجائز لديه!..والسبب أن ضرب الدف إيقاعُ في ذاته ، والموسيقى إما وتريات وإما إيقاعات بل الإيقاعات كانت عند كثيرٍ من الموسيقيين أهم في صناعة الموسيقى من الوتريات نفسها، وكلامه دليلُ على جهله بالموسيقى، بل هو يعلم أن الضرب على الدف ليس على مقامٍ واحد بل على مقاماتٍ متعددة تُنتج ألحاناً وسماعاً طيباً..فلماذا يقبل سماع ضرب الدف ويرفض سماع صوت الآلة؟..حينها أقف على رفضاً للسماعِ الطيب بشكلٍ عام، بل أجزم بأن الذي يرفض سماع الموسيقى إما يتناقض فيسمع مرة ويرفض أخرى، وإما مُعقد لا يشعر بالجَمال في الكون.

أخيراً وبأن لكل شئ سبب فلتحريم الموسيقى لدينا سبب..وهو في تقديري أن الموسيقى من الطيبات التي تشتهي لها الأنفس وتطن لها الأرواح وتتفاعل معها القلوب، وبهذه الطبيعة الموسيقية يَكُن وجودها في مجالس الشهوة والانحراف أكثر من وجودها في مجالس الاستمتاع والذِكر..فتلقفها العقل البشري كوسيلة للانحراف تتعارض مع وسائل التدين المختلفة، حتى اشتهر بين محرميها بأن الموسيقى والقرآن لا يجتمعان في قلبٍ واحد، وهو قياسُ فاسد يقيسون فيه بين مختلفٍ كالموسيقى ونقيضٍ كالقرآن..فالقرآن نَقيضهُ لا قرآن، فلو قلنا على القرآن مُختلَفاً لجاز لنا القول بأن هناك من الوحي الإلهي الصحيح ولكنه ليس قرآناً، أو أن يكون هناك قرآنين مختلفين...أما الموسيقى فيجوز

عليها ذلك، فمنها الأصوات الحسنة والقبيحة والمقبولة والجيدة، وبالآلة يمكن أن تعزف ألحاناً لا تستحسنها الروح ويرفضها الذوق..وعليه فاجتماع الموسيقى والقرآن في القلب جائز بل وفي الواقع وفي سيرة كثيرٍ من الأئمة الصالحين نجدهم يسمعون الموسيقى وهم من عُرفوا بصلاحهم وحُسن تدينهم، فلا حاجة لنا بعد ذلك لمن يُعسّر على نفسه والناس..ومن يُعسّر فيُعسّر على نفسه، ومن رأى حقيقة الدين يعرف معنى الجَمال ويتذوق حلاوة السَمَع.

رسالة في الخبر المتواتر

من أكثر ما يسقط فيه فقهاء الشريعة سقوطاً علمياً وأخلاقياً... هو تلخيصهم لمُجمل اجتهادهم بين العامة، فيقولون بالفتوى أو بالحديث - وأحياناً بالسند-ولكن لا يذكرون أهم ما في الأخبار المروية عن رسول الله، وهو أن الحديث -وإن كان صحيح السند- إلا أنه إما خبر آحاد أو خبر متواتر..وهذه آفة كُبرى من آفات الفقهاء، أن جعلوا الخبر إما صحيح وإما ضعيف..فيصدق العامي ذلك أو يُكذبه استناداً إلى رؤية الفقيه وليس لرؤيته هو، فقد غرس الفقهاء في عقول العامة أن أمور الدين والبحث والنَظر جميعها حصرية لهم، ولا يحق لأحدٍ سواهم أن يبحث وينظر، ولكن الحق أن للناس مقاماتٍ عِرفانية وعقلية متفاوتة، فمنهم من يرى وينظر أفضل من الفقيه، ولا يُشترط بنظره أن يكون دارساً لعلوم هي بالأصل منقولة أو مروية وبعضها ليس شرطاً في العلم.

عُرِف بين جمهور الفقهاء أن الحديث هو مصدر السنة النبوية، وعليه فالحديث يكون مصدراً للتشريع..لأن السنة تشريع ، ولكن كي يضبطوا الحديث ويُبينوا ما صحّ منه وما ضَعُف قاموا بدراسة علم مخصوص له يبحث فيه من كافة أبعاده الرئيسة سنداً ومتنا، ومن السند خصصوا علوماً أخرى كمعرفة الصحيح والحَسَن والضعيف والمُرسَل والمقطوع والغريب والعزيز..وغيره...ومن المتن خصصوا علوماً أخرى كمعرفة المُحكَم والمتشابه والمُجمَل والمُشكل ..وغيره..إذن فنحن- من الناحية النظرية - أمام علم قوى ومُحكَم، يبقى فقط حُسن التطبيق وفهم العلوم وإسقاطها كي يستطيع .."المُحدّث"..إظهار ما صح عن رسول الله ويكون تشريعاً يُضاف إلى كلام الشارع الأول وهو الله.

ما يهمنا –الآن- من أمر الحديث هو أمر المتواتر والآحاد..ففي تقديري أن معرفة كليهما سيضعنا أمام تصور أقرب إلى الواقعية للدين ككل..فالحديث وإن كان صحيحاً أو ضعيفاً إلا أن البناء العقلي والوجداني للفقيه قد يدفعه للتأويل، ومن ثم قبول الخبر والاعتداد به ضمن الشريعة.وهذا يُنافي منطق الدين من جهة..أن التشريع لابد وأن يهتم بالنصوص ومقاربتها مع العقل ابتداء، فالعقل هو الباحث ..وهو آلة الفقيه وهو الذي يضع الفرضيات ..وعليه كان العقل هو المعيار الأول في الشريعة..ولكن بما أن الجانب الإيماني بالله أوجب الإيمان بالغيب فقد خرج العقل من هذا الإطار بالكُلّية..وانحصر دوره في ما دون الإيمان بالغيب سواء من تشريعات دنيوية أو أحكام عقلية ستهتم-حتماً- بأمر الأخبار كون الكذب فيها مُحتمل بل ويغلب فيها إذا توازى معه أي عمل كيدي أو خطأ بأي شكل...من جهة أخرى أن تأويل الفقيه غير مفهوم أو

غير مقبول عند آخرين،لِذا كان افتراق المذاهب في أصله ناتجاً عن سلوك التأويل وليس لمسألة قبول النص أو رفضه، حيث يتوهم المُأوّل بأن تأويله نص وهو غير صحيح.

تعريف الخبر المتواتر هو..(ما رواه جمع كثير عن مثلهم من أول السند إلى نهايته...بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب، وأن يكون منتهى خبرهم الحس كأن يقولوا سمعنا أو رأينا أو لمسنا) ...ومن خلال التعريف نفهم مباشرةً أن الخبر المتواتر يُشترط فيه أن يكون الجمع الكثير متحقق في كل طبقات السند وفي كل العصور،فإذا روى الجمع عن الواحد فلا يكون متواترا..وبذلك يظهر أن للخبر المتواتر شروط قاسية من هذا التعريف، وهو ما حمل البعض للتخفيف من هذه الشروط بتحديد هذا الجمع بأقل عدد ممكن، فمنهم من قال أن الجمع عشرين ومنهم من قال عشرة بل ومنهم من قال خمسة..على خلاف ذلك هناك من قال أن الجمع ينبغي وأن يكون بعدد أهل بيعة العقبة الثانية أي اثنان وسبعون، ومنهم من قال أن الجمع يجب أن يكون بعدد أهل بدر أي ثلاثمائة وأربعة عشر...والتعريف الأخير للجمع قد يكون مستحيل أن يكون إذا ما اعتقدنا بأن الخبر المتواتر في أصله معدوم.

حكم الخبر المتواتر أنه يفيد العلم اليقيني القاطع والجازم ، وعليه فالإيمان به كمن رأى ومن سمع، وبالتالي كان تكذيب الخبر المتواتر –حسب إجماع الفقهاء-يعني تكذيب الله ورسوله، والتكذيب هنا كُفرُ لا محالة..بالتالي نحن أمام أمرين اثنين..(تعريف وحُكم)..فإذا جاء الحُكم دون بيان التعريف ففي الحُكم نَظَر، وأن من يُسارع بإثبات تواتر الخبر

فيُنظَر في أمره، ذلك أن ما ينتج عن إثباته تشريعُ في الأصل لا يجوز إنكاره ولو باجتهاد..لذلك ففي تقديري أن شرط ثبوت التواتر هو الإجماع بالتواتر، وهو ما يرفضه البعض بأن ثبوت التواتر عند جماعة يكفي وهو منطق خاطئ، لأن لكل جماعة متواتر تُلزِم به الآخر، فإذا كان لكل دين أو مذهب جماعة أثبتت التواتر ...كان الإيمان بما جاءت به واجب.

أهمية الخبر المتواتر تكمن في أن البناء عليه يُساوي البناء على النص القرآني، أي أن كلاهما يوجب العلم والإيمان، وأن الذي يُنكر أحدهم فهو يُنكر ما جاء في شريعة محمد، فقد قال الله تعالى..(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال أيضاً ..(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال أيضاً..(من يطع الرسول فقد أطاع الله)..والآيات هي مصدر من يقول بأن الحديث هو السنة ولو كانت آحاد، ولو كان كذلك فلِما كان إيمانهم بأن الصحيح آحاد ومتواتر؟!..فلو قيل بأن السنة غير واجبة قُلنا فلما قلتم بتحريم لحوم الحُمر الأهلية وكل ذي ناب رغم أن التحريم لم يثبت بالتواتر، وهل التحريم يكون تشريعاً أم لا؟...سنجد أننا أمام منطق يفرض أن يكون الخبر الصحيح هو مصدر تشريع بالعموم، وهو منطق لفظي سيتعارض حتماً إما مع مقاصد الشرع وإما مع العقل الذي يُصدّق ويُجزم بهذا الشرع.

من الأخطاء المشهورة عند البعض أن يُثبت التواتر بمجرد تعدد طُرق الحديث فيعدها واحدة واحدة..حتى إذا بلغت عدداً -أوقفه أحد العلماء لثبوت التواتر- اعتد بما لديه متواترا..وهذا منطق جنوني في الإثبات، إذا كان لذلك أن المتواتر يصدق روايةً قبل العلم الضروري!.. فقد يعلم

الواحد ويروي فينقل عنه الكثير، فكان معاصري الواحد لا يعلمون وبالتالي لا يثبت التواتر، كون الخبر المتواتر يلزمه نقل جماعة عن جماعة في كافة طبقات السند..وهو ما فسّره الإمام أبي حامد الغزالي في المستصفى بقوله..(عدد المخبرين ينقسم إلى ما هو ناقص فلا يفيد العلم وإلى ما هو كامل وهو الذي يفيد العلم وإلى زائد وهو الذي يحصل العلم ببعضه وتقع الزيادة فضلا عن الكفاية والكامل وهو أقل عدد يورث العلم ليس معلوما لنا لكنا بحصول العلم الضروري نتبين كمال العدد لا أنا بكمال العدد نستدل على حصول العلم)..] ج1ص254[...والكامل عند الغزالي يعني به الخبر المتواتر، وأن مجرد العلم بالعدد ينفي شرط التواتر، وكأن الشرط هنا يراعي حالتي الشيوع الفكرية والوراثية على حدٍ سواء..فأصبحت الشروط تُراعي أهمية إثبات تواتر الخبر لِما سينبني عليه من أحكام قطعية.

إن مسألة عدم العلم بعدد الطُرق هي مسألة بالغة في الأهمية، وهي مدار مُعظم الخلاف حول ثبوت المتواتر، إذ كان البُنيان العقلي والوجداني للإنسان هو الحَكَم في تصديق الأخبار، كذلك كنزع الأهواء في الميل والانحياز، جميعها قرائن نفسية قد يختلف بها العدد في طبقات السند..وفسّر ذلك الغزالي بقوله..(أن العدد يجوز أن يختلف بالوقائع وبالأشخاص، فرب شخصٍ انغرس في نفسه أخلاق تميل به إلى سرعة التصديق ببعض الأشياء.. فيقوم ذلك مقام القرائن وتقوم تلك القرائن مقام خبر بعض المخبرين)..]المستصفىج1 ص[258...وهو ما يعني أنه ليس بمجرد نقل الجمع عن الجمع يكون العلم بالخبر،فيجب أن تكون قرائن دالة على ثبات العدد بالثَبَات النفسي والضبط العقلي للراوي..وحسب

مذهب الغزالي في تصور المتواتر عامة تكون قضية تحقيقه وإثباته مسألة في غاية الصعوبة ولكنها ليست مستحيلة، وطرحها للتدليل على أن الخلفية العلمية للمحقق والمُحدّث ينبغي أن تراعي مثل هذه الأشياء في إثبات المتواتر.

كذلك –وكما التعريف- أن الخبر المتواتر يجب أن يكون مسموعاً ومحسوساً من الراوي، وأنه ليس مجرد تخمينات أو تأويلات تُفسر الحَدَث، فلا دور للراوي هنا سوى نقل ما سمعه أو شاهده رأي العين..فالتخمين والتأويل من الراوي يعني خروج الخبر من مرتبة التشريع إلى مرتبة الحكاية والتفسير، بينما لا مُشرّع في الدين سوى الله ورسوله.

كذلك وأن أصحاب الفِرق والمذاهب لا يروون عن .."المبتدعة"..والجواب أنه لا يُسلّم لهم ما ذهبوا، لأن الخبر يعني إخبار بما حدث في مكان، فإذا قُتِل فُلان عند المبتدعة ونقلوا خبر قتله فيجب التصديق، ومن يذهب مسلك الفرز العقائدي في الرواة يغلب على أخباره الانحياز والكذب..وفي تقديري أن مذاهب السنة والشيعة تُعاني من هذه الآفة إجمالاً..فالمذهبان لا يعتدّان -في الغالب- برواة الآخر منهم، وبالتالي كانت أخبارهم وآثارهم محل شك، كونها صدرت من نفسٍ مُنحازة ولا تعرف سوى لغة المذاهب والبِدع، بينما الأخبار لا تعرف سوى لغة الصدق والكذب...فإذا قيل أن المبتدع يكذب لنُصرة بدعته فثبوت الكذب في حقه يحرمه من التوثيق، فرؤيته من جانب ما يقول ويزعم وليس بما يدين ويسلك.. هذا شئ آخر لا يخص العملية

الإخبارية، علاوة على كون المبتدع يرى الآخر مبتدعاً، فإذا سار على هذا المعيار كان وخصمه لا ينقلان إلا عن أخيه في المذهب- وإن كان كاذبا- فانتُفيَ معيار الصدق فيشيع الكذب.

يجب حين البحث في التواتر أن يكون الباحث متجرد من الانحياز، إذ وأثناء البحث يُحتمل ميله دون تحقيق فيقع في الغلط، كمثال من يخلط بين المتواتر والمشهور ، فيقول بأنه لولا أن كان متواتراً لم يكن مشهورا ..وهذا خطأ، أولاً لأن شرط التواتر أن يكون الجمع عن الجمع في كافة طبقات السند، والمشهور قد يرويه جمعاً عن واحد فينقلونه للناس فيشيع ويشتهر، وفي ذلك أمثلة عديدة كحديث افترقت الأمة وخير الناس قرني وفتنة الدجال وعذاب القبر والمهدي ونزول المسيح جميعها آحاد وظنها الناس متواترة، كذلك في خبر التروايح عن ابن شهاب عن عروة..فيقوم الناس بالترديد فتشتهر فيحصل شرط التواتر ولكن من السند المتأخر وهذا لا يُحقق شرط التواتر، فالإنسان قد يسمع الخبر ويُصدقه بمجرد أن له أساس سابق عنده، وبتصديقه يختلط الخبر الجديد مع القَناعة القديمة فتُصبح رأياً أو فكراً أو عقيدة، وهذا حدث تقريباً في كافة ما وصل إلينا من خبر الرسول الذي ظهر بعد ذلك مكذوبيته.

الخبر المتواتر لا يعرفه العامة، ولا يعرفه ولا يبحث فيه سوى العلماء وطلبة العلم، بينما ينشرون بين الناس أن الأحاديث إما صحيحة أو ضعيفة، فيقولون عن فلان عن فلان قال رسول الله فيصدق قولهم بأن الرسول قد قال...وهذا تجنٍ واعتداءٍ آثم على الرسول بنسبة قول له بمجرد الظن، فإذا حدثت هذه النسبة يجب أن يُوضح الفقيه ظنية هذا

الخبر وشرح مفهوم الظنية وما ينتج عنه في الشرع، سوى ذلك فحرام أن ينسب خبراً إلى الرسول بلُغة الجزم إلا إذا كان متواترا ، فإذا لم يتواتر يُقال أنه صحيح ولكنه آحاد، والآحاد ظني الثبوت ولا يحتج به جمهور الفقهاء في العقائد، ذلك لأن العقائد واجبة التصديق، وعليه كان خبرها قاطعاً للثبوت كشرط أصيل للاعتقاد..

في تقديري أن أكثر مشاكلنا .."الدينية والمذهبية"..في المنطقة العربية لا تخلو من آثار الخلط الهمجي بين الخبر الصحيح ..(المتواتر والآحاد).. وأن انتشار خبر الواحد أصبح يعادل مرتبة القرآن في التصديق والجزم..فيُقال أنه صحيح وكفى فيُصدقه الناس ويرهب في رده العلماء، وينتوي الاجتهاد كل حاذق ومُجتهد فيرى عقلاً عامياً لدى الفقيه..يخشى هو الآخر ردود أفعال الناس فيصمت، أو يُجادل لإثباته انتصاراً إما لدينه أو مذهبه أو حِزبه..رغم أن هذه الأشياء ليست بحاجة إلى الكذب للثبوت، ولكن الإنسان يقنع بالحُجة، ولو أن خصوم الفقهاء والمقلدين ممن كانوا من الأشقياء لكان الرأي العام مع الدفاع عن الرسول ضد من ينتهكون عصمته وينسبون له أشياء تُحِطّ من قدره بل وتعتدي على الملائكة والأنبياء..بل ووصل الأمر بهم للتعدي على الذات الإلهية فقط بمجرد أنها وُردت في أحاديث يظنها البعض تشريعاً وهي في الحقيقة ليست كذلك ولن تكون.

رسالة في الإعلام

المال والإعلام وجهان لعُملة واحدة..فأينما وجدت المال وجدت الإعلام..وأينما وجدت الإعلام فاعلم أن المال ليس بعيدا.. لا يوجد إعلاماً ينقل الحقيقة كاملة في هذا الوقت ،تقريباً جميع الوسائل الإعلامية الموجودة حاليا لا تعمل إلا لصالح أصحابها أو من يقف بجوارها سواءً كان شخصا أو تيارا أو دولة..لذلك فمن يبغي الحقيقة لن يقف علي مصدراً إعلاميا واحداً عسي أن يفلت من بين براثنه وأنيابه..وسوف يبحث عن ضالته في تعدد المصادر الإعلامية..وإن كان علي شكل الرأي والرأي الآخر..فكم من الأشخاص والتيارات والفئات والشعوب التي ظُلمت عمدا مع سبق الإصرار والترصد..فقط كونهم يفتقدون للآلة الإعلامية التي تمكنهم من الذود عن أنفسهم..

الوظيفة الأصلية للإعلام ليست في النقل أو التحرير أكثر من كونه أداة تثقيف وتنوير مجتمعية تنهض بالشعوب من ظلام الجمود إلي نور الانطلاق..نحسب أن هناك جهات إعلامية تلتزم بهذه القيمة قدر استطاعتها..ومع ذلك نحسب أن الأغلبية لا تلتزم وتستعمل تلك القوة الجبارة-الإعلام- لخدمة شخوص أو جهات قد يُشكّلون حلقات متصلة لهدم الروح والمجتمع بإعلاء نزعات متفق عليها من قبل..فوظيفة الإعلام المضلل ليست موجهة أصلا إلي العقل بل إلي الحواس ..لأن العقل سينتبه إلي تلك الوظيفة القذرة ويكشفها-وقد حدث ذلك عدة مرات- بينما الحاسة غير قادرة علي التمييز إذا ما كانت المادة المعلوماتية مُخاطبة للأيدولوجيا كمرجعية تُسيطر علي القلب .

في هذه الأثناء تحاول بعض شعوب العالم العربي اللحاق بالركب الديمقراطي..تلك القيمة التي كافحت من أجلها الشعوب لتبتسم قليلا من سلطان الاستبداد..وفي ظل هذا الجو الموسوم بالحماسة رأيت من ينادي بالديمقراطية كقيمة عليا مطلقة دون مراعاة للظرف العالمي والإقليمي والوطني.. ويعني ذلك انتقال العالم من عصر السياسة والعلاقات العامة إلي عصر أقل ما يقُال عنه أنه عصراً إعلامياً بامتياز، ومع هذه المرتبة التي نالها فقد أصبح هو المؤثر الأول على السياسة والعلاقات بالعموم..هذا المؤثر الذي حذّر منه الدكتور عبدالوهاب المسيري من قبل وحذر من تغوله وسطوته وقسوته وقضائه علي أعظم ما يملكه الإنسان وهي حياته الخاصة..أصبح الإنسان في عصر الإعلام مسلوب الهوية والإرادة..تحركه أدوات إعلامية تنقل الحقيقة "المزيفة" أملا في التوجيه والكسب..

ولكن إذا كانت الديمقراطية تقضي علي الدكتاتورية فالإعلام أصبح هو دكتاتور العصر..الفارق أن الدكتاتورية التي تثور ضدها الشعوب في الغالب ما تكون أشبه بالمركزية..تتجمع كافة السلطات النافذة في مؤسسة وحيدة..أما الإعلام فدكتاتوريته لامركزية تتشعب أذرعه كالإخطبوط يسلك فيه مقام القوة الناعمة فيسلب أول ما يسلب الوعي والإدراك..ومن ثم ينتقل للمرحلة التالية وهي التوجيه والحشد..هذا هو دور الإعلام في العصر الحديث..لم يكن الإعلام يوماً يؤدي رسالته الخالدة وهي تربية وتثقيف وتنوير الشعوب..كان في الغالب يسلك عدة طُرق أقرب لرؤية السلطان..فإذا كانت الديمقراطية -التي قضي من أجلها الناس واستشهد لأجلها مئات الألوف بل الملايين كما حدث في العراق-لم تعالج هذا

الخلل الذي أصبح فيروسا يتمدد ويصعب السيطرة عليه..فهل ستكون تلك القيمة أهلا لتحقيق العدالة والنهضة أم ستسفر عن دكتاتورية لا مركزية عبر ذلك الإخطبوط التي سلكت أذرعه كافة خلايا العقل والدماغ.

في العادة يُجهد الإعلام نفسه في توصيل ما يراه حقيقة إلي الناس..ولكن هل تلك الحقيقة موافقة للفكر وللواقع وهل نتائجها تتفق مع مقدماتها؟..في الواقع لا أرى ذلك..فالواقع العربي يشهد -في هذه الأثناء- تغولاً للرأسمالية الطُفيلية-على حد تعبير د.مراد وهبة-..حتى أصبحت مرادفاً للديمقراطية.. نشأ عنها هاجس من لم يتبنى الديمقراطية بشكلها الغربي فهو ليس بديمقراطي..رأينا ذلك بوضوح في انتخابات روسيا الماضية وتلك الهالة الإعلامية الأوربية لتشويه خصمهم وخصم أوروبا اللدود فلاديمير بوتين.. رغم أن الانتخابات الروسية تجري بنظام ديمقراطي تعددي..فنحن إذاً أمام نظرة قُطبية استثنائية ترى أن الديمقراطية هي حُلم الشعوب وتسوق لها الدعاوى المغلفة والبراقة..في حين تتمدد أذرعها الإعلامية لغرس ثقافتهم والعمل علي نشرها داخل تلك الشعوب التوّاقة...

في تقديري أن هذه الأذرع الإعلامية هي الخطر القادم الذي يتهدد العالم..هذا إذا لم يتوصل العالم إلى رؤيتين نظرية وعملية تكفي للشعوب استقلالها وحيويتها بعيدا عن تلك النزعة التوجيهية..فلا أمل في نظام نهضوي إلا باستقلاله..فإن أبى النظام –شعباً وحكومة- أن لا يسري في سبيل الاستقلال فالذوبان الشامل هو البديل..أخطأ من يظن أن الإعلام يُمكن السيطرة عليه بقرار سيادي..فالنفس البشرية تتوق دوماً إلي الحقيقة وتبحث عنها بين ركام الحوادث والمؤثرات..والبديل الأصلح هو التوعية

بضرورة وأهمية تنوع المصادر الإعلامية لئلا يقع الإنسان فريسة لذلك الإخطبوط..فلسفة التنوع ذاتها بحاجة إلي رشد ينقلها من النمطية إلي النوعية..تلك النوعية التي تضمن وجود حالة للتثاقف بين الشعوب..بمعني أنه يجب علي كل فرد يريد الإفلات من مصيدة ذلك الإخطبوط أن يُنوّع من مصادره الإعلامية بمُختلف توجهاتها السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية..وأن يكن حريصا أن لا يجعل لمصدرٍ إعلامي -مهما كان وزنه- - أن يجعله مقدساً محروماً من النقد أو المراجعة..

عندما قال سيجموند فرويد أننا لسنا أسيادا لأنفسنا وأننا مدفوعون بالرغبات والمخاوف والاعتقادات والصراعات والعواطف والذكريات التي لا نكون على وعيٍ بها..قرأت لمحة تعبير عن نزعة إنسانية يصعب السيطرة عليها..فلا أيدلوجيا ولا دين بعد اليوم..بل سنُطوّع الدين والأيدولوجيا لرغباتنا..ستستحكم فينا نزعة الإقصاء بحُجة الحقيقة.. التي لا حقيقة مطلقة في الوجود إلا الله..سهل علينا تمرير رغباتنا في لحظة ضعف..لماذا لا نقف وقفة تأمل الرقيب والحسيب..ألم يأمرنا الله بمحاسبة أنفسنا؟..أم المحاسبة وقت الضعف وما أن نتملك القوة فلا حسيب علينا نحن الملائكة؟!..

قيل أن من يعتقد في رأيه الصواب دائما هو مجنون..فلا رأي دائم هو صائب..وكذب من زعم معرفته بسائر الأشياء والعلوم..لكلٍ رجاله ومجاله..فلمّا كان التخصص عزيز انتشر الجهل..من هنا دخل الإخطبوط ونشر أذرعه بين مسالك العقل والحواس..هي مظاهر القوة الناعمة التي

استخدمها النفعيون بفلسفتهم القذرة..أكره تسليم عقلي لحواسي...لا أفكر إلا من عقلي..قرأ رينيه ديكارت وأبي حامد الغزالي تلك الحقيقة ..وقفا علي أن الحقيقة غالبا ما تكون دون الواقع فالحواس تخدعنا وتُبدّل إلينا الواقع..لذلك يختلف الناس حول الموضوع..وحول الشخص.. وحول المسألة..وكل جانب يري في نفسه الحقيقة...

هل نستسلم للطمس؟؟!..لابد من رصده أولا..ولو عجزنا عن رصده فسيطمسنا الإخطبوط..سنذوب في هوية الغير..فلسفاتنا الاجتماعية والدينية والثقافية كلها ستزول..الخطر مُحدق..هي مسألة وقت..شُعاع من نور..بارقة أمل..هو الاستقلال......أتساءل..هل نحن أقوياء؟..نعم نحن أقوياء..ولكن من نحن؟!!..هل نحن المسلمون أم غير المسلمون؟.. هل نحن العرب أم العجم؟ ..هل نحن السنة أم الشيعة؟ ..هل نحن الإسلاميون أم العلمانيون؟..كلنا أقوياء..بثقافتنا بأدياننا بمذاهبنا بإرادتنا..لو أردنا الاستقلال سنظفر به..دائماً حين نود الانتهاض لابد من معايير نقف عليها ونرتكز..ننطلق منها ونتقدم..لا يمكن لعقولنا أن تُبدع من لا شئ..لابد من مرجعية..

مسألة غريبة أن يُجمع البشر علي صحة مشهد ثم يكتشفوا أنهم كانوا مخدوعين..هذا ما يفعله الإعلام..التأثير علي الحواس..فالعقل ذاته لا يُحيل خطأ النتيجة ولو أجمع البشر علي صحتها..ولكن تلك الحاسة لا تحيلها وتظل في دائرة القبول إلي أن يظهر العكس..ولكن بعد متي ..بعد أن يخسر الإنسان بتضحيته من أجل لا شئ..فيقاوم النتيجة ويفشل..لا يدري أن التضحية تركت رواسب لدي الإنسان قد تزول وقد لا تزول

وهنا المرحلة الأخطر..التسامح في الدماء..أكثر ما يتهاون فيه الإخطبوط هو دماء البشر..

بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين مفرقا فيه بين الصالح والطالح..رغم أنهما اجتهدا لتحصيل رضا الرب..منهم من اجتهد بإخلاص والآخر اجتهد ليُرضي نفسه وذاته..كيانه لا يرضي عليه دخيل حتى لو كان الإخلاص..ولو أخلص لما ترك حواسه فريسة للإخطبوط..هو معاند للحق ولكنه هو الحق ..مجنون..يظن أن الحق في ذاته ويطمئن أن كل من اجتمع علي رأيه شركاء في نفس المصير..جاهل بحكمة الرب..أن خلق الله التدافع بين الناس..."ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدّمت صوامع"..حكمة الرب مانعة للفساد ولو كان الفساد باسم الدين...

أين مركز الإخطبوط من تلك الحكمة؟..ينقلون الرأي ولادعائهم الحياد ينقلون الآخر..ولكنهم يجهلون طبيعة أنفسهم..أنهم هم الهوى وتابعيه..ولا رأي موضوعي البتة-حتى رأيي-ظنوا أن حيادهم تنازل..وكأن عقل الناس أصبح مملوكاً لهم..فلم يجتهدوا وقصّروا في واجبهم حتى سقطت العقول وانداحت لهم الأرض علواً وكبرياءا..فليسعدوا بالاكتفاء وإنه لبداية السقوط..فحينما يهرب الحُلم يأتي الفشل..فرضنا الحياد في البعض..ولكن الأغلب ليسوا كذلك..هم موجهون ومؤدلجون علي نتيجة واحدة..هذا طيب وهذا شرير..حتى غرسوا الكراهية بين الناس..رغم كون الإنسان في ذاته مسالماً ولا يرضي بالخِلاف ولا بالشّقاق ولا بالحرب ولا بالفتنة ولا تطيب نفسه إلا بعِطر الكلام وجميل الفِعال..لابد

أن تُنقل الصورة كاملة لئلا ننصر أنفسنا ونهزم الآخر..وقتها ستُهزم الإنسانية وستُضرب الأخلاق وعنها ستموت القدوة..

من منا لا يعلم بقرة أفلاطون؟..هي بقرة افتراضية صنعها أفلاطون في مخيلته وادعي لجوء ثلاثة من العُميان إليها فأمسك الأول بحافرها والثاني بقرنها والثالث بذنبها..وفي حين يحاول كل فرد منهم أن يعرف ما أمسكه غفلوا عن القضية الرئيسة التي هم بصددها..أنهم يمسكون جميعا مخلوقاً واحدا ..مثال كثيراً ما يُضرب به المثل عن إغفال الشعوب لقضاياهم الرئيسية ويتشبثون كلُ في نهجهِ ورؤيته ..فيما يُعرف بتقديم المصلحة الخاصة عن العامة...هذه مشكلة ولا مشكلة دون سبب أو عوامل مساعدة لنموها..والإعلام كونه عامل رئيسي في التواصل وطرح المعلومة لا يمكن تبرئته قبل إدانته..ولكن قبل أن نبحث في الإدانة أو التبرئة علينا أولاً إثبات أنه متهم..

أساس التفكير ينبع من العقل..ولا عملية تفكير دون وجود معلومة تساعد العقل علي التصور فيما يُعرف بإدراك الأشياء..هكذا نبدو أن عملية التفكير مرتبطة بالحواس ولكن الأصل فيها هو العقل..وطالما كانت الحواس مقيدة وفاقدة لوظيفتها بدون وصول المعلومة إليها فلا يُمكن تكوين رأي أو قرار دون إخضاعه للمؤثر..فالمؤثر هنا هو الواقع الخارجي -وسيط ومصدر المعلومة-والأثر هنا هو الحاسة وحالتها والقرار المبني عليها صحة لمسها للأشياء...إذن فنستنتج من هذا أن الواقع الخارجي -بمصدر المعلومة ووسائط نقلها -هو المُرجح لتكوين رأي وقرار للإنسان، وبما أن المعلومة –لذاتها- بحاجة إلى مصدر

ووسيط ينقلها إلي حواس الإنسان فالمصدر الوسيط كلاهما متهمان..المصدر هو الإعلام والوسيط هو الحالة الثقافية والتوعوية للشعوب..

ولكن أيهما سابقُ ولاحق..بديهيا فالحالة الثقافية والتوعوية للشعوب أسيرة للمعلومة ومصدرها..أي الإعلام..والإعلام مفهوم شامل لا يختص بمظروفية زمانية أو مكانية..حتى أن الإعلام في الماضي كان له دورُ في حشد الناس ، وأحيانا ما يرتبط بسلوك فضائحي أو تقييد الشعب لرغبة السلطان أو ذوي النفوذ..وكأن عاملي السلطة والمال كانا دائما هما المالكان للإعلام فيوجهانه حسب مصالحهم دون النظر لمصالح الآخرين...لذلك ففي تقديري أن أكثر العوامل المُهددة للشعوب وبقائها هو الإعلام..فالتهديد لم يَطَل حاجز الوفاق الوطني فحسب إنما تجاوزه إلي حاجز أكثر تطرفاً وخطورة وهو حاجز البقاء..الشعوب جائز عليها وفاقا بإعلام ولكنه وفاق مشروط حسب رغبته هو..وبما أنه أسيرُ لرغبة ذوي السلطة والمال فلا يمكن تحييد الصراع السياسي والاقتصادي عن مشكلة تجذر الإستقطابات بأنواعها طائفية كانت أو سياسية..فكرية كانت أو أيدلوجية..ومن هنا ينشأ الصراع...

أتذكر جيداً تعقيب .."وضّاح خُنفر".. مدير عام قناة الجزيرة السابق علي نشر موقع ويكيليكس لبرقية تتحدث عن لقاء جمعه ومسئول استخباراتي أمريكي..فقد نفي خنفر ما ادعته ويكيلكس من استجابة للضغط الأمريكي بعدم نشر محتوي استخباراتي أمريكي..أعقبه بتعقيب بسيط وكأنه توضيح لما جري..قال أن الذي حدث هو إشكال بسيط مع المخابرات

الأمريكية عن قيام القناة علي إعداد برومو"إعلان" يعرض فيه صور بعض ضحايا الحرب العراقية وفي خلفيتها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش..وأثناء العرض يتم عرض موسيقي حزينة..إلي هنا قد لا يلحظ أحد خُبث ذلك الإخطبوط الإعلامي وكأن هذا البرومو هو إعلان عادي غير مؤثر..

في تقديري أن هذا البرومو هو عبارة عن تجميع لفلسفة عميقة تستهدف الوعي والشعور بالأساس....ولا علاقة له بالمصداقية أكثر من الحشد والتجييش..فالصورة التي ستنطبع في الذهن -من أثر البرومو- هي إدانة للرئيس بوش وتحميله تلك الجرائم المعروضة..وبالموسيقي الحزينة التي تخاطب الوجدان تقضي علي أي عامل مقاوم لتلك العملية التي تستهدف بالأصل وعي الإنسان وإدراكه...فإذا كانت الجزيرة استجابت للضغط الأمريكي ومنعت إذاعة البرومو..في حين نري الآن عشرات وربما مئات من تلك الإعلانات الدعائية التي تتخلل الفواصل في محاولة لسلب وعي المشاهد ووضعه في حالة انتباه تمهيدا لتوجيهه..ذلك أشبه بما يكون النائم من أثر التنويم المغناطيسي..فلماذا تقف الحالة الإعلامية التحشيدية علي الدعاية أكثر من المصداقية وإلا لرفض الإستجابة للضغوط..؟

سيقول قائل ولماذا لا علاقة لها بالمصداقية؟..أقول أن المصداقية تعني الحقيقة..ولا مصداقية مع حقيقة منقوصة..والمشهود للإعلام الخليجي وخاصة قناتي الجزيرة والعربية أنهما يستخدمان نفس الأسلوب في التجييش والتعبئة النفسية والروحية ضد طرف ما..في حين يتغاضون بشكل متعمد عن جرائم الطرف الآخر والذي لا يقل وحشية ..أيضا وكما

يتبنيان خطابا ثورياً في بلاد معينة نجدهم يعادون نفس الخطاب في بلاد وضد شعوب أخري..مما يُخرج الفِعل من سياقه الإصلاحي إلي سياق آخر أكثر براجماتية ملئ بالديماغوجية التي أصبحت هي الأخرى وسيلة حصرية لرفع مستوي التأهب الشعبي..ولا يقل الإعلام الإيراني عن الخليجي في مقدار هذا السوء فتكون النتيجة حشداً مذهبياً وطائفياً يصعب السيطرة عليه أو التحكم في أدواته واحتمالاته.

ربما كان من حسنات الإعلام أن يكون هناك تحصيناً للشعوب بالمعلومات، أي بالحرص على إدراك البشر لما يجري-حقيقةً-في هذا العالَم، وقد كانت في الماضي مهمة ليست سهلة، وفي الأعم الأغلب كان يحارب هذا التوجه كل ذوي السُلطان، فبمجرد شعور الجمهور بما يحدث حقيقة..فيعني أن عرش السلطان على المحك، كون الشر لازم لإدراك الجمهور فشل وقصور أو تقصير الحاكم، وعليه يكون التعاطف معه أو الدعاء له من على المنابر محل شك، كذلك في تعدد صنوف الإعلام من مرئي إلى مسموع إلى الكتروني إلى مقروء..وخاصة الالكتروني أتاح للفقراء والمعدومين التعبير عن آرائهم والظهور بأنفسهم وكيانهم المنسي في ضمير العالم، فلم يعد المال وحده شرطاً لبلوغ المعلومة، بل يمكن الاستغناء عنه لصالح الجُهد والإرادة، حينها ينتقل الإنسان إلى عالم جديد تتشكل بعض ملامحه في هذا العصر.

رسالة في السياسة

السياسة -كما أراها- هي علاقة الإنسان بنفسه وبالناس، أي أن لها وجهاً سلوكياً أصيلاً يُخرجها من معناها القيادي والإداري الشائع إلى معنىً آخر أكثر تضمينا...فشيوع معنى القيادة هذا قد أعطى راغبي السُلطة والظهور الفُرصة للممارسة السياسية والتملّق بها للصعود، وبالتالي كانت أكبر الإشكاليات التي تواجه السياسة هي حقيقة علاقتها بالدين كون الدين يتضمن سلوكاً إدارياً يضبط المجتمع ويجعل من دور الفرد دوراً إرشادياً وتوجيهيا، لذلك رأينا أن أغلب من تدينوا نظروا للممارسة السياسية من المنظور الديني ، فطلبوا السُلطة وسعوا إليها استناداً إلى شيوع معناها الإداري والقيادي، فالمتدين- حينها- يربط ما بين ملاحظته عن السياسة وكونها عملية إدارية إصلاحية وبين تجربته للدين وكونه قائماً على إصلاح النفس والغير، وبالتالي صنع فرضيات لديه لتفسير العلاقة بين مُلاحظته وتجربته فكان اختراع نظريات سياسية عدة جرى وصمها بالنظرية الدينية السياسية.

هنا سنبحث عن حقيقة وجود هذه النظرية، أي أن السؤال المحوري اليوم.."هل توجد نظرية سياسية في الإسلام ؟"..أم أن سلوكيات القوم هي سلوكيات شخصية مسئولة وغير مسئولة جرى طبعها بالطابع الديني من أجل الحِفظ والترويج ؟..سؤال سنجيب عنه بإذن الله،والهدف منه التوصل إلى حقيقة كون الدين الإسلامي هل هو دين بالمعنى السلوكي بين العبد وربه والناس، أما هو سياسة بالمعنى القيادي السلطوي؟..أم كلاهما معاً؟..وهل كان السلف في مُجملهم يؤمنون بأن للدين نظرية سياسية أم كان هناك خِلاف؟..وعلى أي قواعد كانوا يختلفون؟..فالفرضيات التي يضعها أولئك الساعين إلى السُلطة لا تكفي لإنتاج نظرية سياسية دينية

على الإطلاق، هذا إذا ما استطعنا تنقية أعمالهم وفرزها مما شابها من السقوط الفكري والأخلاقي.

إن القول بإمكانية وجود نظرية سياسية في الإسلام يعني أن هناك نظرية تفسر الدين الإسلامي عبارة عن آراء وفرضيات تبحث في العلاقة بين الشخص وموضوع أعماله، بمعنى تكوين فكرة توضيحية تربط ما بين الاعتقاد الديني والسلوك السياسي من جهة ، وما بين الدين والدولة من جهة أخرى، فتخرج لنا فكرة متكاملة تصلح لأن تكون مرجعاً لمجتمع سياسي ودولة في آنٍ واحد.

ووجود مثل هذه النظرية في الدين ليس بمُحال، ولكنه ممكن مع تعدد المجتمعات وتنوعها، فمنهم من يقبل بالنظرية ويشرع في تكوينها ولكنه يصطدم- أول ما يصطدم -في مفاهيم العصر وإنسان ما بعد الحداثة فيفشل، ومنهم من لا يقبل ذلك اتساقاً مع أعرافه أو إمكانية تواصله مع العالم الخارجي، ولكن لو تحققت لديه فلن تُتيح –حينها- التواصل والانفتاح لقيامها في مساحة جُغرافية وفكرية ضيقة، بينما الإسلام أكبر من الجغرافيا والفكر معاً، وعليه فالنظرية التي نسأل عنها هي نظرية شاملة ومتكاملة تُجيب على كافة الاستفسارات والسؤالات التي تتعرض لمفاهيم .."عصرية".. مثل مفاهيم..(السلطة –الدولة-الدين-السياسة-الإنسان المُعاصر)..فالوقوف على حقائق هذه المفاهيم سيُسهّل كثيراً إمكانية التواصل وتقليل الفجوة بين الأحزاب على تنوعها وتعددها.

ونظراً لأنهم يضعون المعيار لأفكارهم عن السياسة هو دولة الراشدين فسنبحث في حقيقة نشوء هذه الدولة، كذلك في الأجواء التي شابت أول عملية سياسية بعد وفاة الرسول عليه السلام..والسبب أن الربط بين الفكر والواقع ضروري لتفسير الدين، فإذا ما قلنا أن أفعال السلف تُمثل في حقيقتها الحِكمة والقُدوة يكون الجواب ما هي أفعال السلف أولاً كي نستطيع تفسير وفهم ما حدث في نطاق الدين، وهل العمل يتعارض مع النص أم يتفق، وإذا اتفق هل حقق مقاصد الإسلام العليا أم لم يُحقق؟.. فإذا لم يُحقق.. كان فهم النص من بدايته خطأ وبحاجة لمُراجعة تنقله من سياق النص المكتوب إلى سياق الفعل المُشاهَد.

تبدأ القصة من اجتماع المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة للاتفاق على خليفة رسول الله بعد وفاته وانشغال الإمام علي وعمّه العباس بن عبدالمطلب في دفنه..حينها بايع الأنصار الصحابي.."سعد بن عبادة"..خليفة لرسول الله..ولكن اعترض المهاجرين وكان منهم سيدنا أبي بكر فقال بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء فاعترض الصحابي .."حُباب بن المُنذر".. على ذلك وقال بل منا أمير ومنكم أمير، أي أن دولة الرسول تكون بالمناصفة بين المهاجرين والأنصار، ولكن أصر أبي بكر على موقفه، وهذا يعني أن سيدنا أبي بكر كان يرى الخلافة في قريش والوزارة في الأنصار في يثرب، وقام بمبايعة سيدنا عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، ولكن رفض عمر ذلك وقام بمبايعة أبي بكر ووافقه الحضور في تلك المبايعة، وبعدها تم انتخاب سيدنا أبي بكر خليفة لرسول الله..

هذا مُجمل ما حدث في السقيفة وهو مُعترف به من كافة المذاهب ومدوّن في صحيح البخاري وفي أغلب كُتب التاريخ، ومع ذلك فهو نقطة خلافية من أُثر سلوك سيدنا عمر في مبايعة أبي بكر في غياب آل بيت رسول الله، مما حمل البعض في التشكيك في صحة مبايعة سيدنا أبي بكر خليفة..ولن نتعرض لمثل هذه التشكيكات ليقيننا التام بأن الإشكالية السياسية الكُبرى التي تواجه المسلمين الآن ليست في من هو أحق بالخلافة، هل سيدنا أبي بكر أم سيدنا سعد بن عبادة أم سيدنا علي بن أبي طالب أم من؟..بل تكمن الإشكالية في السؤال الأبرز هل في الإسلام نظرية سياسية يُمكن أن تكون قاعدة ومرجعية يُفترض العودة إليها لتكوين رأي سياسي ، أم أن الرأي السياسي ينبع من تطور المجتمع وظروفه اتساقاً مع القيم والمُثُل العُليا للدين؟

نعود مرة أخرى لما حدث في السقيفة- لدراسة أبعاد الموقف.. سنرى أن انتخاب سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كخليفة للمسلمين جاء في نِطاقٍ ضيق، وتم دون رأي ومشورة أكابر قريش ومن ضمنهم بني هاشم آل بيت رسول الله، وكذلك كافة القبائل الأخرى التي دخلت الإسلام، فلا يُقال أن الإسلام كان في مكة والمدينة دون غيرهم...وعليه انحصرت فكرة "السُلطة" في بدايات تكوين دولة الراشدين في مساحة السقيفة .."جُغرافياً وفكريا"..وما دون ذلك لم يكن يعلم بما حدث فضلاً عن أن يُشارك، فلو قيل أن الحاضرين والمُبايعين كانوا الأفضل والنزول على رأيهم واجب قُلنا بأن النظرية تفرض وجود الأفضل خارج السقيفة ورأيهم ومشورتهم كانت بالأصل واجبة..نظراً لما قلناه في السابق بأن النظرية تتطلب

مساحة لا محدودة من الجُغرافيا والفكر معاً، وهذا لم يُتوفر في اجتماع السقيفة.

هذا يعني أن أولى الممارسات السياسية التي أعقبت وفاة الرسول لم تكن بناءاً على نظرية مفهومة وموحدة، بل كان تفاضلاً على معايير القُرب من الرسول والوصاية والإمامة في الصلاة وغيرها، وبمناسبة الإمامة في الصلاة فقد كانت حُجة من يضع مبايعة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه موضع النظرية..أنه أمّ المسلمين فترة مرض الرسول، وعليه فكما قيل واشتُهِر أن الرسول اختاره لديننا أفلا نختاره لدُنيانا؟..وحقيقة هذا القول أن الصحابة كانوا يرون أمر الخلافة هو أمر دنيوي بحت، وأن أمر الصلاة أمر ديني، وعليه فالصحابة كانوا يرون مسائل الحُكم والسُلطة من مسائل الدنيا، وأن الأقرب للخلافة هو من كان أقرب إلى الرسول في الدين، وهذا المعيار تم كسره بعد ذلك بانتخاب سيدنا عثمان بن عفان خليفة لسيدنا عمر بن الخطاب ولم يكن إماماً، بل المشهور أن الصحابي.."صُهيب بن سنانٍ الرومي"..كان هو إمام المسلمين بعد وفاة الفاروق، فلِما تم انتخاب سيدنا عثمان على هذا المعيار؟!

باستعراض ما حدث في السقيفة وفي مبايعة سيدنا عثمان سنرى أنه لا يُمكن الاعتداد بما حدث داخل نظرية سياسية متسقة وتتطابق مع مبادئها، فقد وضع الصحابة شرط الإمامة في الصلاة ولم ينتخبوا صهيب الرومي خليفة لسيدنا عمر وكان إماما، وانتخبوا سيدنا أبي بكر دون رأي القبائل وسادة قريش من بني هاشم، كذلك وما حدث لمرشح الأنصار سيدنا سعد بن عبادة من اختفاء تام من المشهد السياسي بعد ذلك، رغم أنه كان

مُرشحاً للخلافة وهذا يعني أن كونه مُشاركاً في السُلطة هو أمر ضروري تقتضيه رغبة إرضاء من بايعوه وأمّروه عليهم من الأنصار..ولكن كل هذا لم يحدث لظروف غير عادية أراها في تقديري هي التي أنتجت كثيراً من هذه الأخطاء التي شابت العملية السياسية ووضع الدستور في أول اختبار حقيقي للصحابة بعد وفاة المعصوم.

كان هذا الخلاف وهذه الأخطاء- التي سبق ذكرها-كانت هي البذرة التي أنتجت أولى الانشقاقات في جسد الأمة، والتي مهدت بعد ذلك لتكوين الفِرق والمذاهب، وهي مع كونها أخطاء إلا أن التعصب والقِبلية وما رافقها من ضياع لمفهوم الإسلام الحقيقي من الصدور.. قد جعلها جرائم لا تحتمل العُذر أو التأويل ،وكعادتنا في أي بحث لم ولن نلتزم برؤية أي فريق كان طرفاً في أي صراع، بل حاولنا وسنحاول أن نرى المسألة بعينٍ ناقدة تنقد نقداً ذاتياً لاستخلاص العِبَر والمفاهيم، ولرؤية الأحداث بمُنظارٍ كاشف يراها من مكانٍ مُرتفع لا يُخطئ النَظَر، فمن تعصب ضد أبي بكر وعمر لموقفهم في السقيفة كان كمن تعصب ضد عليّ في موقفه من السُلطة بعد عثمان وتشدده في إزاحة معاوية من وِلاية الشام، كلاهما يُفكر برؤية سياسية ضيقة لا تسمح بإضافة جُغرافيا أو فكر بعيداً عن ما يراه أو يشعر به.

هناك شعور مُشترك يجمع أطراف أي صراع وهو أن كلاهما يُريد أن يقضي على الآخر، ولكنهما يفترقان في شكل وحجم هذا الشعور الذي لا يُصاحبه تصوراً واضحاً لما بعد الصراع ، فالقضاء وحده ولكل حادثٍ حديث، فيرى كل فريق -حسب رؤيته للدين وللأرض وللمادة-أن عليه

إنتاج سياسة لا تشترط الوضوح والإجابة على كل الأسئلة، لأن الصراع –حينها- يكون على البقاء وليس على الرغبة.. وإذا طبّقنا هذا التصور على ما حدث في صدر دولة المسلمين الأولى سنجد أنه لم يكن ثمة نظرية أو تصور سياسي لما بعد الحرب، بل لِما بعد المبايعة أصلاً..فلم يتصور أحدهم شكل السُلطة ومؤسساتها ولا الدولة وتحدياتها ولا الإنسان الفاعل والقاسم المُشترك الذي يجمع ما بين الحِكمة العقلية والكشف الوجداني الذي يُساعده على الاختيار أو التنبؤ الصحيح.

إن عدم وجود نظرية سياسية -على الأقل تكون واضحة- في الإسلام قد أنتج لدينا شعوراً وِصائياً وتشكيكاً ضد كل مُخالف، وقد صنع لدينا هذا أجواءً من الإرهاب والإقصاء ضد كل فكرٍ ناقد اضطلع بمسئوليته نحو تحرير أفكارنا من التقليد ومن أرباب التعميم والتخدير ، كذلك ضد كل ثائرٍ على السُلطة الجائرة يظن الناس -ظناً مُسبقاً- أنه ثار لنفعٍ شخصي ولخروجٍ عن الخليفة الشرعي الذي وكّله الله على سائر البشر!..

وكذلك ضد كل من جعل الإمامةَ بالنصّ عن الرسول أو للأهلية والصَلاح بمجرد النَسَب والقُربى، وتتساوى كِلا الرؤيتين السنية والشيعية في قدر المعاناة من هذا المرض، فكلاهما لم يضطلعا بدوريهما في تشخيص حال الإنسان وحقيقة مرضه، وجعل غايته هو الدين لفهم العملية السياسية برُمتها، رغم أن ما لديه من الدين لا يكفي لبناء نظرية سياسية كاملة تُجيب على كافة الأسئلة المطروحة في كل زمانٍ ومكان...فما يعتقده السنة من وجوب الخلافة في القُرشيين لم يعد مطروحاً بعد ممارستهم لآليات الديمقراطية التي تُجيز فيها الخلافة ليس فقط لغير القُرشيين بل

للكافر..كذلك فما يعتقده الشيعة من وجوب الإمامة بالنص لم يعد مطروحا لنفس السبب..وكأن العصر الحالي وطبيعة الدولة الحديثة أفرغت مضمون كِلا المذهبين.."السني والشيعي"..من مضمونهما إلى مضمون آخر أكثر حَداثة وحضارة ويتسق مع مفهوم الإنسان الغربي عن تلك الدولة، فعملياً توجد الآن حضارة إنسانية واحدة لها تجليات مختلفة ومتعددة الأشكال في كل دولة، ولو أن الصانع والمُحرك ليس موجوداً إلا في بعض الدول، وعليه فطبيعة فهم المسلمين للسياسة لم تعد رهينة للدين وسطوته على قلوبهم ورؤيتهم لمخالفيهم، بل أصبحت رهينة لتفكير وصواب وخطأ الرجل الغربي الذي كان مذهبه السياسي الآن هو المُحرك والقادر على التوجيه في وقت يكون العرب فيه بين طرفي العودة للماضي والمحافظة على مكتسبات تلك الحضارة.

الرؤية السياسية وكما قلت في السابق وبالتحديد في مقالة.."سمو الدين وسمو السياسة"..هي مُضمنة أساساً في السلوك الديني، وهذا ما يحملني على الاعتقاد بأن الدين والسياسة واحد كسلوك، ولكنهما سيفترقان من حيثية علاقة كلٍ منهما بالدولة، فلا يجوز القول بأن الدين والدولة واحد لاختلاف الطبيعة والمفهوم، فالأول سلوك والثاني كيان مُستهلك لا يجوز عليه الدين كالسرير ورغيف الخُبز والتلفزيون وسائر المُستهلَكات، وأن الخلط كان منشأة-في الغالب-هو الخلط بين إمامة الصلاة وإمامة الدولة في أول اختبار في السقيفة فتم تقعيد نظرية دينية سياسية أخذت موقعها في وجدان العرب والمسلمين أن الإمام وإن أمّ الناس في الصلاة فقد نال ثقة الدين، وبما أن غاية الإنسان في دنياه هو الدين فالإمام في الصلاة هو الإمام في الدولة وهذا خطأ أصيل لم يراعِ أهلية إمام الصلاة لإمامة

الدولة وصدق الشاعر الكبير محمد إقبال إذ يقول.."ما الذي أدرى إمام الركعتين المسكين بالشعوب وإمامتها؟"..

والمعنى أن إقبال يضع حداً فاصلاً بين الإمامتين فكلاهما تختلف فيه الشروط وإمكانية التحقق من توفرها.. كمِثال أن إمام الصلاة يجوز عليه أن يكون براً وفاجراً لتحقيق صحة الصلاة، وهذا أمر متفق فيه بين الفقهاء، ولكن إمامة الفاجر والظالم لا تجوز ويجب الخروج عليه تحقيقاً لقوله تعالى.."قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين"..أي أن عهد الله لإمامة الناس أن لا يكون فاجراً أو ظالما، وهذا أمر يصعب التحقق منه في إمام الصلاة، كذلك في القدرات الخاصة لكِلا الإمامين فإمام الصلاة لا يُشترط فيه موهبة التواصل الاجتماعي والإنساني أو الكاريزما أو الذكاء وحُسن التقدير، بل كانت جميعها شروط رئيسة في تحقيق صفة إمام الدولة، والعكس أن إمام الدولة لا يُشترط فيه أن يُجيد قراءة القرءان أو أن يكون حافظاً له أو أن يكون على علمٍ ودراية بالعلوم الشرعية..بل جميعها كانت شروط رئيسة في تحقيق صفة إمام الصلاة.

أيضاً فالقول بوجود نظرية سياسية في الإسلام لابد وأن يراعي الفصل بين إمامة الصلاة وإمامة الدولة، كذلك في حقيقة الدولة ككيان مُستهلك لا يجوز عليه الدين، كذلك في عدم القدرة على استنباط أو استنتاج هذه النظرية من أفعال الصدر الأول للمسلمين..جميعها أدلة توضح وبجلاء أن النظرية السياسية في الدين غير موجودة على الحقيقة، وغاية ما يحدث أن ثمة توظيفاً للنصوص في الاحتكام بها لتفسير بعض الوقائع،

وعلى الأرجح تحدث أخطاء في هذه التفسيرات مما يجعل القائمين عليها يتورطون إما مع أنفسهم ودينهم وإما مع الناس، رغم أن السلوك الديني والسياسي في حقيقته واحد.. ولكن الخلط الهمجي بين الدين والدولة وشيوع الرغبة ومشاعر الدنيا على حساب الزُهد والعمل للآخرة جعل من الفرد يسعى إلى السُلطة وهو لا يدري ما عواقبها، قد يكون ما حمله على ذلك حُسن نواياه، ولكن جهله أفضى به إلى مصيرٍ مظلمٍ جعله ممن حق عليهم القول فكانوا من الظالمين وصدق من قال...ومن الجهل ما قتل.

ولتوضيح ما سبق من جوانب أخرى سأطرح نظرية السياسة عندي ويعقبها الشرح

النظرية: الدين والسياسة يسموان بذواتهما كممارسات قابلة للصحة والمرض ، فكلاهما سلوك يجتمعان في طبيعة واحدة عنوانها ..(الاعتقاد والعمل).. ويفترقان في إسقاطين عنوانهم..(المجتمع والدولة)..فالطبيعة سلوكية بنائية تكشف ماهية الاعتقاد والعمل وأهليتهم للتعايش والإصلاح...أما المجتمع والدولة فكلاهما تقدميين ويخضعان للمتغيرات الكونية -العلمية منها والنفسية- باستمرار.

الشرح: الدين هو علاقة تنظيمية بين العبد وربه يتفرع منها علاقته بنفسه وبالآخرين، لذلك فالدين يشمل علاقة العبد بربه وبنفسه وبالناس..وهي علاقة متكاملة وهي أساس الفكر والسلوك الإنساني بوجهٍ عام،أما السياسة فهي ممارسة سلوكية إدارية تنظيمية.. تخضع للدين من وجه شمولية

وتكامل العلاقة بين العبد والغير..لذلك فأنا أؤمن بأن الدين والسياسة واحد وليسا اثنان..وما يشوب هذا الفصل من أوهام هو الخلط بين مفهومي..(السياسة والدولة)..فالأول سلوك أما الثاني فهو كيان..ولنا في ذلك وقفة عند التعرض لإسقاط المجتمع والدولة..

في تقديري أن الفصل بين الدين والسياسة ضروري حين الخلط بينهم، بحيث يجري إهمال إسقاطات المجتمع والدولة..فالعقول التي تنتبه لماهية هذه الإسقاطات تكشف ماهية الدين والسياسة على حقيقتهم، أما التي لا تنتبه –وهم الأغلبية-فهي تمارس السياسة من إطلاقية الدين، وبالتالي أصبح كل معارض مشكوك في دينه من وجه أنه يعارض تلك الإطلاقية وهذه الصورة الدينية السَمِحة التي يتصورها..وهذا التصور غير صحيح، لأن المعارض- في الغالب -هو يصنع رأيه من حقوقه التي يرى الآخر أنه سَلَبها أو انتقص منها...لذلك فالآخر يراه من سلوكه..أما هو فيرى الآخر من دينه وهُنا يجري إهمال السلوك والذي هو أصل الدين والسياسة معاً.

بمعنى أوضح أن الإنسان يخلط بين الملاحظة والتجربة.. أنا الآن بإمكاني أن ألاحظ أي إنسان بأنه.."قِرد"..ولكن هل هو قرد؟!..بالتجربة أستطيع استبيان ذلك إما بالخطاب أو باللمس أو بالمراقبة..ولكن لا تكفي العين للتجربة فقد تخدعك عينك وتظن عباءة القرد هي حيواناً حقيقياً...وهذا ما قصدته بأن الفصل ضروري حين يتجاهل المرء إسقاطات المجتمع والدولة، فيعمل على مُلاحظة الآخر والحُكم عليه من تلك الملاحظة وليس من التجربة، لأن التجربة لديه حينها تعني الشك في

دينه، والعامة بالعموم وأغلب المثقفين لا يشكون، لذلك فالفصل بين الدين والسياسة لهؤلاء هو واجب للتعريف أولاً بأهمية الفصل بين السياسة والدولة..ثم بيان ماهية وطبيعة كل مفهوم على حِدا..وفي تقديري أن ضرب الأمثلة الحية من الواقع هو الطريق الأمثل لشرح هذه المفاهيم.

أما المجتمع فهو مجموع الناس التي تعيش في إطار دولة أو تنظيم أو منطقة ويحققون فيها مصالحهم وثقافتهم..أما الدولة فهي كيان إداري يُنظم حياة الناس ويعملون عن طريقه لتحقيق مصالحهم داخل إطار حدود جغرافية أو ثقافية معروفة..ومن هذه التعريفات نرى أن كلاهما كيان يعمل على تحقيق مصالح الإنسان وتنظيم شئون حياته...وأحياناً ما نرى مجتمع بدون دولة، أو دولة متعددة المجتمعات والثقافات، بل وحتى متعددة الحدود الجغرافية..وهذا ما دفع الإنسان للبحث عن مؤسسات إدارية تجمع هذه الحدود بداخلها بحيث يسهل السيطرة عليها..

هذه الكيانات مهما بلغ الخلاف حولها وحول تعريفاتها وفهمها هي كيانات غير نسبية، أي أنه لا يصلح أن تكون دولة هي دولة أخرى بل هي مُطلقة في ذاتها، لها قوانينها وحدودها الخاصة، وحين تتغير فتُصبح ذاتاً أخرى غير الأولى..ولا يجوز أن أرى مجتمعاً أو دولة بمعلومات مسبقة تنزع صفاتهما عنهم..مما يعني ذلك بأن تلك الكيانات هي كيانات ثابتة في ماهيتها وليست متغيرة، ولكنها تخضع للتغيير من حيثية عقل وسلوك الإنسان والذي هو عماد المجتمع، فيقوم الإنسان بتغيير طبيعة وشكل هذا المجتمع أو الدولة بسلوكه....ومن هذه الحيثية لابد فيها من الفصل بين الدين-كاعتقاد وسلوك-وبين هذه الدولة-ككيان إداري.

بمعنى أن سلوك الإنسان نسبي في ذاته من حيثية إدراكه وتبصّره للحقيقة، وبهذا يجوز أن يمنع حقوق غيره المتعددة، فهو لا يراها حقوق، ولكنه يراها لوازم لإدارة وتشكيل دولته، ومن هنا يفترق الدين عن الدولة، وأن الفصل واجب لئلا يمنع هذا حقوق الآخرين، وأن عمليات إدارة وتشكيل الدولة لا يجب أن تحدث بتجاوز الحقوق، بل بالفصل بين الاعتقاد الديني –ومنه السلوك-وبين الدولة ككيان جامع مانع للظُلم وراعي للمصالح ومُنظّم لشئون الجميع.

الخُلاصة: أن سمو الدين من سمو السياسة، لأن السياسة دين، والدين سياسة..ولكن بسلوك الإنسان ينزع نحو الطمع والسيطرة، ومن هذا السلوك لابد وأن يكون الاعتقاد الديني منفصل -كعقيدة وسلوك- عن أي عمليات إدارية أو تنظيمية داخل إطار الدولة..وأن لا تكون أي مؤسسات في الدولة لها الصفة الدينية لأن عملها هو بالأصل عمل بشري قابل للتطبيق الخطأ والذي قد يكون مبنياً أيضاً على الفهم الخطأ...وأن الفصل بين الدين والدولة هو واجب لحماية تعدد الثقافات التي تضمنها تعريف المجتمع والدولة، فالثقافة تتضمن الأفكار والأديان والمذاهب والأيدلوجيات جميعاً، ورعاية وتطوير هذه الثقافة يتطلب عدم تفضيل مبدأ على آخر أو فكرة على أخرى..بل يجب تضمين الجميع داخل إطار الدولة ورعاية مصالحهم.

رسالة في صلاة التراويح

تحت عنوان..(صلاة التراويح جماعة بدعة وليست سُنّة)..قرأت خبراً في جريدة البشاير المصرية، طرحت فيه الجريدة روايات في صحيح البخاري ينهى فيها الرسول عن صلاة التراويح في المسجد..وهذا خبر غريب على أسماعنا في مجتمعاتنا السنية والتي اعتادت على أداء صلاة التراويح كل عام دون إنكار، صلاة التراويح -كما هو معلوم -هي صلاة ليلية بعد عِشاء يوم رمضان، أي أنها صلاة موسمية، وقد اختلف الفقهاء في عدد ركعاتها ما بين العشر ركعات إلى الأربعين ركعة..ومن الفقهاء من قال باستحباب صلاتها في البيت ومنهم من قال باستحباب صلاتها في المسجد.

أشير قبل الخوض في هذه المسألة أنني متحفظ بالكلية عن الحديث في فضل الذكر أو صلاة النوافل والسنن...ففي تقديري أن أي صلاة هي خير، وأن الصلة بين العبد والرب تستلزم وجود روابط سواء من حيث الاعتقاد أو العمل.

ولكن ما جعلني أبحث في هذه القضية أنه وفي زماننا كثيراً ما نرى تشدداً في فضل صلاة التراويح، حتى حمل ذلك البعض إلى الاعتداد بها ضمن الواجبات الرمضانية والتي يؤثَم صاحبها بتركها، وإن كنت أَعزِ هذا الشعور إلى الغلو السلفي الذي تمدد في المجتمعات العربية مؤخراً..حتى أنني أتذكر جيداً أن صلاة التراويح منذ 20 عاماً لم يكن يُصليها إلا عدد قليل جداً في قريتي، ولم تكن ذات أهمية كما هي عليه الآن، أما اليوم فبسم الله ما شاء الله زاد العدد حتى أنك إذا صليت العِشاء

لا تجد من ينصرف من المسجد إلا القليل، والباقي يمكث لأداء التراويح..

هو سلوك في العموم يُحاكي الرغبة في الاستزادة من الفضائل والعبادات، وهي رغبة محمودة بلا شك..ولكنها لا تُصبح محمودة إذا استأسدت على الناس وأصبحت بمقام الواجب أو أقل قليلا...خاصةً إذا علمنا بأن صلاة التراويح هي من الصلوات التي تتطلب جُهداً عالياً وصبراً في المواظبة عليها...
سنبدأ البحث كالعادة باستعراض الروايات الدالة.

أولاً:الروايات في صحيح البخاري:

1-حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم وذلك في رمضان.انتهى

2- حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عروة أن عائشة أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته فأصبح

الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلوا بصلاته فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال أما بعد فإنه لم يخف علي مكانكم لكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها..قال أبو عبد الله تابعه يونس .انتهى

ثانياً:الروايات في صحيح مسلم

1- حدثني حرملة بن يحيى أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من جوف الليل فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته فأصبح الناس يتحدثون بذلك فاجتمع أكثر منهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية فصلوا بصلاته فأصبح الناس يذكرون ذلك فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة فخرج فصلوا بصلاته فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفق رجال منهم يقولون الصلاة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج لصلاة الفجر فلما قضى الفجر أقبل على الناس ثم تشهد فقال أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها.انتهى

2-حدثنا يحيى بن يحيى قال قرأت على مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في المسجد ذات ليلة فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال قد رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم قال وذلك في رمضان.انتهى

الملاحظات:

1- الرسول صلى في المسجد المجاور لحُجرات زوجاته في جوف الليل، بدليل أن السيدة عائشة-رضي الله عنها-هي التي تحكي ثم تقول وهي تصف فعل النبي.." خَرَجَ"..أي خَرج من الحُجرات.

2- النبي صلى صلاته في رمضان ، وهذا يعني أن هذه القصة كانت في السنة الثانية من الهجرة أو ما بعدها.

3-عندما شعر الرسول بالناس لم يُكمل صلاته وخرج ثم دخل بيته، وهذا يعني أن الرسول لا يريد أن يصلي أحد هذه الصلاة.

4-يُفترض وبناءً على هذا الفِعل يكون كبار الصحابة على علمٍ بصلاة التراويح، فقد ذاع الأمر بين الناس وانتشر خبر هذه الصلاة التي لم يكن يُصلّها أحد بعد.

ثالثاً:رواية مُخالفة في صحيح البخاري

-عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر نعم البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله.

ملاحظات

1-الحديث هذه المرة عن عروة عن عبدالرحمن...وكأن عروة هو الوحيد الذي كان يعلم بأمر صلاة التراويح!

2-يظهر من الحديث أن اجتماع الناس على إمامٍ واحد في التراويح لم يحدث إلا في عهد عمر، وإلا لو كان الرسول لأمر به أو استأذنه عمر.

3-يظهر أيضاً من الحديث أن عمر لم يؤدي التراويح من قبل ، فالحكاية عنه تعني عدم اشتراكه في الفِعل، وإلا لو فعل لذَكر الراوي ذلك، أو أن يُشير عمر إلى سبقه للفعل...فعمر كان الخليفة وكان في مقدوره أن يأمرهم بالإمام الواحد فور تقلده للخلافة.

4-وكذا فقد كان عمر هو الخليفة أي هو الإمام المُفترض أن يؤم الناس في كل صلاة، وتكليف الناس لأبي بن كعب يعني أن زمان الرواية لم يكن فيه الخليفة هو إمام الناس في المسجد...مما يقوّي الرأي بأن الرواية موضوعة عن عُمر.

5-على افتراض صحة الرواية فهي تعني أن صلاة التراويح صلاها المسلمون منذ عهد عمر ولم يصليها أحد في زمان الرسول وفترة أبي بكر الصديق...والسُنة هي سُنة الرسول وليست سُنّة الصحابي.

رابعاً: راوي الحديث

الحديث مداره على راوٍ واحد فقط وهو ابن شهاب الزهري وهو من نقل كافة أخبار صلاة التراويح في كافة كُتب الصحاح والمسانيد والسُنن، وهذا أمر غريب أن يصدر من فقهائنا بأن يسنوا صلاةً عن النبي بمجرد نقلها من راوٍ واحد، فلو نقلوها عن اثنان أو ثلاثة لقلنا أن في ذلك شك بأن الصحابة لم يروا فعل الرسول، ولم ينقلوا عنه في رمضان ما سنّه لأصحابه أو لنفسه..

كان الزهري أول من دون الحديث ..وكان غزير الرواية، وعلماء الحديث يكنون لهذا الرجل تقديراً مبالغ فيها، حتى أنهم يصفونه بأنه .."أبو الحديث"..وعلى فرض أنه أبو الحديث فهل كان معصوماً لا

يُخطئ؟..ففي ترجمة الرجل شعرت أن له ثقةً عمياء تصل إلى حد التنزيه..

ومع ذلك فابن شهاب مذكور في مرتبة المدلسين والمُرسلِين..(جامع التحصيل في أحكام المراسيل-الحافظ العلائي)..ولم يذكر أحد ما قاله العلائي أو تعرض له بالشرح والرد.
ليس هذا فحسب ...فقد وصفه الشافعي والدراقطني بالتدليس..(طبقات المدلسين –ابن حجر)..

في النهاية راوي الحديث مُدلّس...والتدليس قرين الكذب.

وعلى فرض أنه ثقة ثبت فهل يجوز أن أنقل سنة الرسول من راوٍ واحد دون شاهد أو متابعة واحدة؟..قد يجوز ذلك في القول أو العمل الغير مشهور، أما الصلاة في المسجد فهي أشهر عمل فعله الرسول في حياته، وعليه فنقل أخبار الصلوات عنه –وخاصةً في المسجد-يقتضي التعدد لا الإفراد.

رسالة في حديث خلق التربة

من مفارقات بعض الشيوخ أنهم رفضوا حديثاً في صحيح مسلم بمجرد وضوح تعارضه مع القرآن....والمفارقة تكمن في أنهم لم يتعرضوا لسَنَد هذا الحديث، ولم يبحثوا في أحوال الرواة..وكأنه يظهر من سلوكهم أنهم عجزوا عن تبرير هذا الحديث أو تأويله..فلجأوا إلى رفضه وعدّة من

مسموعات الحبر اليهودي الشهير كعب الأحبار ..وإليكم تفصيل ما حدث..

الرواية كما هي في صحيح مسلم:

حدثني سريج بن يونس وهارون بن عبد الله قالا حدثنا حجاج بن محمد قال قال ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال :

"أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل "

-قلت:يظهر من الحديث أن الله قد خلق السماوات والأرض وما بينهما في سبعة أيام..وليس في ستة أيام مصداقاً لقوله تعالى..(ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) ..ولن نتعرض لأقوال المُبررين الذين صححوا الحديث من اختلاف خلق آدم عن السماوات والأرض فهو قولُ هزل ..ومع هزليته نرى العديد من الفقهاء رفضوا حديث صحيح مسلم كما قلنا لعجزهم عن التبرير أو التأويل..

وسنتعرض لأقوالهم جميعاً:

1- قال البخاري في تاريخه الكبير في ترجمة أيوب بن خالد وروى إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد الأنصاري، عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله التربة يوم السبت"، وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح ا هـــ.

2- قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:

{ وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ : { خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ } فَهُوَ حَدِيثٌ مَعْلُولٌ قَدَحَ فِيهِ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ كَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ قَالَ الْبُخَارِيُّ : الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى كَعْبٍ وَقَدْ ذَكَرَ تَعْلِيلَهُ البيهقي أَيْضًا وَبَيَّنُوا أَنَّهُ غَلَطٌ لَيْسَ مِمَّا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مِمَّا أَنْكَرَ الْحُذَّاقُ عَلَى مُسْلِمٍ إخْرَاجَهُ إيَّاهُ كَمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ إخْرَاجَ أَشْيَاءَ يَسِيرَةٍ . }

3-قال ابن القيم في المنار المنيف ويشبه هذا ما وقه فيه الغلط من حديث أبي هريرة: خلق الله التربة يوم السبت، وهو في صحيح مسلم ولكن الغلط في رفعه، وإنما هو قول كعب الأحبار، ثم نقل عن البخاري قوله من تاريخه الكبير الذي نقل آنفا ثم قال: وقال غيره من علماء المسلمين أيضا وهو كما قالوا، لأن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وهذا الحديث يقتضي أن مدة التخليق سبعة أيام، والله تعالى أعلم.(المنار المنيف ص84)

4-أورد الحديث ابن كثير في البداية والنهاية (ج1ص71) نقلا عن مسند أحمد بإسناده ثم قال: ((وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم , وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ , وجعلوه من كلام كعب , وأن أبا هريرة انما سمعه من كلام كعب الأحبار)).

5-ونقله القاسمي في تفسيره(ج3ص178) ، ثم قال بعد إيراده هذا الحديث وبيان من أخرجه، ورواه النسائي من غير وجه عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قال: في ستة أيام، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا والله تعالى أعلم.

6-وقال العلامة المناوي في فيض القدير على شرحه على الجامع الصغير للسيوطي(ج3ص447): أخرجه مسلم وهو من غرائبه، وقد تكلم فيه ابن المديني والبخاري وغيرهما من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار، وأن أبا هريرة إنما سمعه منه لكن اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا، وقد حرر ذلك البيهقي، وذكره ابن كثير في تفسيره، وقال بعضهم: هذا الحديث في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السماوات في يومين ا هـ.

الآن:

رأينا ما قاله الفقهاء... فجميعهم رفضوا الحديث من مرجعية تعارضه فقط مع القرآن، ولم يُبينوا لماذا قالوا بسماع أبي هريرة هذا الحديث من كعب الأحبار ورفضوا هذا المنطق في مواضع أخرى..

الإشكالية الأكبر أنهم سكتوا عن التعرض لأحوال الرواة..والسر في ذلك لأنهم لو تعرضوا لأحوال الرواة سيضربون كافة القواعد التي وضعوها في علم الحديث..وسيظهر للناس أن ثمة أزمة في علم الحديث ليست فقط أزمة نظرية وتطبيق..بل أيضاً هي أزمة أخلاقية يعاني منها من انبرى للدفاع عن روايات بشرية منسوبة لرسول الله زوراً وبهتاناً..فقط لأن هذه الروايات هي منقولة لديه من أناسٍ هم أقرب إليه في المذهب أو الأيدلوجية...

أما أن يغار على دين الله فالمسألة لديه بسيطة وهي التأويل والتبرير..!

رسالة في أحاديث فضائل الشام

ألف باء إسلام أن الله لا يُفاضل بين عباده بمجرد الزمان ولا بمجرد المكان..وأن المفاضلة الشرعية الوحيدة هي التي كان معيارها التقوى وفعل الخيرات، ولكن رجال الحديث والسند لم يرضوا بهذا المعيار الذي يطفح به القرآن الكريم في مواضع عدة.. بل نسبوا للرسول آثاراً في

فضائل الشام بعضها مُضحك والآخر يثير السخرية ..والغريب أننا نجد هذه الأحاديث مسنودة ومرفوعة إلى النبي والبعض يقطع بصحتها..

من أمثلة ما ينسبونه للنبي زوراً وبهتاناً:

1-(صفوة الله من أرضه الشام ، و فيها صفوته من خلقه و عباده)

2-(إن الله تكفل لي بالشام وأهلها)

3-(طوبى للشام لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها)

4-(إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم)

5-(الشام أرض المحشر والمنشر)

6-(عقر دار الإسلام بالشام)..

وغيرها من الروايات التي ينسبونها للنبي في فضائل الشام..بل هناك من صنف المصنفات في فضائل البلدان ولم يتوقف على الشام وحدها بل منهم من صنف المصنفات في فضائل مصر وأخرى في اليمن وأخرى في عُمان....جميعها على منوالٍ واحد وهو إعلاء النزعة المكانية والتفضيل بمجرد الدم والعِرق .

لا يشك عاقل في أن هذه الآثار موضوعة عن الرسول ومنحولة عن كبار الصحابة الأجلاء، والهدف كما قلنا هو إعلاء النزعة المكانية التي تتسق مع مفاهيم أهل هذه البلدان في العصور الغابرة،فكان القصّاص أو الحاكي يمر على الناس ويُعدد فضائل المكان إما لنوايا حَسنة لتثبيتهم على الجهاد أو الصبر ، وإما لنوايا سيئة للترويج للسُلطان وإخضاع الجماهير لرؤية الحاكم.

لا أفهم ما معنى أن ينسبوا للنبي قولاً يقول فيه إذا فَسد أهل الشام فلا خير فيكم؟!..وهل الفساد بمعناه الشامل والعام يمكن أن يطول جميع من في الشام أم أن الأغلبية إذا فسدت فسيعم الفساد؟!..وهل الفساد الذي سيعم هل سيعم الأمة الإسلامية وحدها أم العالم أجمع؟..ولو كانت الأمة الإسلامية وحدها هي التي ستتضرر فلماذا لم يبعث الله الرسول في الشام ليُصلح أهله بدلاً من إصلاح أهل الجزيرة العربية الذين ومن المفترض أنه وبفسادهم لن يضر الأمة شيئا؟!!!.وهل يُعقل أن أصلح من أهل مكان وأغض الطرف عن مكان آخر هو العهدة والأساس وبدونه يفسد العالم؟!...هذا قولُ هزل وهو طعن في رؤية النبي أو في قدرته على التأثير، لأن السؤال سيتبادر إلى الذهن مباشرةً، لماذا بعد أن قال الرسول أن الإسلام في الشام وبدون الشام تفسد الأمة أن يُبادر الصحابة بالسفر إلى الشام جميعاً كي يحموا قلعة الدين؟!

لو عدنا لمنهج القرآن سنجده يتعامل مع القضية بمنطق مختلف وبأسلوب واحد ويتسق تماماً مع العقل ورؤية الإصلاح بالعموم..وهو أن الإصلاح واجب في كل زمان ومكان، وأن فعل الخيرات واجب على الناس كافة،

وأن الأكثرية في كل مكان وزمان ليسوا على هدىً أو كتابٍ منير ، وأن مهمة المصلح هي في هذه البيئة والتي من المفترض أن الله قد أخلفه عليها كي يُصلح منها ويفوز بالجنة..

قال تعالى:

1-(إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون).. [البقرة : 243]

2-(فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون).. [هود : 17]

3-(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).. [يوسف : 21]

4-(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين).. [يوسف : 103]

5-(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا..) [الإسراء : 89]

6-(إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون).. [غافر : 59]

تأملوا منطق القرآن فلم يذكر الله الناس إلا وقال أن أكثرهم لا يؤمنون ولا يشكرون ولا يعلمون..وبالتالي فأكثرهم فاسدون بالضرورة، ومهمة المصلح هي العمل في هذا الجو وتلك البيئة وإلا لانتفت الرغبة من بقائه يعمل ويكافح من أجل الخير وإعلاء القيم والحط من نزعات الفساد والانحراف..

قال تعالى..

1-(يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين).. [آل عمران : 114]

2-(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين).. [الأنبياء : 73]

3-(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير). [فاطر : 32]

السؤال هنا..أين ذكر الله المكان سواء الشام أو غيرها؟!..بل هو حُكم إلهيُ نهائيُ صادر أن المفاضلة بين الناس لن يكون للزمان ولا للمكان أي دخل فيها إطلاقاً، بل العمل ثم العمل ثم العمل ومنه يأتي الصلاح، فلا خير في اعتقادٍ بل عمل، وأن أفضل الأعمال ما كانت تأمر المعروف وتنهى عن المُنكر وتفعل الخيرات...وأما من يزعم فضائل البلدان على

غيرها فقد ضيق من رحمة الله الواسعة.. ونَشَر الفساد ومنطق الجاهلية وعِصبيتها بين الناس من حيث لا يعلم أو أنه يعلم ولكن يبغي حظاً من الحياة الدنيا والآخرة خيرُ وأبقى.

رسالة في حديث خير القرون

مخطئ من يظن أن الماضي يبني الحاضر..التاريخ لا يعترف إلا بالمستقبل....وبدون رؤية المستقبل سنفشل في حاضرنا وسنظل نراوح أمكنتنا مهما حدث...التاريخ غير خطي لأنه ينطلق من الحاضر برؤية المستقبل، فلكل زمن نسبة وتناسب يخدعان الحمقى والمُغفّلين.وبإهمال البعض لمقدمات التناسب يقعون أسرى للوهم..فإذا كان إنسانُ اليوم يخدع ويكذب ويتعصّب فالماضي ليس بريئاً من ذلك..الإنسان كما هو منذ أن وُجِدَ على البسيطة..

من ينادي بالخلافة والدولة.. "الإسلامية"..فهو يُفكر من ماضيه، ولا توجد لديه رؤية مستقبلية تحمله على تصور أو حتى تفسير واقعه.. وسيظل معزول عن الحضارة وعن العالم إلى ما شاء الله..مِسكين فهو أسير لأكذوبة خير القرون قرني..تلك الأكذوبة التي بُنيت على حديثٍ صحيح السند ولكنه فاسد المتن والمعنى، وما أكثر في تراثنا ما صحّ سَنَده ولكن فَسَد متنه ومعناه...الحديث يقول..قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..(خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)..وفي رواية أخرى..(خير الناس قرني)..وهنا يأتي الإشكال..كيف نصدق أن الرسول قال ذلك وفي زمانه- وفي زمن الخلفاء- حدثت المجازر والفِتن والبلايا

التي لحقت بالمسلمين؟!.....وهل بتصديقنا بأن أفضل الناس هم أهل القرون الثلاثة الأولى نكون قد صدقنا بضرورة حدوث تلك الفِتن والبلايا في سائر الأعاصير اللاحقة نزولاً إلى مبدأ قياس الأسوأ على الأفضل؟!

لو صدقنا أكذوبة القرون المُفضّلة الأولى نكون كالذي آمن بتدهور الزمان من عصر رسول الله إلى سائر العصور اللاحقة...وهذا يعني استسلامنا التام لكافة صنوف الظلم والاستغلال- التي تجري الآن- بحُجة أنه ليس في الإمكان أكثر مما كان...وكيف نُصدّق ذلك وقد قال الله في كتابه العزيز .."إن أكرمكم عند الله أتقاكم"..أين أفضلية السابقين هنا يامن تعقلون بنقلكم..إن هذا القول لهو أعظم الأدلة على فساد مفهوم"القرون المُفضلة وما يرتبط به من مفاهيم سلطوية تُعطي الخيرية للسابقين دون اللاحقين..فإطلاق الحُكم هنا دلالة على قاعدة المفاضلة بالتقوى وليس بمجرد الزمان ولا حتى العلم ولا السُمعة.

في تقديري أن المسلمون تقبلوا هذه المفاهيم بناءاً على اعتقادٍ راسخ بأفضلية جيل الصحابة وآل البيت على سائر عموم المسلمين في كل زمانٍ ومكان..وهذا الاعتقاد بحاجة لتحرير ومراجعة تعمل على تعريف هذه الأجيال من جديد لنعلم من هو المقصود..فليس الفاروق عمر بن الخطاب- والذي اشتهر بعدله وزُهدِه- كمعاوية بن أبي سفيان -والذي اشتهر بظُلمه وجبروته..هذا مِثال للمقاربة..فلا يصح أن أتخذ حاكماً ظالماً أو رجلاً فاسقاً قدوةً لي ولأولادي..وكذلك في بعض من عدتهم عصور التقليد والانغلاق صحابةً وهم لم يُكملوا العامين عند وفاة رسول

الله، أو من رآهم النبي ولكن كانوا فاسقين ومنافقين ومجرمين ..ولكن عدّهم البعض صحابةً لأغراضٍ سياسية أو مذهبية.

الأزمة ما زالت قائمة..أننا نعتقد في أنفسنا الضعف والقصور بمجرد وجودنا وليس بمجرد أعمالنا، وأن السابقين أفضل من اللاحقين مهما حدث ، حتى لو كان اللاحقون اجتهدوا ونجحوا في صناعة الحضارة..والنتيجة أن تفسد أعمالنا ونعتقد فيها الخطأ مهما بلغت من صواب..فلا نبرح أمكنتنا ونفقد الثقة في أنفسنا...يبقى السؤال لماذا نُصر على احتقار ذواتنا وأن الإنسان مُذنب بطبيعته وليس بعمله؟!..أليست تلك الرؤية هي بعينها رؤية من يقولون أن الإنسان يحمل خطايا آدم إلى يوم القيامة؟!..ولماذا لا ننظر إلى الدين بأنه المُحفّز على الانطلاق والنهوض بدلاً من الاستكانة والرضوخ؟!

بتحرير هذه المفاهيم سنرى أزماتنا بوضوح أننا بشراً مُقلدين وليسوا مجددين، وأن خرائط أفكارنا مشوّهة أو ليست واضحة.. فلا مُفاضلة ولا خيرية لأحدٍ على أحد إلا بالتقوى..ولا مفاضلة لزمانٍ على زمان إلا بصلاح أهله..فإذا كان أهل العصور لم يحكم الله لهم بالفضل إلا بتقواهم فهذا إثباتُ واضحُ وجليّ بأن الزمان والمكان لا علاقة له بالمُفاضلة..بل كانت الأخلاق هي المعيار للتفاضل...معياراً لا يعرف الحدود الجُغرافية والتاريخية، بل الأخلاق لذاتها كونها تخص الإنسان لذاته ..والذي هو مُكلفُ من رب العالمين بالإصلاح وعمارة الأرض..والقارئ للقرآن سيرى أن الله يفضح المنافقين والفاسقين والكاذبين ممن كانوا حول رسول الله ويؤذون نبيه ..فكيف نسمح لأنفسنا بأن نُعطي لزمان هؤلاء الأفضلية

ونحن نعلم أن غالب أهل هذا العصر كانوا منافقين وكَذبة وفَسَقة لم يسلم منهم مؤمناً ولا شريفاً عفيفا.

من يزعم بأن القرون المُفضلة هي القرون الأولى للمسلمين....نُذكره بأن الكعبة المُشرفة تم حرقها في القرن الأول الهجري مرتين:

الأولى :على يد المُجرم الأموي.. "الحُصين بن نمير".. والذي كان يشغل قائداً لجيش يزيد بن معاوية لإخضاع أهل المدينة بعد استباحتها في موقعة"الحِرة" على يد المجرم الأموي الآخر.."مسلم بن عقبة"..هذه الموقعة التي حدثت فيها جرائم تندى لها الجبين من قتل للصحابة وللنساء وللأطفال بمنتهى القسوة والوحشية..

الثانية:على يد المجرم الأموي الآخر.."الحجاج بن يوسف الثقفي".. والذي كان يشغل قائداً لجيش عبدالملك بن مروان ..وذلك لإخضاع أهل مكة المُكرمة وقائدها الصحابي.."عبدالله بن الزبير"..فكانت النتيجة أن قتل الحجاج الصحابي ابن الزبير ثم قطع رأسه ثم صلَبه بمنتهى الوحشية..

تأملوا ما كان يحدث في خير القرون!..فإذا نقدنا مزاعمهم قالوا بأن الصحابة والتابعين هم الأفضل..قلنا بأن ذلك مقبولُ شرعاً وعقلاً..ولكن أن نجعل زمانهم هو الأفضل فهو تفضيل بمجرد الزمان لا الأفراد..وبالتالي تتضمن تلك المفاضلة أفعال وسلوكيات من عاشوا في تلك القرون لانتفاء المفارقة في أصل الدليل وهو حديث رسول الله، فهو

لم يُبين أي شئ واكتفت الرواية بإطلاق هذا الحُكم الأعمى والذي لا يصدر عن رسول معصوم..

هذه هي رؤية التقليديين الجامدة من الذين يروجون لخُدعة..(فهم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة)..فالرباط وثيق بين هذه وتلك، لِذا ستراهم يُدافعون عن أكذوبة القرون المُفضلة بكل ما أوتوا من قوة ..سيدافعون عنها كونها تخدم عقيدتهم وأيدلوجياتهم باستخدام شعار يقع في أسره الكثيرين من المُغيبين....وهو شعار..(سلف الأمة)..وهنا يُثار السؤال بطريقة مباشرة..من هم سلف الأمة الذين تقصدون؟!..هل هم الأشعرية أم الماتوريدية أم أهل الحديث أم الحنابلة أم المعتزلة أم ماذا بالضبط؟!..وما هي قواعد هذا الفهم الذي تدعون؟!..وهل كان الصحابة متفقين في قضايا الاجتهاد كي نجمعهم على فهمٍ واحد؟!.. وهل قول الصحابي لديكم هو دليل معتمد أم متوهم؟!.فإذا كان مُعتمداً فكيف توفقون بين خلافهم الفقهي والعقدي والسياسي؟

سؤال آخر..هل هذه القرون المفضلة "المزعومة" هي أفضل لديكم من قرون الأنبياء؟!..يعني هل يزيد والحجاج وبِسر بن أرطأة ومعاوية وحُكّام بني أميّة.. هم أفضل من سيدنا داوود وسليمان وابراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام؟!...لقد روى القرآن لنا كيف اختلفت أفهام الأنبياء مع بعضهم البعض..فهذا هو النبي داوود وإبنه النبي سليمان -عليهم السلام- قد اختلفا في أمر الحرث..فكانت الحِكمة مع سُليمان والخطأ مع داوود.. ومع ذلك فالإثنين قد آتاهما الله العلم والحكمة.

ماذا نفهم من ذلك؟

نفهم مُباشرةً أن الدين الإسلامي لم يُفاضل بين الناس بمجرد الزمان، وأن الفهم والعلم في مقابل الخطأ والجهل هي صفات ضرورية تجتمع في سائر الناس في شتى العصور...وأن الاعتقاد بخيرية زمان على زمان أو جيل على جيل هو ضرب من الدجل والكذب يقضي على خريطة أفكار البشر ممن التحفوا بتلك العقائد والأوهام..والمصيبة أنها تكذيبُ لصريح القرآن الذي وصف أهل الأرض في زمان الأنبياء بأن أكثرهم غافلون ولا يعقلون ولا يعلمون ولا يشكرون وهم جُهّال لا يؤمنون..فالأكثرية لم تكن صالحة- هكذا علمنا القرآن..وأن حكمة الله في الأرض أن الصالحين هم أقلية وقد تصل أحياناً إلى حد النُدرة..ليس لعدم شيوع أفكارهم أو مبادئهم بل هي شائعة والإنسان يعلم الخير من الشر بالفطرة، واختلافه في تعيين كلاهما يأتي تِبَعاً لهواه أو لطبائعه أو لأفكاره وعقائده..ولكن ما يُميز هؤلاء الصالحين أنهم كانوا حُكماء على مرّ العصور، وأنهم يعلمون وظيفة الإنسان الرئيسة في هذا الكون...وأنهم بحكمتهم قادرون على التحكم في سلوكياتهم ومعلوماتهم.

في تقديري أن الفلاسفة من هؤلاء..أصاب منهم البعض أو ضلّ ليس هنا الإشكال..بل هم اجتهدوا في تحصيل معارفهم ولم يسمحوا لأحد بأن يُشكّل خرائط أفكارهم، لم يستسلموا للتقاليد ولا للأعراف..بل أطلقوا لأذهانهم ولأرواحهم العنَان..ولا أشك ولو للحظة واحدة بأن الأنبياء لم يكونوا فلاسفة..بل هم فلاسفة وحُكماء عصورهم على مرّ التاريخ..كان

الأنبياء يدعون الناس للمِثالية في القول والعمل..ومع ذلك هم يعلمون أنهم يُخاطبون بشراً يُفترض فيهم أن يكونوا هم قدوة أولئك الناس..فالدعوة للمثالية إنما هي في حقيقتها دعوة لمثالية الذات قبل الآخر..والصوفيون يعون هذه القضية بل هي لديهم أصل..أن الإنسان يدعو نفسه ويفتش في ذاته قبل دعوة الآخرين والتفتيش عليهم وعلى نواياهم..وأن الظن بالله هو جزء من عبادته..تلك العبادة والتي هي من المُفترض أن تكون قائمة على الشُكر والرضا وليس على الطَلَب والرغبة..فمن يشكر فهو يعبد الله..وأما من يطلب ويدعو لتحقيق أمنياته ومطامعه فهو في حقيقته إنسان مُخادع ولا يعبد الله حق عبادته إنما يعبد نفسه ويجعل الله وسيلة لتحقيق رغباته وأحلامه.

إن القرآن يقول ويؤكد على أن الأكثرية دائماً على ضلال في كل زمانٍ ومكان..لِذا فثبوت الخيرية يَكُن للأشخاص وليس للزمان أو لعموم الأجيال لنفي وجود أي معيار شرعي أو تاريخي للمُفاضلة، والعقل يحيل هذه القضية لأنه يلزمها أن يكون الزمان متدهوراً باستمرار من الأقدم إلى الأحدث، والقول بخيرية القرون الأولى على ما سواها هو طعن صريح في هذه القاعدة وهو طعن صريح أيضاً في القرون السابقة بما فيها قرون الأنبياء ..وهو طعن صريح أيضاً في القرون اللاحقة بما فيهم قروننا الحديثة وما يتضمنها من خطابات ودعوات لإقامة خلافة إسلامية على غرار تلك القرون التي خرجت كدعوات غريبة ومتناقضة!

فبينما يؤمن الداعين لها بأن قرون الخلافة الراشدة هي الأفضل يقولون أنه يجب أن نُحقق ما حققوه قديماً ...وهنا التناقض..كيف تعترف بالعجز

ثم تسعى لتحقيق ما تؤمن بأنك عاجز عن تحقيقه؟!..فلو قالوا أن الإرادة والطموح يكفيان قلنا أن اعترافكم بكفاية الإرادة والطموح هو اعترافُ ضمني بأن القرون الحالية ليست أسوء من القرون السابقة، وأن ما حققه السابقون من "إنجازات" يجوز أن يحققه اللاحقون سلفاً.. وهذا ما كنا نقوله وننادي به، أن المُفاضلة بين الناس لا يصح أن تكون من وجه الزمان بل من وجه التقوى، والغريب أن القرآن يَعِج بالعديد من المعايير التفاضلية ليس من بينها الزمان أو الأجيال على الإطلاق...فلنقرأ فواتِح سورة البقرة لنقف على المعايير التفاضلية الأكثر أهمية في الدين وهو قوله تعالى:

(ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هُدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون).... [البقرة 1: 5].

سنرى أن المعايير هي كالآتي:

1-التقوى

2-الإيمان بالغيب

3-إقامة الصلاة

4-الإنفاق في سبيل الله

5-الإيمان بالقرآن وبما أنزله الله في السابق.

6-الإيمان بالآخرة

السؤال هنا:..أين ذَكر الله الزمان أو الجيل أو القوم أو العشيرة هنا؟!!!!!

الإجابة: لا يوجد..لأن الله لم يجعل للناس تفاضلاً زمانياً أو مكانياً لعِلمه المُسبق بأن دعوته سيرفضها أكثر الناس، وأن المُقلدين هم آفة البشر وهم أول من سيتصدون ويُحاربون دعوة الله الحق..وقد كشف رب العزة تبارك وتعالى عن أحوال هؤلاء في آياتٍ عدة... فلنتأملها سوياً لنرى منطق البشر ولماذا كان الصالحون أقلية:

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) [الزخرف : 22]

(وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [الزخرف : 23]

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) [القصص : 36]

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) [المؤمنون : 24]

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) [لقمان : 21]

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) [المائدة : 104]

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) [الأعراف : 28]
(قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) [يونس : 78]
(قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) [الأنبياء : 53]
(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) [الشعراء : 74]

-رأينا أن منطق البشر في رفض دعوة الله أنهم لا يثقون إلا في القديم، يعني أنهم مُقلدين وهنا الآفة ، وهي آفة دائمة تُلازم الإنسان أينما ارتحل أو تعرّض لإحدى ثوابت القديم...والغريب أنهم يعيبون على غيرهم تقليدهم لسلَفهم ويطالبونهم بتقليدهم هم بدلاً من سلفهم....وقد خُضنا في غُمار ذلك إثر تعرضنا للقاعدة الرياضية المنطقية.."النسبة والتناسب"..ورأينا أن هؤلاء يرتكزون لرفضهم الآخر على مبدأ.."سلف الأولين"..وهو مبدأ تقليدي ملازم لكل طائفة ترى في نفسها الحق وما دونها الباطل، حيث أن الحالة العامة التي تجتمع في سائر الفرق والجماعات هي التقليد...أما المفكر الحر- والذي هو من المُفترض أن يكون هو المؤمن الحق- فيرى أن الجماعات افترقت من سوء فهم للواقع وللنص على حدٍ سواء، وأرادت أن تُخضع الجديد لسُلطة القديم .

وعليه فمُصطلح كمُصطلح .."سلف الأمة"..بحاجة إلى إسقاطٍ أكثر من مجرد تحصيل معلومات لديه..لأن المفكر المستنير لا يكتفي بتحصيل المعلومات أو بمعرفة الأحداث بل إلى الخوض في ظروف وفهم كيفية حدوث كل حدث، وإخراجه من حيز الفعل والتوقع في أسبابه ونتائجه

إلى حيز الدراية والفَهم... أو بالأحرى الإلمام بكافة القوانين التي تحكمت في صناعته، وهي مهمة ليست سهلة إذ تتطلب يقين جازم في المعلومة وهذا مستحيل من حيثية بُعد زمان السَلَف في العصور القديمة..وأن المؤرخ والراوي هو الذي يتحكّم في الصورة للعامة للسلَف، وأقوال الرواة والمؤرخين لا يُحتمل إلا أن تكون ظنية الثبوت فيما جرَت عليه العادة في الخِلاف..كمِثال أن الكل يتفق في وقوع معركة صِفّين، ولكن الجميع يختلف في أسباب وأحداث ونتائج والظروف العامة لهذه المعركة.

أما المُقلّد فيأخذ جانباً من هذه الأحداث والظروف يسير عليها دون إعمالٍ للنظر وللبحث العقلي، ويُطالب المخالف بتبني رؤيته، بينما أن نفس السلوك يحدث تماما وبالتطابق مع الجهة الأخرى أي مع المخالف، فهو يريده أيضاً أن يلتزم بما يؤمن به ويعتقده، والطرفان على شِقاقٍ تام في حدثٍ تاريخي لا نستطيع أن نجزم أيهم كان الأصح والأوجَه.

لم يعد لدينا حينها لبناء رؤية تاريخية سليمة -إلى حدٍ ما- إلا التاريخ نفسه، وهو أوضح ما لدينا من أدلة، وأظن أن التاريخ كشف لدينا أطر عامة نفهم بها ما حدث، وأن القول بخيرية جيل على جيل لم يكن إلى تحقيقاً لصراعٍ سياسي كان منشأة صراع بعض الأطراف على أحقية كلٍ منهم بالحقيقة والأصل الديني، وأن الروايات التاريخية والحديثية بالمجمل كانت تصب في بناء ليس فقط رؤية تاريخية سياسية بل أيضاً في رؤية عقدية وضعت كل الأطراف في مفاصلة يتبرأ كل طرف من الآخر بمجرد مخالفته، فالراوي الثقة عند هذا ليس ثقةً عند ذاك، والأصل في التوثيق لم يكن يمس الأهلية أو البناء الذهني والتكوين الشخصي..بل كان

يعتمد في مُجمله على الاعتقاد..عدا بعض الاستثناءات حدثت أن وثّقت بعض الأطراف رواةً آخرين ليسوا على هذه القاعدة...ولكن الاستثناء يؤكد القاعدة أن التوثيق كان على الاعتقاد والثقة وليس على الكفاءة.

وآفة التقليد هي التي أنتجت المذاهب..ليست فقط في الإسلام بل في سائر الأديان، ولا يقف اختلاف المذاهب هنا على الرفض بل يتعداه إلى التكفير..فرأينا العديد من علماء الشيعة يُكفّرون السُنة ..والعكس رأينا العديد من علماء السنة يُكفّرون الشيعة...وأما دعوات التقارب فهي تأتي في سياق عاطفي أكثر منه مراجعةً ونقداً للذات، فأهملوا القرآن وتمسك كلُ منهم بسلَفه معتقدين فيهم العصمة من الزلل والأهواء..بينما يصعب على كل فريق أن يتدبر آيات الله البينات والتي خُوطِب فيها كليهما بنداءٍ واحد وهو الأمة:

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) [البقرة : 128]
(وكذلك جعلناكم أمة وسطا) [البقرة : 143]
(كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران : 110]
(كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) [الرعد : 30]
(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) [الأنبياء : 92]
(وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) [المؤمنون : 52]

وكأن القرآن يردهم إلى الأصل الذي ابتُنىَ عليه الدين وهو الوحدة، وأن الافتراق سيأتي بأفعال الإنسان وأن هذه الأفعال هي في حقيقتها ابتلاءُ من الله.. قال تعالى..(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما

آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) [المائدة : 48]...فيظهر من سياق الآية أن الوحدة وما يتبعها من تعايشٍ وسلامٍ إنساني يتوقف على استباق الإنسان بالخيرات...وأن هذه المسابقة هي تصوير حي لمعنى الدين الحقيقي كما أنزله الله على أنبياءه...فلا يقول أحد أن التكفير خير أو القتل خير أو الاعتداء خير...بل هذه الأعمال جميعها مجرد حركة من السكون الافتراضي الذي يأمن به الإنسان على نفسه، وأن الحركة كي تكون مُنتجة لابد وأن تكون حركة تواصلية بِنائية تهدف لفعل الخيرات ابتداء ..مصداقاً لقوله تعالى:

(لكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات) [البقرة : 148]
(فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا) [المائدة : 48]
(أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) [المؤمنون : 61]
(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) [الأنبياء : 73]
(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) [الأنبياء : 90]
(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) [فاطر : 32]

وكذلك كان درب المُصلحين جميعاً في كل زمانٍ ومكان..فبربكم هل كان قتل الصحابة واغتصاب الصحابيات وقتلهن بأبشع طُرق التعذيب خير؟ أو كان ذبح وتشريد وتنكيس آل البيت هو خير؟..بل هل يجوز أن يكون

هدم الكعبة هو عملُ خير؟!...ذلك ما حدث في القرون الأولى أو في عهد الأجيال الأولى للمسلمين، فإذا قُلنا ذلك قال البعض لقد حدثت هذه الأحداث في زمان الفِتن، وقد أُمرنا أن نكف ألسنتنا عن هذه الأحداث، أو أن ننتقص من فاعليها بشئ..وكأنهم يؤمنون بقرارة أنفسهم أن ما حدث لا يجوز وصفه بأقل من جرائم..فهل يجوز القول على فاعليها أنهم مُجرمين؟..سيقولون لا..فهل لو كان فاعليها ممن سواهم أو كانوا من اللاحقين؟... سيقولون نعم...وهذا إثباتُ واضحُ وجليّ بأنهم ينظرون للأشخاص نظرة تقديسٍ وعبادة حملتهم على غُفران ما ارتكبوه من آثام...!

القضية معقدة ومُتشابكة تحمل في طياتها العديد من الأزمات وهي مبنية على عقيدة واحدة، وهي أن القرون الأولى مُفضله على ما سواها إطلاقاً، ومجرد القول بذلك صنع لدينا ما يُعرف .."بالمُصطلح الأزمة"..والذي أصبح مجرد الخوض فيه يتسبب في الانشقاقات والحروب الأهلية بين المسلمين.. كمصطلحات.."سلف الأمة والخلافة وعدالة الصحابة..وغيرها عند السنة"..ومصطلحات.."كالإمامة وعصمة الأئمة ..وغيرها عند الشيعة"..وهي مصطلحات بحاجة لتحرير وفهم خارج دائرة المذاهب وبالأخص الراوية التي صنعت لدينا كل هذه الافتراقات والانشقاقات العديدة.

رأينا أن التقليد هو أساس من يرفض دعوة الله، وأن أكثر الناس هم مُقلدون بالطبيعة..ويرفضون الدعوة بحُججٍ شتى من بينها الآبائية ومن بينها عدم الشُكر ومن بينها التقصير في فِعل الخيرات، وقد كانت تلك

الحُجج سائدة في عهد النبي على ألسنة الكُفار والمنافقين وأعمالهم، وأن القرآن قد سجّل ذلك بوصفهم بأن أكثرهم لم يكونوا مؤمنين..وعلى هذا الحال تبقى عقيدة خير القرون رهينة لجيل أو زمان يتفوق على آخر بالمُجمل، وهذا الرهان ليس بمُحال إذ التاريخ يُثبت أن العديد من الأزمنة والأجيال كانت أفضل من غيرها من حيث الحضارة أو التضحية، ومع ذلك فلا تكون قواطع لأن التاريخ في رؤيته العامة يُحاكي رؤية النافذين في السُلطة أو المثقفين أكثر من رؤى الجماهير.

كذلك في متن الحديث –المؤسِس لتلك العقيدة- لا يوجد سياق تأريخي يحكي كيفية ما قاله النبي ومتى وأين وفي أي ظرف، وهذه الأسئلة هامة لاستنطاق جُملة من المعلومات أهمها إذا قال النبي ذلك في زمانٍ سبقه موت أو استشهاد أحد الأخيار أو الصحابة أو ممن أسلموا وماتوا مُبكراً ، هل سيكونون من ضمن القرون أو الأجيال المقصودة بالخيرية أم ماذا؟..وإذا كانوا كذلك فما القول فيما ثَبت عن أنس بأن .."أمة المسلمين مثل المطر لا يُدرَى أوله خير أم آخره"..وما القول في أن تفسير الجيل يعني الأحياء وليس الأموات، وإلا فالأموات أجيال سابقة على الأحياء، فهل مات من المسلمين قبل أن ينطق الرسول بهذا الكلام أم أن الرواية حدثت في أول يوم من أيام الإسلام ؟!

معنى هذا الكلام أنه حتى لو ثبت الحديث فهذا لا يعني أن المقصود هو الجيل أو القرن -بمعنى الزمان- بل المقصود هم مجموعة من الأشخاص يتبعهم البعض بإحسان، وهذا يتسق مع مبدأ .."إن أكرمكم عند الله أتقاكم"..ولا يقف هذا الرأي عند الجيل أو القرن الثالث بل سيمتد إلى آخر

الأمة في آخر الزمان...وهكذا تكون المسألة مقبولة وصالحة للتأويل كرد منهجي على من يفترضون بأن الصحابة بالمُجمل هم المقصودون رغم أن القرآن لم يذكر لفظ الصحابة قط بل قال.."المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان..ومحمد والذين معه"..وهكذا فالقرآن يجعلها عامة كي يدخل فيها آل البيت وسائر الصالحين، كذلك لرفع الحرج عن من يُخطئ في تعريف الصحابي فيضم إليه مُجرماً أو فاسقاً أو كافراً من حيث لا يدري..

على جانبٍ آخر ..من يعتقد في خيرية القرون الأولى على ما سواها تختلط لديه معاني الحِزبية و الوطنية والقومية ،فبينما يؤمن بأن المسلمين في هذه القرون لم يكونوا إلا أقلية في المنطقة العربية..يؤمن في ذات الوقت أن عموم الخيرية ثابت للعرب دون استثناء، ويعتمدون في ذلك على الوعي الجمعي العربي الذي يجمع ما بين الإسلام والعروبة .."كهوية قومية" وما بين الإسلام والمسلمين.."كحِزب ووطن"..رغم أن أكثرية أهل الإسلام في هذه القرون لم يكونوا عربا، وأن اللغة العربية أخذت موقعها بتوالي الزمن وبتوسّع الغُزاة في الفتوحات التي يسميها البعض.."بالإسلامية"..حتى أنه قيل في أكثر من مصدر تاريخي مُعتبر بأن جيوش الفاتحين الأمويين كان أغلبها من ذوي الديانة المسيحية في الشام، كذلك في أن خريطة انتشار اللغة العربية جاءت من جنوب الجزيرة حيث عرب قحطان العاربة إلى شمالها حيث عرب عدنان المستعربة،وأن اللغات المصرية والفارسية والعبرانية والكلدانية كانت أكثر انتشاراً في المنطقة العربية في تلك القرون، فعلى أي هوية جاءت أحكام من يُثبت الخيرية هكذا بالمُجمَل؟

لو قالوا أنها هوية عربية قلنا فالعرب كانوا أقلية، وأن الأكثرية منهم مسلمين ليسوا عرباً ولكن بعضهم كانوا أكثر التزاماً وإيماناً من العرب، ولو قالوا أنها إسلامية فهذا نقض لخيرية أكثر شعوب المنطقة بوصفهم كانوا غير مسلمين ، لأن ثبوت الخيرية كان للمسلمين على نحو الحديث وشُرّاحه الذين صنعوا لنا عقيدة تجذرت في نفوسنا ....وابتُنِيَت عليها مُصطلحات صنعت لدينا أزماتٍ عِدّة، فالإسلام لم ينتشر ولم يُنافس الأديان الأخرى في المنطقة إلا مع بدايات القرن الثالث أو الرابع الهجري وفي هذا مقام بحث سنتعرض له إذا اقتضت الضرورة ذلك..صحيح أن هناك من يقول بأن العرب -في تلك القرون- كانوا هم مصدر الإسلام وقوته وكانوا هم أكثر من ضحوا لأجله.. ولكن لا يعفينا ذلك من القول بأن الثقافة العربية بتقاليدها وأنظمتها وقواعدها كانت هي المُسيطرة على عقل المُشّرع الإسلامي بوجهٍ عام، وللفصل فلا يختص ذلك بالوحي.. فالوحي لم يُضِف للعرب قيمة إلا أن القرآن كان مُنزلاً باللغة العربية، فيما عدا ذلك فالكل سواء، وعليه فالثقافة العربية التي طغت على التشريع الإسلامي كانت محل نظر للكثير من الباحثين الذي رفضوا تلك النظريات التمييزية للعرب وإضفائها-كثقافة-على الدين.

وفي تقديري أن أكذوبة.."خير القرون"..من هذه النظريات، بل هي الأخطر على الإطلاق، وكثيرا ما ينتبه المتعصبون لذلك فيكفّون أو يقتصدون في نزعاتهم العِرقية حِفظاً منهم لمقام الأخيار الأُوّل والذين كانوا في معظمهم من غير العرب، ومن هؤلاء "الأخيار"الكثير من

أصحاب المذاهب الفقهية أو المحدثين ونحو ذلك ممن عُرِفوا بأنهم كانوا فُرساً أو عَجَما..

صحيح أن العرب كان من بينهم حُنفاء.. كانوا هم من بين النواة الأولى للمسلمين في الجزيرة العربية، وأن هؤلاء الحُنفاء كانوا موحدين ليسوا هوداً أو نصارى، وأنهم كانوا يعتقدون في دينهم بأنه إتباعُ لأبي العرب إبراهيم وولده إسماعيل -عليهما السلام- ولكن هذا يجعلنا نعتقد في أن الخيرية لو كانت في الحنيفية –بوصفهم عربا- فهي لعقائدهم وأعمالهم وليست لكونهم أحفاداً ومُقلدين للأنبياء ، وإلا لكانوا عُباداً للأوثان وظلوا على دينهم حتى زمان الرسول وحاربوه..ومن تلك النتيجة نرى بأنه لو صحّ بأن النبي قال بالخيرية للقرون الأولى... فالأولى بها هم الحُنفاء الذين ظلوا على عهدهم مع الله رغم انتشار وسيادة الكُفر، ولا يتساوون في ذلك مع من أسلم في زمان النبي أو بعده وكان الإسلام فيها ذو عِزّةٍ ومَنَعة ولم يُجاهدوا أنفسهم كما جاهد الحُنفاء، وإلا ما هي الحِكمة في أن يُعطيَ النبي الخيرية لأُناسٍ كانوا أقل تضحيةً ممن سواهم؟..خاصةً إذا علمنا بأن أكثر من كانوا حول النبي لم يُضحّوا بأموالهم وأنفسهم، فما بالنا وأن هؤلاء كانوا في أكثرهم غير مؤمنين أصلاً كما حكى القرآن في أكثر من موضع.

رسالة في حديث إنما الأعمال بالنيات

هل الأعمال بالظواهر أم بالنوايا؟.. كيف نُحاسب على الأعمال وتكون الحُجة عليها ما خفي في النفوس ؟..وهل لنا أن نعلم ما في النوايا كي

نقول أن أعمالنا بالنوايا؟..وإذا كانت الأعمال بالنوايا بالنسبة لله فكيف يتدخل الإنسان فيما لا يعلم؟..وهل كل النوايا الحسنة تأتي بالأعمال الصالحة؟..فإذا لم يكن فلماذا قال الرواة.."إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى"..والمعنى أن المرء يُثاب على نيته إذا كانت حسنة، فلماذا نحكم على الإرهابيين بالضلال حين يقتلون ويذبحون الناس وهم في دواخلهم يبغون مرضاة الله والفوز بالجنة؟..أليس قولنا أن الأعمال بالنوايا هو تشريع لأي عمل فاسد بنية صالحة؟

أزمة كبيرة أحدثتها رواية منسوبة للنبي سجلها البخاري في صحيحه حيث قال: حدثنا الحميدي عبد الله بن الزبير حدثنا سفيان حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"

وفي سنن أبي داوود : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان حدثني يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص الليثي قال سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"

واللفظ كذلك في سنن ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيي بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب، وكما هو واضح فالحديث آحاد من طريق واحد مشهور في زمن متأخر بعد يحيي بن سعيد الأنصاري المتوفي عام 144 هـ، وهذا يعني أن الحديث آحاد مشهور، ولكن بشيوعه أخذ مبلغ التواتر عند البعض حتى وضعوه في عشرات الأبواب الفقهية، حتى تسلل هذا الحديث إلى نفوس المسلمين بعد تسجيل الحديث كمصدر ثانٍ للتشريع في زمان الشافعي.

الحديث كذلك موجود في مسند الحميدي برواية بشر بن موسى المتوفي عام 288 هـ، وهذا يعني أن الحديث من طُرق الحميدي وابن أبي شيبة وسجله البخاري في كتابه كعلامة على شيوعه في ذلك الوقت، ولكن ما يهمني أن أسماء الرواة الذين نقلوا الحديث تدل على أن ثمة غرض فقهي وعقدي كبير من وراء هذا النقل، حيث جميع الأسماء وأصحاب الطرق كانوا من خصوم مدرسة الكوفة وأهل الرأي في العراق، وهي المدرسة المشهورة لدينا بالأحناف، ورأينا في السابق كيف أن البخاري ألّف كتابه للرد على الأحناف، وأن شيوخ البخاري كانوا بين مُكفّرٍ ولعّانٍ لأبي حنيفة، فلا عجب بعد ذلك أن يكتبوا هذا الحديث وأن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئٍ ما نوى، ثم يقتلون الناس ويُكفّروهم ويشتموهم طالما أن نواياهم كانت صالحة وباسم الدفاع عن الدين.

رأينا أن الإرهاب في مجتمعاتنا ينتشر باسم الدفاع عن الدين، وأن المرء يُحشر على نيته، وأنه طالما كان مجتهداً في بيان الحق فلا خوف على مصيره مهما فعل، هكذا خدع هذا الحديث عموم المسلمين، ولكن السلف من الأحناف قد افتطنوا لخطورة هذا الحديث ورفض بعضهم ما جاء في متنه وحُجتهم أنهم يشترطون فساد العقد بما جاء في العقد نفسه، وليس للنوايا دخل بذلك، بخلاف ما جاء في الحديث أن النوايا يمكن أن تصلح أو تفسد وغير هذا يفتح محلاً كبيراً للنزاع...وقد حدث.

الأصل في الأعمال أن الأحكام لا تصح إلا بالظواهر، لأن ما خفي في القلوب كان في علم الله، فكيف تكون الحجة للأحكام وأدلتها مخفية؟.. هذا دليل عقلي وشرعي ينقض فكرة الحديث من أساسه، وفي تقديري أن الحديث مخالِف لهدي القرآن الذي قال فيه سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين [هود 31]

سيدنا نوح يضرب مثلاً بخُلق التعامل بأنه لا يرى إلا ما بدر منهم، وأنه لا شأن له بما في أنفسهم كي يطمئنوا له، وأن الكلام في النوايا ليس من شأن البشر، لذلك فحديث النوايا ككلمة الحق التي أريد به الباطل، نعم النوايا لله، ولكن ليست الأعمال بالنيات ولكن بالظواهر، وياسبحان الله فقد ساد هذا المنطق العملي بين البشر الآن، حتى أن القوانين لا تحاسب

الإنسان إلا بما بدر منه، وأن الكلام في النوايا كمن يريد استحلال عمل ما بنية فاسدة أو العكس.

معلومة هامة أن من سجل حديث.."إنما الأعمال بالنيات".. هو البخاري بعد 200 عام من وفاة الرسول، وقال أن الحميدي حدثه بذلك..كذا فالإمام أبو حنيفة لم يكن يعترف بمثل هذه الأحاديث وقال أن الأحكام تجري مجرى الظواهر والأفعال لا النوايا حتى لو كانت حسنة، وقد رفض بعض أئمة الحديث كمسلم والنسائي والترمذي وابن حبان الحديث حتى مالك لم يكتبه في موطأه، ولم يدونه سوى البخاري وابن ماجة وأبي داوود، وهذا يعني أن الحديث ليس محل اتفاق، فكيف تسلل هذا الحديث الخطير في أبواب الفقه حتى بات أصلاً يُستدل به على الكذب والتقية والإرهاب.

لو كان المعنى من وراء الحديث هو إخلاص القول والعمل لله فالمعنى صحيح، ولكن الحديث يحكم بإطلاقية النوايا في شأن الأعمال وأن لكل امرئٍ ما نوى، أي له حظ من نيته سواءً حسنة أم سيئة..وهنا السؤال المعضل..كيف نحكم بأن العمل صالح أو فاسد؟..هذه أمور نسبية..فلو قلنا بأن الإرهابي يقتل وهو يعتقد في فعله الصواب وأنه سيدخل الجنة، فهو يفعل ذلك بناءً على اعتقاده بأن نواياه كانت حسنة، وأنه مأجور على فعله وإن أخطأ..أما بالنسبة للآخر فما فعله الإرهابي هو جريمة..كيف سنحل هذا الإشكال الذي صنعه الحديث، بل وفي تقديري أن حديث.."إنما الأعمال بالنيات"..هو وراء كل جريمة باسم الدين.

سيقولون أن الخلل ليس في الحديث إنما في النوايا، قلت هذا رجلُ قتل باسم الجهاد كيف نقول أن العمل يوافق الشرع؟.. سيقول الرجل يتفق وسيقولون لا يتفق، والأصل أن الحديث هو مدار النزاع، بعدما تخرب مالطة ويُقتل الملايين بزعم الجهاد والنوايا الحسنة، هكذا كان السلف من الأحناف هم أبعد نظراً وأثقب رؤية، فبمجرد قولهم أن الحُجة على الأفعال هي الظواهر ،هو تشريعُ لدولة القانون، التي لا يظهر منها سوى الأعمال الظاهرة ولا تُحاكم أحداً على النوايا فهي في علوم النفس الكامنة.

حتى أن روح القانون التي جعلت مقادير العقوبة متسقة مع النوايا-مثال القتل العمد والقتل الخطأ-فيأتي بعد استبيان القاضي بدليلٍ دامغ وظاهر، أي أنه في المضمون يحكم عن عمل وليس مجرد نية لا يعلمها، فمن يصدم أحداً بسيارته ويقتله كان العمد وراء فعله منتفياً وإلا تعقّب الضحية حتى قضى عليه، بينما القاضي ينظر ..فإذا ظهر أنه لم يكن متعمداً ضحيته كانت جريمته هي القتل الخطأ..وهكذا، أي أن القانون لا يؤمن سوى بالظواهر التي يعرفها البشر ويغض الطرف عن ما كَمَن في النفوس، وفي ذلك حكمة أنه إذا اطلع الإنسان على نوايا الآخرين شاعت الكراهية وفسدت الأرض، بينما الدين وظيفته هي الإعمار وتدريب الإنسان على أن يُصلح من نفسه والناس .

مشكلة رواية.."إنما الأعمال بالنيات"..أنها حديث منسوب لرسول الله، يعني.."نص مقدس"..عند البعض، الذين لا يؤمنون بالقانون الظاهري ويرون مخالفته للشريعة، طالما نواياهم كانت حسنة فيحل لهم فعل أي

شئ بنص الحديث، سنذهب لسوريا أو لسيناء أو للعراق أو إلى لبنان، نراهم يقتلون ملايين الضحايا ويزعمون أن نواياهم صالحة باسم الجهاد، وسبب هذا الخلط أن الحديث له وجه إلهي والثاني بشري، فاختلط الوجهين بلفظ.."لكل امرئٍ ما نوى"..يعني القائل يقول لفظ صحيح، ولكن خلطه بالأعمال وبإطلاق.."الكل"..جعل المبنى فاسداً، وهذا يعني أن الراوي لم يقصد الإخلاص في النية فحسب بل توسع وقطع بقبول سائر الأعمال بالنوايا...

وأنا أسأله طالما لا تعلم النوايا فلماذا تدخلت في ما لا تعلمه وقلت أن لكل امرئٍ ما نوى، وما قولك فيمن يقتل بنية حسنة؟..فإذا لم تقبل منه هذا الفعل لماذا شاب قولك التعميم؟

أخيراً فحديث .."الأعمال بالنيات"..هو مشكِل كبير، حيث له معنيان الأول ظاهري يتبادر للذهن والآخر مُحكم وهو المقصود من الحديث.

المعنى الأول "الظاهري":هو وجوب الإخلاص لله في الأعمال ولا إشكال في ذلك عند الفقهاء، وأن الإخلاص هو ثمة المؤمن التقي.

المعنى الثاني "المُحكَم": هو أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئٍ ما نوى..وهذا محل خلاف كبير، وقد افتطن علماء السلف من الأحناف لخطورة القول بذلك، وقطعوا بأن الأحكام لا تجري الحجة عليها إلا بالظواهر، لأن النوايا هي من علوم الله، والكلام فيها لا معنى له وتكلف كبير يخلق بذور الخلاف والتناحر.

كذلك أن الحديث صدر من نفسٍ رأت أن النوايا حسب الحقيقة الواحدة المطلقة المعلومة سلفاً، وهذا جهل كبير، فالنسبية بين البشر حاضرة، وما كان افتراق الأمم إلا علامة على تلك النسبية في الرؤى والتصوّرات، كمن يقتل باسم الجهاد، والآخر يحكم عليه بالضلال والتطرف، وهكذا نعيش كردود أفعال عاجزين عن المراجعة في المفاهيم، فلا أظن أن النبي -الذي اجتمعت عليه أمة المسلمين والعرب –كان يجهل هذه النسبية ،وأنه يقول أن الأعمال بالنوايا ولكل امرئٍ ما نوى، في حين كانت قريش تُحاربه على نوايا البعض الحسنة منهم بأن النبي هو كاذب ومدعي ومُفرّق للأمم، فما مصير من مات منهم وهو يحارب النبي على هذه النية؟

ولماذا نذهب بعيداً ولدينا الخوارج الذين كانوا يقتلون الناس، ويُكفّرون الصحابة ،والمعلوم عنهم أن الصدق صفة ملازمة لهم،حتى أن علوم الجرح والتعديل جعلت من الخارجي أوثق من الشيعي، وعليه كان لكل امرئٍ خارجيٍ منهم ما نوى من نوايا حسنة باسم الدعوة والغيرة على الدين والحُكم لله.

كذلك فسند الحديث جاء من طريق واحد عن علقمة عن عمر بن الخطاب، واشتهر بعد ذلك عن يحيي بن سعيد، أي أنه في المجمل حديث آحاد مشهور لا يقوم به العمل في العقائد والأعمال والدماء، فكيف اشتهر هذا الحديث وجعله الفقهاء متصدراً لعشرات الأبواب الفقهية؟..هذا يعني أن الأسس الفقهية بحاجة لمراجعة واستعادة روح السلف من الأحناف

الذين رأوا أن الحجة على الأعمال هي الظواهر تجنباً للشقاق والحفاظ على كيان ومجتمعات المسلمين.

وليس أدل من الخلاف حول الحديث من رفض بعض المحدثين تدوينه وبعض الفقهاء الاحتكام إليه لخطورة معناه كما تقدم ، فهو ككلمة الحق التي أريد بها الباطل، خلاصته أن النوايا لله وهذا ما اجتمع عليه الناس، ولكن الأعمال ليست بالنوايا لخطورة القول بذلك مجتمعياً ودينياً وسياسياً..حتى رأينا في زمننا هذا من يقتل باسم الله ويقطع الرؤوس ثم يستدل بهذا الحديث أن نواياه كانت حسنة، إلى هنا يجب وقفة مع هذا الحديث الذي أعتبره أحد مصادر العنف والإرهاب في عالمنا العربي.

رسالة في حديث اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ

ما العرش وما شكله وما حقيقته؟...هل هو ما يتبادر إليه الذهن بأنه سريراً أو كرسيا؟ وما خيال العرب عن معناه في حياتهم؟ أو ما ذكره القرآن عن العرش كان كناية عن المُلك وسعة النفوذ؟ وهل للإنسان أن يتصور أمراً كان في دينه من أمور الغيب؟..وهل العرش أصلاً هو غيب؟..ولو كان ليس غيباً فما هو؟..ولو كان غيباً فلماذا ادعى عليه شيوخ المسلمين أنه يهتز لأي سببٍ ما؟.

في تقديري أن العرش هو من أمور الغيب لا سعة لعقلٍ أن يتصوره، ولو أن له عند العرب معانٍ مجازية عن المُلك والنفوذ، لأن القول بالعرش - عند العرب-لا يعني به السرير أو الكرسي، وأشعار العرب في الجاهلية

وما بعد الإسلام كشفت أن أكثر استخدامات.."العرش"..كانت تعبيراً عن المُلك والنفوذ، ويبدو أن من قال بهزة العرش لم يع ذلك.!!..تأمل قول الخنساء.."كان أبو حسان عرشا خوى مما بناه الدهر دان ظليل"..العرش هنا كناية عن مُلك حسان ويدعم ذلك قوله تعالى.."وهي خاويةُ على عروشها"..ويعني زوال النعمة أو المُلك، ولم يدعِ أحداً أن عروشها تعني."خاويةً على سريرها أو كرسيها"..!

إذن فادعاء هزة العرش-لأي سبب-إما مجازية -على طريقة العرب-وإما حقيقية فهي كارثة، ولو كانت مجازية فهذا يعني أن التوسع في شرحها وتفصيل أحداثها هو دربُ من الدجل.

رُوى في تراث المسلمين السنة أن العرش اهتز لموت الصحابي سعد بن معاذ، والسؤال من هو سعد كي يهتز العرش لموته-على فرض اهتزازه-هل هو نبي؟..ولو لم يكن نبياً فلماذا لم يهتز العرش لموت أحد الأنبياء؟..هل يعني ذلك أن سعداً كان عندهم أعظم منزلةً من الرسول؟..أم القول بهزة العرش لوفاته جاءت بطريق المبالغة تعبيراً عن هول الصدمة والفجيعة؟!.....سنرى ذلك في السطور القادمة..

مبدئياً فالصحابي سعد بن معاذ ليس من العشرة المبشرون بالجنة في الفقه السني، وعليه هو ليس من أفضل الصحابة، بل يسبقه على الأقل عشرة لم يهتز لموت أحدهم العرش..!..وهنا الإشكال.. كيف يهتز عرش الرحمن لموت الصحابي.."سعد بن معاذ"..ثم نجده ليس من العشرة المبشرين بالجنة؟!..وهل كون سعد أنصارياً من المدينة ليس له الحق

بالتبشير؟..بمعنى أن كافة العشرة المبشرون هم من المهاجرين ومن قريش على وجه التحديد، وجاءت الأحاديث في فضلهم ومكانتهم في الجنة بدءاً من القرن الثالث الهجري مع شيوع الوضع والتحديث عن رسول الله، فهل كان شيوع حديث التبشير في ذلك العهد رداً على من أراد نزع فضيلة قريش؟..فلو كان صحيحاً يعني أن حديث التبشير له خلفية سياسية وليست دينية.!

عموماً لن أخوض في صحة وضعف حديث التبشير..هذا موضوع آخر ويحتاج إلى دراسة مستقلة لا يتسع الوقت ولا المكان إليها، وأخصص هذه الدراسة عن حقيقة اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ عن غيره، وأعتقد أن الإشكالية الكبرى التي تحيط بهذه المسألة ليست فقط عقدية تخص طبيعة العرش وحقيقة تصور المسلمين له، ولكن أيضاً في استسهال الحديث والوضع عن الرسول بلجوء المسلمين إلى تفسير ما جهلوه عن الموت وما يحدث بعد الدفن، وهذه مفاجأة لم يخض فيها أحد من قبل، ستكشف بجلاء أن القول باهتزاز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ –بالذات- كان عن خوفٍ وفجيعة سببتها معاني الموت المرعبة ومشاهد القبر وعذابه في خيالات المسلمين..

والأدلة على ذلك كثيرة..أولها أن هزة العرش تعني ما خص الله بعرشه ، لأن شئون الغيب –بما فيها العرش-هي من شئون الله، بينما الموت في حقيقته هو عودة لله ، فلماذا طرح المحدثون أخباراً عن هز العرش في سياق الفجيعة والمصيبة؟..وهل المصائب من شأن البشر أم من شأن الله ؟! ..الإجابة ستكشف أن تصور المسألة كان أرضياً وليس إلهياًُ بما يعني

كذب الادعاء باهتزاز العرش لموت سعد، وإلا لفرح الله وما يخصه-كالعرش-بعودة سعد إليه وليس العكس، والأحاديث الخاصة بهذه الأكذوبة تكشف ذلك بوضوح ومنها:

1- حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده، عن عائشة، عن أسيد بن حضير، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد اهتز العرش (لموت) سعد بن معاذ»..(مصنف ابن أبي شيبة 405/2)

2- حدثني محمد بن المثنى، حدثنا فضل بن مساور، ختن أبي عوانة، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر رضي الله عنه، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: «اهتز العرش (لموت) سعد بن معاذ»، وعن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، مثله، فقال رجل: لجابر، فإن البراء يقول: اهتز السرير، فقال: إنه كان بين هذين الحيين ضغائن، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: «اهتز عرش الرحمن (لموت) سعد بن معاذ»..(صحيح البخاري 35/5)

الترجمة: مات سعد بن معاذ ومن هول الفجيعة اهتز العرش لموته، هكذا يتبادر إلى الذهن ويعتقده عوام وشيوخ المسلمين، لا تسأل أحداً عن معنى هزة العرش لموت سعد إلا واعتقد هذا المعنى..ليس كما جاءت روايات أخرى معدودة تزعم فرح الله بلقاء سعد .. فهي خارج السياق واستثناء عن العام، وترفضها كافة الروايات الأخرى التي اكتفت بذكر هز العرش

فقط للموت دون ذكر ألفاظ أخرى، وقد حاول الشراح نفي ذلك إلى معنىً آخر يزعم أن الله فرح بقدوم سعد..وهذا غير صحيح لسببين:

الأول: أن الروايات قال لفظا.." اهتز العرش (لموت) سعد"..والموت يعني المصيبة وفقدان الأحبة عند البشر، ودائما ما يأتي ذكره في سياق المصائب والكوارث، أما ما قيل أن العرش قد اهتز لروح سعد في الروايات الأخرى فهي استثناء يؤكد القاعدة أن عموم روايات هز العرش كانت "لموت سعد"..وليست.."لروح سعد"..وهناك فارق لفظي ومعنوي سنكشفه لاحقاً ويتبين معه أن القول بهز العرش جاء مجازاً عند العرب وكناية عن مصيبة موت سعد..ولكن بتوسع الرواة بعد ذلك في تصوره نسبوا هز العرش على الحقيقة ومن ثم نسبوا كلاماً مزوراً للرسول اتسع بعد ذلك حتى أصبح هز العرش هو من السنة..!!

الثاني: أنهم زعموا اهتزاز العرش في مواضع أخرى كلها لأفعال مشينة -لديهم- كاللواط ومدح الفاسق ومصائب كالطلاق وبكاء اليتيم..وغيرها كل ذلك ورد في حقهم روايات تزعم اهتزاز العرش لها، ويدعم هذا الرأي ما رواه أحمد في مسنده أن هزة العرش جاءت عن مصيبة الموت قال:

حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة، عن عائشة قالت: قدمنا من حج أو عمرة، فتلقينا بذي الحليفة وكان غلمان من الأنصار تلقوا أهليهم، فلقوا أسيد بن حضير، فنعوا له امرأته، فتقنع وجعل يبكي، قالت: فقلت له: غفر الله لك، أنت صاحب

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولك من السابقة والقدم، ما لك تبكي على امرأة. فكشف عن رأسه وقال: صدقت لعمري، حقي أن لا أبكي على أحد بعد سعد بن معاذ، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما قال: قالت: قلت له: ما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لقد اهتز العرش لوفاة سعد بن معاذ " قالت: وهو يسير بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم "..(مسند أحمد بن حنبل 441/31)

والمعنى أن امرأة الصحابي .."أسيد بن حضير"..ماتت فجعل يبكي عليها حزناً، وبعد ما ذكّرته عائشة بأن هذه امرأة لا يجوز البكاء عليها..(وهذا يكشف بالمناسبة رؤية العرب للمرأة كيف تدعي عائشة أنه لا يجوز البكاء على امرأة وهي منهم؟!!.)..عاد أسيد بن حضير عن قراره وتوقف عن البكاء لأنه-وكما قال-يرفض البكاء على أحد بعد سعد بن معاذ، والدليل قول الرسول أن العرش قد اهتز لموته، وعليه فامرأته لا تستحق هذه المكرمة، فبكاء أسيد على سعد وذكره رواية اهتزاز العرش دليل من أسيد على أن حركة العرش كانت عن فجيعة ومصيبة..وسندعم ذلك الرأي بأدلة وقرائن في السطور التالية..

حاول بعض المعترضين نفي هذه الأدلة على فساد مفهوم.."هز العرش "..قائلاً أن العرش اهتز لموت الصحابي.."سعد بن معاذ"..لأن الله أراد ذلك، وبالتالي أحال الفعل إلى المشيئة دون تحري أهم أمرين.."المصدر والنتيجة"..لم يبحث فيهما واكتفى بالتصديق بمجرد الخبر..وهذا سفه وجنون ، لإن بإمكاني الزعم أن العرش اهتز لموت أبي جهل وسأضع في ذلك خبراً مسنداً عن الرسول وأخترع كرامات لأبي جهل، وأطالبه

بالتصديق وأن يكون أبي جهل من سلفه الأولين وأن يفهم الإسلام بفهمه، سيقول أن هناك فارق بين سعداً وأبي جهل..أقول ومن أعلمك بذلك الفارق أليس المصدر؟!...أليست النتيجة؟!!...فلماذا لم تبحث في مصدر هز العرش لموت سعد بينما بحثت في مصدر هز العرش موت أبي جهل؟..هذا يعني أنه لو جاء لك خبراً في صلاح وإيمان أبي جهل ستصدقه دون تحري وبيان النتائج.!!

بالعموم هذه رؤية نمطية تُحيل كل غير مفهوم إلى مقدس....فلو استطاع إثبات رأيه بمنطق العقل أو القرآن أو حتى الحديث لفعل ، لأن هناك روايات أخرى تصدم هذه الحادثة وتضعها في المجمل موضع شك ، علاوة على كارثة إيمانه بأن حديث اهتزاز العرش هو وحي من الله بقوله أنه.."إرادة إلهية"..وفي المجمل هذا تحريف للإسلام لأنه يدعي كتاباً من الله غير القرآن، وفي تقديري أن ذلك من خداع فقهاء السنة للعوام حيث أوهموهم أن الحديث مساوٍ للقرآن في مكانته..وغضوا الطرف عن كذب المحدثين وتعارض الحديث مع القرآن في مئات المواضع.

كذلك يقول المخالف أن القول باهتزاز عرش الرحمن لموت سعد لا يعني أن سعداً في الجنة، وبذلك يكون حديث العشرة المبشرون صحيح..قلت كيف ذلك والبخاري يكتب في صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، حدثنا أنس رضي الله عنه، قال: أهدي للنبي صلى الله عليه وسلم جبة

سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» (صحيح البخاري 163/3)

وهذا يعني أن البخاري يعتقد ويؤكد أن سعداً في الجنة..وعليه فالمبشرون ليسوا عشرة، وأن سعداً الأنصاري هو من أهل الجنة خلاف ما هو شائع أن كل المبشرين قرشيون من المهاجرين..وعليه أيضاً فالسؤال يظل قائما..لماذا اهتز عرش الرحمن لسعد وهو لم يكن من المبشرين؟!.. وهل يجوز على رسول الله أن يكذب بادعائه منزلة لسعد تفوق منزلة الأنبياء ثم يختمها بأنه سيدخل الجنة قطعاً وليس مجرد تبشير..!!

من ناحية أخرى أن مجرد القول باهتزاز العرش -لأي سبب -هو قول صريح بالتجسيم والتشبيه في حق الله، رواة الأحاديث كانوا يعتقدون أن العرش مادة يجوز عليها الحركة، كما اعتقدوا أن الله جسم يجوز عليه الانتقال والنزول آخر الليل..فاخترعوا فضيلة لأحد الأنصار -سعد بن معاذ- من وجه المبالغة، وعليه فالسؤال مباشرةً هل سيهتز العرش مع الله أم بدونه؟!.. وما مفهوم العرش لديهم أولاً؟..وما العلاقة بين الله والعرش ؟!...هم لا يفهمون هذه الأشياء وقد أفاض بعضهم في الحديث عنها وتصوروا طبيعة وحقيقة العرش فضلّوا وأضلّوا.

إن العقيدة التي زعمت اهتزاز عرش الرحمن لسعد بن معاذ هي نفس العقيدة التي ادعت أن الله خلق آدم على صورة الله وأن الله كالشاب الأمرد وأن حملة العرش هم أوعال بقرون..ثم كذبوا ونسبوا هذه الأقوال

للرسول.!..كلها كانت تصورات طفولية بدائية للكون وللحياة، لأن العرب لم يبرعوا في علوم الكون والفلسفة والفلك، ومن برع منهم في هذه الأشياء أنكر على المسلمين اعتقادهم بتلك الخرافات ووقف ضدها ، وعلى الفور تصدى لهم كهنة الدين والمستفيدين من جهل الناس واتهموهم بالإلحاد..فقط كونهم بحثوا وبرعوا في علوم مستقلة، لأن الشيوخ والفقهاءكانوا يرون العلم الشرعي هو أبو العلوم..ومن يبرع فيه له الحق في أن يتكلم في سائر العلوم.!

بقي لدينا الحديث من أين جاء الاعتقاد باهتزاز عرش الرحمن..في تقديري أنهً ظهر بعد شيوع أكذوبة عذاب القبر ..ومنها استنبط الرواة ما حدث لسعد بعد موته، فهم كانوا في سؤالٍ دائم عن أحوال الموتى بعد دفنهم..ولي في ذلك بعض الأدلة:

أولاً: روايات اهتزاز العرش جاءت بصيغتين الأولى هي.."اهتز العرش"..والثانية هي.."اهتز عرش الرحمن"..الصيغة الأولى أول من تكلم بها هو الراوي.."سعيد بن منصور"..المتوفي عام 227 هجرية، أما الصيغة الثانية فأول من تكلم بها هو .." البخاري"..المتوفي عام 256 هجرية..وهذا يعني أن روايات اهتزاز العرش ظهرت فجأة بعد أكثر من 200 عام بعد وفاة الرسول وبالتالي بعد شيوع وانتشار أسطورة عذاب القبر بين المسلمين..لأن الاعتقاد بعذاب القبر جاء على استحياء في روايات قليلة من القرن الثاني الهجري..ثم توسع وانتشر بشكل يصعب السيطرة عليه في القرن الثالث المعروف بعهد التدوين الرسمي للأحاديث وانتقالها من رتبة الرواية إلى رتبة السنة..

ثانيا: المفردات التي استُخدمت في روايات سعد هي المفردات التي استخدمت في عذاب القبر مثل.."ضمة القبر "..وهي المفردة الأشهر تعلقاً بجمع الاثنين على السواء....تابعوا ما بين القوسين الكبيرين:

1-حدثنا ابن فضيل، عن عطاء، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: اهتز العرش لحب لقاء الله سعدا.......فلما خرج، قيل: يا رسول الله، ما حبسك؟ قال: «ضم سعد في القبر (ضمة) فدعوت الله أن يكشف عنه»..(مصنف ابن أبي شيبة 393/6)

2-حدثني محمد بن المنكدر، عن محمود بن شرحبيل، قال: اقتبض يومئذ إنسان قبضة من تراب ففتحها فإذا هي مسك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله، سبحان الله» حتى عرف ذلك في وجهه، ثم قال: الحمد لله لو نجا أحد من (ضمة القبر) لنجا منها سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم فرج الله عنه "..(مسند إسحاق بن راهويه 552/2)

3-حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.." لقد هبط يوم مات سعد بن معاذ سبعون ألف ملك إلى الأرض، لم يهبطوا قبل ذلك، ولقد ضمه القبر (ضمة)..ثم بكى نافع."..(مسند البزار 152/12)

4- أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا عمرو بن محمد قال: حدثنا ابن إدريس، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه» قال أبو عبد الرحمن: يعني سعد بن معاذ هذا"..(السنن الكبرى النسائي 474/2)

وغيرها من الروايات التي كانت تحاكي نظرة الفقهاء في تلك العصور لما بعد الموت، أفاضوا في الحديث عن القبر وأحواله، ومن ذلك الحديث خرج الاعتقاد بمصيبة موت سعد وتأثير ذلك على السماء، فخُدع البعض بها كونها جاءت في بداياتها مجازاً..حتى أصبحت حقيقة واقعة أن العرش قد اهتز فعلاً لموت سعد.

ثالثا: مشاعر الفجيعة والهلع التي كانت مصاحبة لمعاني الموت ، والتي عززها الاعتقاد بعذاب القبر..كل ذلك جعل من الاعتقاد بموت سعد هو فجيعة وكارثة اهتز لها الكون بأكمله، وإن كان في الموضوع ثمة مبالغة أو مجاز فهو قرينة على صحة هذا الجانب.

رابعا: وجود روايات تحكي اهتزاز عرش الرحمن لغير سعد مثل رواية.."إذا مدح الفاسق اهتز عرش الرحمن"..وهي كناية عن فجيعة مدح الفاسق..ومنها ما ذكره الأصبهاني في العَظَمة .."وأما السماء الخامسة: فإن عددها يضعف على سائر الخلق في صورة النسور منهم الكرام البررة، والعلماء السفرة، إذا كبروا اهتز العرش من مخافتهم"..(1055/3)

وبالتالي جاء مفهوم اهتزاز العرش عند العرب مساوقاً لمعاني العَظَمة والمصيبة في نفس الوقت، عَظَمة وجلال المشهد ..والمصيبة التي أشعرت ذلك العربي بهذا الجلال، حتى أنهم كانوا ينسبون هز العرش إلى أي حادثة عظيمة أو جريمة أو فعل مشين لديهم، ويمكن تلخيص بعض هذه الحوادث والأفعال فيما يلي:

1- موت سعد بن معاذ يهز عرش الرحمن
2-مدح الفاسق يهز عرش الرحمن
3-الطلاق يهز عرش الرحمن
4-اللواط يهز عرش الرحمن
5-بكاء اليتيم يهز عرش الرحمن
6-تكبير الملائكة يهز عرش الرحمن

لو أخذنا واحدة كبكاء اليتيم أو اللواط واعتبرنا أن العرش يهتز بحدوث أحدهم فهذا يعني أن العرش في حركة دائمة مهتزة ، فكم من اللواط وبكاء اليتيم يحدث كل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقة..!..صحيح بعض هذه الدعاوى أنكرها المحدثون ولكن شيوعها في عصرها دلالة على أن المسلمين الأوائل كانوا يعتقدون بها، وأن تلك الجرائم يهتز لها العرش تعبيراً عن الفاجعة والمصيبة، وقد بالغ أحدهم بقوله أن الله أمسك السماء أن تقع على الأرض من هول مصيبة اللواط، فهم كانوا يتصورون أن السماء جسم صلب لونه أزرق يشغل وظيفة السقف للدنيا على الحقيقة وليس مجازاً كما ذكر القرآن.

وعليها -ومما سبق -يتأكد لنا أن روايات هز العرش جاءت تعبيراً عن المصائب والصدمات والأفعال المشينة، وهم وإن كانوا يقصدونها مجازاً إلا أنه وبتوسعهم في التأويل والتفصيل وقعوا في خطيئة التشبيه ونسب الكذب لله وللرسول دون علمٍ منهم.

الطريف أن الألباني صحح رواية مضحكة تصف ما تحت العرش، فقال أن ديكاً عنقه مطوية تحت العرش ورجلاه مرقت إلى الأرض قائلاً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: .."إن الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض , وعنقه مثنية تحت العرش"..(صحيح الألباني)

والسؤال الآن: هل أثناء هزة العرش لم يلتوي عنق الديك ؟!!!!!!

هذه كلها خرافات تشبعت بها عقول المسلمين في زمن الانحطاط، ومن قوة غياب العقل الناقد بينهم شاع الجهل والفقر والحرب والكذب..وأمور أخرى هي موجودة حتى الآن ولا زالت مؤثرة، وما كانت تلك الحروب والفتن الطائفية -التي يعاني منها المسلمون- إلا دليلاً على ذلك الجهل الذي يُطل بأجنابه علينا من كل حدبٍ وصوب، فمن الإخوان إلى داعش انتشر الجهل والعنف والجريمة، حتى وفي ظل عصر الاتصالات والمعلومات لا زلنا نجد من يعتقد بوحش المسيخ الدجال ،ذلك الوحش الخرافي الإغريقي الذي يشبه وحوش السندباد في شكله وحجمه..سيظهر آخر الزمان كي يدعي الألوهية ويجري الله على يديه المعجزات.. فمن

كان يقبل هذا الخَرَف والعَتَه كيف تمنعه من قبول اهتزاز العرش؟!..بل هو لديه أهون.!

السبب في أن تراث المسلمين يعج بالخرافات والمبالغات والتجاوزات.. أنهم اعتمدوا في تدوينهم على إحدى حالتين ..إما الإثبات وإما الرد..لم ينتهجوا نَهَج العقل والموضوعية في التدوين والنقل..ففي الإثبات أراد المصنف أن يدلل على صدق رؤيته فزعم أخباراً وحشى لها حواشي كالصحاح والمسانيد والسنن، وكلها اعتمدت على الخبر المشروط بصحة السند ، أي أن معيارهم كان الثقة وليس الكفاءة..وهو ما تسبب في هدر ملايين الطاقات في قهرها أو تهميشها مجتمعياً، فانتشرت الخرافة والتكفير والإقصاء...وتخلفنا وانحطت أمة المسلمين.

وأما الرد فكان شغلهم الشاغل هو نقض رؤية الغير حتى تجاوزا في حق دينهم، فالنفس الناقدة دائماً هي عاجزة عن التحكم في نفسها، لأنه -وكما قال سيجموند فرويد- أننا ملك لأهوائنا ودوافعنا ويكذب من قال أنه يستطيع التحكم في نفسه وعقله دائماً..لذلك فالرد يوقع صاحبه في خطيئة نقيض المنقود، مثال من أراد أن يرد على المشبهة والمجسمة فرط لديه العقد ووقع في النفي والتعطيل والعكس، ومن أراد الرد على الشيعة وقع في النصب والعكس، ومن أراد الرد على المعتزلة وقع في الجبر، ومن أراد الرد على الجبرية وقع في الاعتزال......وهكذا..!!

لا أدعي أنني منزه عن ذلك، ولكن أحاول أن أكون منصفاً في نقدي، أنتقد الحديث ولكن لا أرده جملة، أنتقد شيوخ وفقهاء الدين ولكن لا

أردهم جملة، أنتقد الطوائف والجماعات ولكن لا أردهم جملة...أؤمن أن في الديانات والأفكار كلها خيرُ كثير، وهي مهما كانت ثقافات وسلوكيات بشرية لها وعليها..أما أسلوب الشيطنة عندي فهو مذموم مع حفظ تسمية الأسماء بمسمياتها، المتطرف عندي هكذا..والكذاب عندي هكذا..إلى أن يثبت العكس، والسبب أنني لست إنساناً عدمياً أو مثالياً بل أزعم كوني واقعياً لدرجة كبيرة، لا أرى الحقيقة في الأزمات إلا على الأرض، ولا شأن لي بحقيقة تظهر في غير معادها فيُفتن الناس بها وبغيرها ويضل الناس..

ما أكثر من وقع ضحية لهذه الخرافات ..هم بالملايين منذ بزوغ فجرها على المسلمين وحتى الآن، وصدق من قال أن العصور الوسطى كلها كانت عصور خرافة، ليس فقط عند المسلمين بل عند غيرهم، والعالَم ملئ بهذا البهتان الذي ضل الناس عن الحقيقة ،واعتقدوا أنهم وبخرافاتهم قادرين على التعايش، فانتشرت الحروب باسم الدين ونزعات الوصاية والتجارة بالأديان، لذلك أرى- ويرى غيري- أن الخطوة الأولى لمقاومة الإرهاب والتجارة بالأديان هي مقاومة ذلك التراث وإحياء دور العقل من جديد..

لا تخافوا فبإحياء دور العقل سيتعزز الاعتقاد بالأديان وليس العكس كما يوهم كهنة الأديان عوام الناس لتنفيرهم من العقل، ومعها ينتقل الإنسان من حالة التدين الشكلي إلى حالة التدين السلوكي والفكري، فالدين مهم لدى الإنسان،تقريباً يدخل في صلب تكوينه، حتى الملحدين أزعم أن لديهم نزعات إيمانية وما كانت ثوراتهم على الأديان إلا ردود أفعال نتيجة

لحماقات وتجاوزات المؤمنين، الأديان بُعِثت للسلام وللخير وللتوافق..وثمة ما كان غير ذلك فليس من الدين بل من عند الناس، والجهل يدخل –حينها-ليقوم بوظيفته أن يحمل الإنسان غيره على أفكاره بدعوى ضرورة حملهم على الدين، ومن هنا يدخل الشيطان مجرى ابن آدم من الفكر فيُوهم نفسه أنه مرسلُ من عند الله وأنه مصلحُ في الأرض..ولكنه كذاب فما أكثر من اعتقد إصلاحه ولكن في الحقيقة كان مفسداً ضالاً جهولاً بالدين وبالحياة وبالبشر.

رسالة في حديث صفية بنت حيي وحقيقة زواجها من الرسول

هذه الحادثة مشهورة تحكي بناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالسيدة"صفية بنت حيي بن أخطب" في غزة خيبر، وذلك بعد طُهرها من الحيضة الأولى في مخالفة واضحة لصريح القرآن، وقد اختلف الرواة في أمرها هل كانت زوجة أم ملك يمين...أنوه على أن هذا البحث هو ثمرة مجهودي في إحدى المواقع، فقد ناقشت القضية بكامل أركانها-تقريباً- حتى أننا لم نترك أمراً إلا وناقشناه، ولعدم سبق النتيجة سنترك للقارئ الكريم أن يكتشف النتيجة بنفسه...أيضاً فنوايا البحث ليست لتلميع أو لهدم كتاب أو شخص إنما هي محاولة للمكاشفة والوضوح وإزالة اللبس الذي اعترى الكثير من تراثنا التاريخي.

سؤال يدور في ذهني دائماً حين التطرق لقضية بحثية من قضايا التراث ..هل كان للإمام البخاري -كمثال- أن يستوثق صحة رواياته بأسلوب وآليات أفضل في زمانه لو قدّر الله له أن يعيش في القرن الحادي والعشرين؟!..الإجابة على هذا السؤال سيضعنا على مضمون النقد، وأن الانتقاص من الأئمة درب الجاهلين، فلا يقول قائل أن البخاري كان يتعمد الانتقاص من النبي إلا ويعتقد بأنه على غير ملة الإسلام -وحاشاه- بل نقول أن الانتقاص والاتهام لو حدث فهو عن جهل وبغير قصد منه، فهؤلاء الأئمة كانوا يتحركون بناءاً على قُدراتهم المحكومة بواقع زمانهم، فالأصل أن الفكر ابن الواقع وليس العكس وفي هذا مقام شرح طويل لا يتسنى لنا عرضه الآن... أيضاً فاعتقادي في البخاري وغيره -كمثله- أنه كتاب رواية بشرية غير معصومة، وأن الخطأ وارد فيه وبقوة، ومع ذلك أؤمن بأن أغلب ما في صحيح البخاري هو صحيح السند، أما أن ننسبه للنبي قطعاً فهذا بعد تبيان آحاده من تواتره ..فالثابت أن جمهور أهل العلم اتفقوا على أن رواية الآحاد- أياً كانت درجة صحتها- هي ظنية الثبوت لا قطع فيها كي ننسبها لرسول الله..وهذه نقطة في غاية الأهمية ويتغاضى عنها الشيوخ ويحجبونها عن العامة قصداً، وهذا أمر خطير بلا شك وقد نتج عنه أشياء لا تقل في خطورتها عن خطورة بناء إنسان عنيف أو كاذب أو منافق أو متناقض...وربما نتطرق لهذا الأمر مستقبلاً بإذن الله.

في البداية فقد استوقفتني عِدة روايات في صحيح البخاري بشأن بناء الرسول بصفية بنت حيي ، تقول الروايات بأن الرسول قد تزوجها بعد قتل زوجها وهي عروس، ولم ينتظر النبي قضاء عِدتها كما في كتاب

الله إذ قال الله تبارك وتعالى.. "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشرا "..الآية واضحة بضرورة انقضاء 130 يوماً على الأقل كي يجوز للمسلم أن يتزوج أرملة ..ولكن بعد مطالعة هذه الروايات رأيت أن البخاري قد اتهم النبي بمخالفة القرآن في تلك القضية ، وهذه هي الروايات بتمامها وسنعقبها بالصورة العامة المُنطبعة في الذهن ثم سنعقبها ببعض الإشكاليات للمناقشة:

أولاً:الروايات في صحيح البخاري:

1- حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

"قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغْنَا سَدَّ الرَّوْحَاءِ حَلَّتْ فَبَنَى بِهَا ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطَعٍ ..."

2-حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ عَنْ عَمْرٍو عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَبِي طَلْحَةَ الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ مُرْدِفِي وَأَنَا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ ثُمَّ قَدِمْنَا خَيْبَرَ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ

عَلَيْهِ الْحِصْنَ ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغْنَا سَدَّ الصَّهْبَاءِ حَلَّتْ فَبَنَى بِهَا ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطَعٍ صَغِيرٍ ..."

3-حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ح و حَدَّثَنِي أَحْمَدُ حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ أَخْبَرَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الزُّهْرِيُّ عَنْ عَمْرٍو مَوْلَى الْمُطَّلِبِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

"قَدِمْنَا خَيْبَرَ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا فَاصْطَفَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغْنَا سَدَّ الصَّهْبَاءِ حَلَّتْ فَبَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطَعٍ صَغِيرٍ"

ثانياً:الصورة العامة المنطبعة في الذهن

تصور هذه الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يسمع لجمال النساء، ثم وفي حادثة من الحوادث أن ذُكر له جمال إحدى النساء وقد وقعت في ظرفٍ صعب على كل امرأة وهو موت بعلها، فما كان بعد ذكر جمال هذه المرأة للنبي أن أُعجِبَ بها، ثم أخذها معه في غزواته حتى حاضت حيضةً واحدة(حلّت)،ثم ما لبث النبي إلا وأن بنى بها أي دخل بها أي عاشرها معاشرة الأزواج..

ثالثاً:الإشكاليات

1-الرواة يقولون أن النبي تزوج السيدة صفية أم المؤمنين لجمالها وذلك كسبب أصيل لتلك الزيجة، أما موت بعلها ذلك الظرف الصعب على كل إمراة لم يكن إلا سبباً ثانوياً .

2-الروايات تُجمع على أن النبي دخل بزوجته بعد تمام حيضة واحدة ليس أكثر، وهذا ترفٌ فكري وهذيان واضح لا يجوز لصقه للنبي الذي لم يكن ليُخالف كتاب الله ولو للحظة.

3-السيدة التي تزوجها النبي كان أبيها يهوديا وهو حُيي بن أخطب، وهذا الرجل تزعم بعض كُتُب السنن أن الرسول قد قتله بعد ربطه..يعني يقول الرواة أن النبي قتل رجلاً وهو أسير.(السنن الكبرى للبيهقي ج6ص526).

4-هذه السيدة أيضاً يدعي عليها ابن حبان بأن رسول الله قام بقتل زوجها وأخو زوجها (صحيح ابن حبان ج11ص607)

5-مما قاله البيهقي وابن حبان وغيرهم نرى بأن النبي قد قتل رجلاً ثم تزوج إبنته طمعاً في جمالها، وقام أيضاً بقتل رجل آخر ثم تزوج زوجته التي هي ابنة الرجل الأول لنفس السبب وهو أيضاً لجمالها..والأعظم أنه دخل بها دون أن تنقضي عِدتها....

-    ما الذي بقي إذاً كي ننتقص من نبينا بهذا الشكل؟!... إن هذه الصورة المنطبعة في ذهن الراوي أو كما سمعها دلالة على شيوع آفة النقل دون تمحيص..ودلالة أخرى على تعظيم السند دون المتن..هذا المتن الذي يوضح وبجلاء أن هناك أشياء في أنفس الرواة لصقوها للنبي عُنوةً -عمداً أو جهلاً –حتى وثقتها كُتُب المتون وصارت لدينا من الثوابت وأنه لا يجوز ردها طالما كان سندها موصولاً!.. راجعت شرح النووي على مسلم وشرح ابن حجر على البخاري فوجدت تبريراً لتناقض الروايات مع القرآن بحُجة .."عِدّة المسبية" ..وسوف نتعرض لهذه القضية من خلال البحث باستفاضة بإذن الله.

-

عرضنا هذه الرؤية على المخالف فقال أن الرسول بنى بصفية بنت حيي بن أخطب وهي سبية من السبايا ..وعدة المسبية هي أن تستبرئ بحيضة واحدة ، لما رواه أبو داود والإمام أحمد عن أبي سعيد (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في سبي أوطاس : لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير حامل حتى تحيض حيضة) . وصححه الألباني ، وهو مخرج عنده في الإرواء ....فلا تعارض إذاً لأن الآية عامة و حديث زواج النبي بصفية و حديث أبو داود و أحمد مخصصين للأية و هذا ظاهر.

قلت سنتخلى عن شرط الصحيح الذي لم يراعه من احتج بفقه سبايا أوطاس..وسنتعامل مع القضية كونها صحيحة السند وأن أي شبهة تعتري هذه الغزوة وأحداثها غير موجودة..! إذاً فعدة المسبية جاءت بناءاً على رواية تاريخية وثقت بناء الصحابة بسبايا المشركين في غزوة أوطاس..ولكن هذه الغزوة تكاد تكون مجهولة الزمن بشكلٍ كبير حتى

اختُلف فيها هل هي غزوة حنين أم هي فتح مكة وهما حادثتين وقعتا في السنة الثامنة للهجرة، وفي كلتا الحالتين فقضية صفية بنت حيي أسبق لهذا الزمن بعامين، كون قضيتها حدثت في غزوة خيبر -حسبما يقول الرواة-وهذه الغزوة كانت في السنة السادسة من الهجرة ، أي أنها أسبق من هذا التاريخ وبناءاً عليه يسقط الزعم بأن بناء الرسول بصفية- بعد طُهرها بحيضة واحدة- كان بناءاً على فقهه في غزوة أوطاس، فإن كان من تشريع سابق لخيبر يخص فقه السبايا وعِدتهن فأين هو؟

حقيقة فإن كون صفية في السبايا أو ينطبق عليها أحكام السبايا هو ليس مُشكلاً في حد ذاته كي ننظر للحادثة بعين الريب، لأن هناك خلافاً حاصلاً مع رواية أنس بن مالك في الصحاح حكى فيها زواج صفية من الرسول وهو ما يعطيها حق العدة للأرملة المنصوص عليه في كتاب الله..ناهيك عن دعوى الحجب فكلها مؤشرات تقول بأن النبي تزوجها وليست مِلكاً لليمين...إذاً ما الحل لكي لا يرد الشُرّاح هذه الروايات؟!..الحل هو القول بأنها سبية من السبايا، وأن عِدّة السبية الأرملة تختلف عن عدة الحرة ليس بمقدار شهر أو اثنين بل إلى ثلاثة شهور على الأقل، وهو فارق زمني كبير سيضع شبهات حول القضية برمتها...ناهيك عن الصورة المنطبعة في الذهن من جراء عدم مناقشة تلك الروايات أو التبرير لها بما يلائم ظرفها الزماني والمكاني وإهمال حتى آراء الأطباء وبذلك لا نرد رواية صحيحة!

هذا السلوك ليس مُقنعاً على الإطلاق فهو سلوك أقرب إلى التبرير منه إلى المناقشة المنهجية..حقيقة أنا اطلعت على معظم الأقوال في

القضية..إثباتاً ونُكرانا ..ثم سألت نفسي لماذا هذه القضية هي مشوشة عند الكثيرين حتى عند بعض طلاب العلم ، فتشوّش العقل من أحداثها يعني وجود ثغرات وأن الأحداث غير مرتبة وغير مقنعة فوق ذلك فهي تثير شُبهات حول أخلاق الرسول..قد تقنعنا نحن المسلمين أو نتعاطف معها كسُنة أو نجد لها التبرير المناسب -في ظننا- لأن هذا مذهبنا وهذا ديننا ويجب علينا فِعلُ ذلك..أما أن نُقنع بها الآخرين فصعب... .نحن لا نعي- حتى الآن- مقدار الخطر الحقيقي الذي يتهدد الإسلام بتشويه صورة نبيه..فلا يكفي أن ندافع عن نبينا بالكلام والتوصيف...إذ العقول تسأل وتنظر، ومن سأل ونظر ولم يُلقى لديه جواباً فسيثاوره الشك.

أيضاً فجميع الشروحات التي تناقش هذه القضية تعيش بالنص وتفكر به ولا تعيش في النص وتفكر فيه وتطرح ما فيه للتساؤل، قضية عدة المسبية أو ما قيل عنه فقه سبايا أوطاس الذي يحتج به الشُرّاح -كونه الدليل الوحيد-نسوا أن آيات الجهاد كانت تضع ضابطاً لمنع سبي نساء الأعداء تحت قاعدة.."ولا تزر وازرة وزر أخرى"..وأيضا.."واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون"..فكيف لا يرضى الله لهم الظلم في الآخرة ثم يرضاه لهم في الدنيا تحت باب السبي والرق؟!..

أيضاً فمن لا يرى في إعجاب النبي بجمال صفية وزواجه بها لأجله كسبب أصيل بحُجة أن الإعجاب بحُسن النساء طبيعة بشرية والرسول غير معصوم من هذا أقول... أنه ليس الإعجاب بجمال وحُسن النساء كونه أتى في سياق الافتراض فيكون سببا أصيلاً في أي زيجة للرسول ،

فالوارد في السنة غير ذلك حيث اشترط النبي على المسلمين أن يتزوجوا من تحققت فيهن تلك الصفات.."ذات الدين-الودود-الولود"..هذا كاختيار أولي مُعرف في قوله عليه الصلاة والسلام.."فاظفر"..أي هذه سنته وهذا سلوكه..وهذا يتسق أيضاً مع شخصية النبي وخُلقه في القرآن وصورته في كافة عقول المسلمين..هذا لو افترضنا أن النبي-حسب الروايات-سلك سلوكاً مشروعا في الزيجة..أي أتى لأبيها أو لولي أمرها يستأذنه ثم يدفع صداقها..ولكن الروايات تقول غير ذلك، فالروايات تقول أنه قتل أبيها بعد ربطه وهو أسير!..ثم أتى على إبنته ليتزوجها..ليس هذا فقط بل هناك روايات –صحيحة السند-تقول أن صفية وقعت في سهم أحد الصحابة ولكن بعد مشاورات أخذها النبي لنفسه ومنعها عن الصحابي فقط لمجرد أنها إبنة أحد أسياد اليهود كما سيأتي بيانه!

أيضاً نسى الشارحون بأن الله قد أنزل في سورة الأنفال أمراً بعدم الأسر ..يقول الله تعالى..." ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم"..وسورة الأنفال نزلت قبل غزوة خيبر بكثير فكيف يأسر النبي أمة ثم ينكحها تحت بند وما ملكت أيمانكم بعد نزول هذه الآية ؟!.. هذا يعني أن كافة روايات الأسر التي أعقبت نزول هذه الآية كلها محض خيال ولا علاقة لها بالنبي ولا بصحبه..وإلا كيف نجمع بين فهم هذه الآية وتلك الروايات التي تتعارض صراحة مع القرآن وأحداثه؟!

أيضاً نسى الشارحون أن حادثة صفية كانت في غزوة خيبر من السنة السابعة للهجرة، وسورة النساء التي نزلت قبل هذا التاريخ بعام أو

بعامين..وسورة النساء يقول الله فيها بعدم جواز وطء ملك اليمين إلا بشروط.." ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم"......الآية تقول وبوضوح أنه لا يحل إقامة علاقة جنسية مع مِلك اليمين إلا بشرطين قال البغوي.."وفيه دليل على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين ، أحدهم : أن لا يجد مهر حرة ، والثاني أن يكون خائفا على نفسه من العنت"..بينما الروايات تقول بأن الرسول أعجب بها فاتخذها لنفسه دون الصحابي..بما يثبت بأن الرسول لم يكن خائفاً على نفسه من العنت كي يبني بها..

سلمنا أن الرسول بني بها خوفاً على نفسه من العنت فكيف ذلك وخيبر لا تبعد عن المدينة تلك المسافة المكانية والزمانية التي تُجيز للرجل الخوف على نفسه من العنت..سلمنا أيضاً أن المسافة توجب هذا العنت فلماذا رأوا بناء الرسول بصفية بعد قتل أبيها وزوجها والآية واضحة أنه لا نكاح للأمة إلا بإذن أهلها، وهل يجوز أن أقتل من كان له سلطة زواجي بابنته أو أخته ثم أبني يها بعد قتل أبيها أو أخيها؟!..هذا إشكالٌ أخلاقي لم يُراعه الفقهاء ولم يبحثوا فيه.

سلمنا أيضاً أنه يحل للرجل أن يبني بالأمة بعد حيضة واحدة فما الذي يجمع بين الأرملتين الحُرة والأمة غير العدة المنصوص عليها في القرآن

وهي أربعة أشهرٍ وعشرا..ولماذا حملنا حديث أوطاس على الأمة ولم نحمله على الحُرّة، وهل العدة هي لحفظ الأنساب أم أن هناك أسباباً أخرى تراعي الحالات النفسية والاجتماعية، ولماذا راعينا هذه الحالات في الحُرّة ولم نُراعها في الأمة...هذا إشكالٌ أخلاقي يُضاف أيضاً إلى سابقيه... سلمنا أن صفية كانت مسبية وتنطبق عليها كافة حقوق وأحكام السبايا..إذاً ما هي هذه الحقوق وما هي الأحكام..هل لها وجود في القرآن أم هي مبينة على روايات تاريخية وحديثية متضاربة وأكثرها يحط من صورة وسمعة النبي في عقول وقلوب الناس...خلاصة ذلك أن من صنع عدةً مخصوصةً للجارية صنعها عن رواية وهذا عين التقليد وعبادة السند ، ولو تأملوا في القرآن لوجدوا أن الله قد شرّع فيه كافة صنوف العِدد من الأرملة إلى المُطلقة إلى التي لم تحض بينما لم يُشرّع أي عدة للجارية كون العدة مشروعة -كما هو واضح من القرآن- لأسباب بيولوجية وسيكولوجية وليس عن أسباب تصنيفية اجتماعية!.. فلننظر للقرآن سنجد أن لفظ"النساء" لم يُختص به مقام اجتماعي عن آخر، ولننظر أيضاً لأحكام الأسرى في القرآن سنجد أن جميعها مختصة بالحروب وظروفها ورؤية القائد مما يسمح لضمان حقوق أسرى المسلمين في المقابل..بينما لم يجعل الله للأسير أي حقوق متمايزة عن الحر اجتماعياً والعكس صحيح.

سلمنا أيضاً بصحة القصة كما وردت بتمامها في الصحاح وأن كافة الشبهات التي ألحقت بها قد تم ردها..ألم يقل الله عز وجل في سورة الأحزاب.."لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا

"...وسورة الأحزاب نزلت في السنة الخامسة للهجرة والآية واضحة بالأمر الإلهي للرسول بأنه لا يحل له أن يتزوج بعد نزول هذه الآية..!

سلمنا بصحة استثناء المسبية كيف ذلك وفي نفس الصحيح صحيح البخاري أيضاً يقول أنه تزوجها وكان صداقها عتقها :

1-حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حماد عن ثابت وشعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق صفية وجعل عتقها صداقها...صحيح البخاري

2-حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبد العزيز بن صهيب قال سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول سبى النبي صلى الله عليه وسلم صفية فأعتقها وتزوجها فقال ثابت لأنس ما أصدقها قال أصدقها نفسها فأعتقها..صحيح البخاري..

كيف ذلك ولا صداق للسبايا..هذا يؤكد-حسب كلام البخاري- أن صفية كانت زوجة وليست ملك يمين، فإذا قيل بأنه بنى بها وهي مسبية لذلك كانت عدتها أقصر مما نص عليه القرآن، أقول بأن الأحاديث الصحاح تؤكد أنه أعتقها وتزوجها وهذا يعني أنه بنى بها وهي زوجة، وقد مات عنها بعلها وهي زوجة أيضاً وبالتالي فهي تستحق العدة المنصوص عليها في القرآن كونها أرملة..فإذا قيل أنه بنى بها وهي مسبية ثم تزوجها بعد ذلك أقول أين الدليل...؟!

أظن أن الأمور اتضحت نوعاً ما..ولكن إمعاناً في البحث أكثر لرد كافة الشُبهات سنناقش أحد الأقوال عن الإمام النووي في شرحه على مسلم، وذلك إثر تعرضه لحادثة وقوع صفية في سهم دحية الكلبي، واشتباه القول "بأنانية وتصنيف" الرسول -وحاشاه أن يُقال عليه هذا..فقد قال النووي في شرحه على صحيح مسلم :"رأى في إبقائها لدحية مفسدة لتميزه بمثلها على باقي الجيش، ولما فيه من انتهاكها مع مرتبتها وكونها بنت سيدهم، ولما يخاف من استعلائها على دحية بسبب مرتبتها، وربما ترتب على ذلك شقاق أو غيره، فكان أخذه صلى الله عليه وسلم إياها لنفسه قاطعا لكل هذه المفاسد المتخوفة أ.هــ...

والحقيقة أن قول النووي حكايته رده ،فخلاصة طرحه أنه يقول بأن زيجة الرسول بصفية كانت لأجل مقامها ومركزها الاجتماعي..أما الصحاح فتنفي لحُجة النووي وتجزم بأن النبي تزوجها لجمالها- أياً كانت درجة الاهتمام...فأيهما نصدق تبرير النووي أم تصريح الراوي؟!.. أيهما أصح ..من قال أن سبب اختيار النبي لها هو"جمالها"..أم من قال أن السبب هو"كونها من أسياد اليهود"؟!..ولو فرضنا تحقق السببين فهذا يعني أن الروايات وصفت النبي بالأنانية وأنه عليه الصلاة والسلام كان يحسب لنفسه مقاماً أعلى من مقام الصحب اجتماعياً، وأن له حقوق أعلى من غيره ليست مشروعة في القرآن –وحاشاه أن يتقوّل عليه أحد هذا القول الشنيع!....أيضاً أنا لم أقل على قول النووي أن حكايته رده إلا لفساد حجته فساداً بائناً، فلازم قوله أن النبي يتزوج من سادات العرب حصراً ،فكم يكفي النبي من الأزواج والسبايا بنات الأسياد من كامل غزواته ومعاركه، ولازمه أيضاً أنه لا يحق للصحابي بأن ينكح السبية إلا وأن

كانت من صغار القوم وأسافلهم..فمن أين أتينا بهذا التفسير وهو يقدح في عدل النبي ومقام صحابته لهذه الدرجة؟!

إن معنى وقوف صفية أمام النبي ليُعاين جمالها كما وُرد في الروايات يتعارض مع كونها زوجة النبي لأجل أنها من بنات الأسياد وهذا رد صريح على تأويل النووي..أما التبرير بخصوصية بنات الأسياد للرسول وتأويله بالحكمة –كما يفعل البعض-فهذا عين التفكير بالنص الذي استشكلت على مثله من كلام الأئمة..لأنه حتى لو قطعنا بصحة الرواية فتأويل الحكمة يلزمه الوضوح ونظام الأفكار، ولكن الحاضر عكس ذلك إذ القضية يملأها الغموض!.. فما بالك بظني الثبوت وأحاديث صفية جميعها آحاد ظنية الثبوت..أقول أننا مطالبون بالتفكير في النص وليس بالنص-كما أسلفنا...على الأقل لنخرج من مُعضلة المُطلق والنسبي هذه التي تُعد العائق أمام فهم تلكم الأمور.... أي مسألة اجتهادية أو بحثية نقابلها بإشكالية المطلق والنسبي فلن يتم حلها..أرى أنه لو قمنا بإخراج عقولنا -جميعاً من أي فكرة أو اعتقاد مسبق فسنرى القضية بشكل أوضح...ذلك لأن التفكير عن قناعة مسبقة يُخرج الفكرة من سياق البحث إلى سياق التأكيد أو التبرير..

على الهامش ..فروايات صفية بنت حيي جميعها أخبار آحاد وجميعها تمس جناب وسمعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم..والآحاد لا قطع فيها بالحدوث إذ شهد جمهور الأمة تحرزاً في قبول روايات الآحاد في العقائد وأعدوها ظناً والبعض غلبة الظن، فما بالكم بما يمس جناب وسُمعة النبي، وألا يعتد بجناب النبي عقيدةً أم ماذا؟؟!..ومن هو ذلك الشخص

الذي يعد أعظم البشر في الإسلام من النبي كي ندفع عنه النَقَص والزلل؟؟!..أسألكم بربكم لماذا كان الفاروق رضي الله عنه يحترز في قبول خبر الواحد..ومثله أم المؤمنين عائشة وذي النورين رضي الله عنهم أجمعين؟!...هل كانوا حين احترازهم يطعنون بالصحب والأتباع أم أن منهاج التحقق لديهم كان يقتضي التواتر، وهل كان مسلم مُحقاً حين صحح رواية مالك بن أوس التي شتم فيها العباس الإمام علي عليه السلام ووصفه" بالكاذب والغادر والخائن والآثم" أم أن مسلم أخطأ أو الراوي نفسه قد أخطأ..فلماذا لا نحمل الخطأ على الراوي بدلاً من حمل الخطأ على النبي وصحبه.

أخيراً ومع كل هذه المناقشات سيخرج علينا من يُحذرنا بالويل والثبور وعظائم الأمور فقط لمجرد تجرأنا واستخدامنا لعقولنا التي حبانا الله بها لمعرفة الدين ولمناقشة ما جاء به البخاري في صحيحه...لا تستهينوا ياأخوة بما لصق في أذهان الناس عن البخاري ، فمن كثرة تعظيم الأئمة والخطباء له بات الرجل وكتابه قرآناً ثانياً يعتقده الناس عملياً وليس نظرياً..ولو تكلم فيه الخطباء بمنطق الصحيح والضعيف والخطأ والصواب لكان للناس صورةً أخرى تسمح بنقد ما جاء في الكتاب متعارضاً مع القرآن والعقل..ولكنهم لا يفعلون.. لذلك أعذر كل من اعتقد هذا الاعتقاد –عن جهل-فهي تقريباً ثقافة عامة ،وهي بحاجة لتبيان وشرح وإخلاص علمي وخُلقي يدفع الناس لتغيير توجهاتهم بناءاً على الدليل وليس على الشخص والسُمعة.

إن المسلمين في هذا الزمان لا يستشهدون بالقرآن في نقاشهم وخُطبهم أكثر من الروايات الحديثية والتاريخية، حتى أنهم لايقرأون كُتب الحديث والتاريخ أصلاً..ولكنهم فقط يتلقفون المشهور الوارد عن شيوخهم ومراجعهم، حتى أنك لو عقدت استطلاعاً للرأي أي الروايات الحديثية الأكثر شُهرة ستجد أن حديث"حفوا الشارب واعفوا اللحى" هو الأكثر شُهرة..ويليه حديث "افترقت الأمة"..ثم حديث المعازف..ثم أحاديث تحريم العطور والذهب..قد تختلف الدرجات والرُتب لكن هذا مثال للتقريب، أن ثقافة التحريم لدينا أشد وأقوى تأثيراً وشيوعا بين الخطباء والعامة.. لذلك أنا لا أستغرب أن لو أردنا نقاش مسألة تخص سمعة النبي مع طلاب العلم أن يخافوا من الحديث والاجتهاد خوفاً على أنفسهم من العامة..ولكن مع ذلك فقلوب العامة تتصل بالنبي أكثر من هؤلاء الشيوخ والطلاب ،ولو سألت العامة هل تقبلون أن يُقال على النبي أنه كان شهوانياً؟!..لكانت الإجابة أسرع من البرق..سيُنكرون..نعم سيُنكرون لأنهم لا يعلمون ما دُسّ في الكتب وأوذي منه النبي..هؤلاء لا تزال عقولهم على الفطرة والعلم الصحيح..بينما الشيوخ –وكالعادة-سيختلقون التبريرات ولديهم أساليبهم التي تكفي للدفاع عن الراوي مهما كانت تلك الرواية تتصادم مع القرآن والسنة والعقل!

أقول أنه لا أصنام في الإسلام نعبدها، فلا إله إلا الله ولا معصوم إلا محمد ، ولا نبي معصوم إلا ما بلغنا في القرآن من خبره، ولا حق إلا الحق ، ولا شخص غير معصوم فوق المسائلة، ولا أحد فوق النقد حتى لو كان صحابياً لنعتبر..هكذا نفهم الإسلام دون تلوّن أو تمذهب، فالإسلام يحض على الوحدة والاعتصام لا على التنابز والتشتت،وما جعل الناس

مختلفين إلا باختلافهم في تصور الحق في شخوصهم ومذاهبهم وأحزابهم، فلنجعل الحق ضياءاً في سماءٍ واحدة تجمعنا، ولنسلك إليه كلٌ بطريقته دون إنكارٍ على مسالك الآخرين، فالأهم أن تصل للحق حتى لو اختلفت الوسيلة أو حتى بعض الدوافع، أما أن نجعل الحق في أنفسنا وآرائنا فهذا ما سيقودنا إلى التبلّد والنفاق وسوء الأخلاق والإسلام برئٌ من هذا كله...

رسالة في المسيخ الدجال

هل المسيخ الدجال خرافة ؟...ما عليك إلا أن تكون شاهدت مسلسل السندباد أو فيلم لص بغداد أو جاسون وآلهة الحرب والسيكلوب بعين واحدة ، والتنين الذي ينفث النار..ثم تأمل قليلاً لتتخيل شكل المسيخ الدجال، كي تعلمه وتحذره ثم يهبك الله القوة لتنتصر عليه ، وبعدها يعم السلام والخير هذا العالَم..إنها ميثولوجيا مُخلّص آخر الزمان وأمنيات الضعفاء والحمقى بانتصارهم دون جُهد، ولا زالوا في شوقٍ لهذا المخلص الشجاع الذي سيهب الله على يديه الخير والسلام لهذا العالَم، مرات ومرات تنتكس فيها الشعوب وقد طال بها أمد الانتظار.

سنتعرض في السطور القادمة لحلقة من حلقات الغش والخداع الذي تعرضت له أمة المسلمين، ولكن الغشاشون المخادعون هذه المرة لم يكونوا صهاينة أو أمريكان، بل كانوا مسلمين ويُعرفون لديهم.."بأهل الحديث"..نسبوا عقيدة ساذجة وسطحية لرسول الله، ظنوا أن المسلمين

مجرد قطيع يسمع ويُطيع، وأن هؤلاء.."الغنم"..مُصيّرون لأمرٍ واحد، أن يتبعوهم بلا عقل وبلا ضمير حتى فشا فيهم الإرهاب والجهل والنطاعة.

1-قالوا أن الرسول حذر من المسيخ الدجال ، ولكن لم يقولوا أن الرسول لم يكن يعلم من هو الدجال..هل هو ابن صياد الذي أقسم عمر بن الخطاب أنه الدجال أم أنه وحش الجساسة الذي رآه تميم الداري في الجزيرة المشهورة؟ لو قلنا أنه ابن صياد فأحاديث الجساسة مكذوبة وتميم الداري مخادع كبير أو أنه لا يعلم عن الجساسة شيئا ، ولو قلنا أنه وحش الجساسة فأحاديث ابن صياد أيضاً مكذوبة وعمر لا يعلم عنها شيئاً...الآن من الصادق ؟!!!

2- قالوا أن الدجال أعور وأن الله ليس بأعور ،ولكن لم يقولوا أن هذا تشبيه وتجسيم في حق الله، فنفي العَوَر عن الله يُجيز أن يكون الله بعينين مثل الإنسان..!!..ولم يقولوا أيضاً أن تلك عقائد المجسمة أن يُشبهوا الله بالإنسان ، ويزعموا أن له عينين ورجلين وبطن ويدين لا فارق بينه وبين مخلوقاته ، رغم أن الله في آية صريحة ومباشرة وقاطعة وحاسمة قال أنه ليس كمثله شئ..

3-قالوا أن الرسول يعلم ظهور الدجال ، ولكن لم يقولوا أن الأحاديث أظهرت النبي إنسان ضعيف ومتردد -معاذ الله- لا يعلم من أين سيظهر الدجال، هل من بحر اليمن أو من بحر الشام أو من جهة المشرق..ولم يقولوا أيضاً أن هذه الجهة التي سيخرج منها ستكون بين الشام والعراق،

وهذه الجهة بالنسبة للنبي هي جهة الشمال..الآن من أين سيظهر الدجال..هل من البحر أو من الشمال أو من الشرق ؟!!

4-قالوا أن الأحاديث في شأن الدجال متواترة ، ولكن لم يقولوا أن الأحاديث زادت بطريقة مريبة منذ أن رواها مالك في الموطأ، تابعوا معي هذه الإحصائية عن أحاديث الدجال

الإسم -تاريخ الوفاة- عدد الأحاديث

ا- موطأ مالك - ت 179 هــ- روى 4 أحاديث فقط

ب-مصنف عبدالرزاق- ت211 هــ- روى 23 حديث

ج-مصنف ابن أبي شيبة -ت 235 هــ -42 حديث

د- صحيح البخاري -ت256 هــ- 51 حديث

هــ-صحيح مسلم -ت 261هــ - روى 60 حديث

الملاحظ أنه كلما تقدم الزمن كلما زاد عدد الأحاديث..ففي موطأ مالك أربعة فقط، وفي صحيح مسلم 60 حديث في شأن الدجال..فهل كان الإمام مالك يعلم ما كتبه مسلم في صحيحه ؟!...ولماذا زاد عدد الأحاديث بهذه الطريقة المريبة ؟!

5-قالوا أن الدجال يُحيي ويُميت ،ولم يقولوا أن الإحياء والإماتة صفة لله وإسم من أسمائه المقدسة اختص بها وحده دون غيره، ولم يقولوا أن الإنسان ضعيف تفتنه كرامة صغيرة مثل دعائه للمرضى بالشفاء فيشفيهم الله بإذنه، وقتها سيتبعه الناس ويُفتنون به شر فتنة..فما بالكم بالإحياء والإماتة ؟!

6-قالوا أن الدجال يعلم الغيب وأنه يعلم متى تجف بحيرة طبرية، ولكن لم يقولوا أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وان ادعائهم بعلم الدجال للغيب يُساوي ألوهيته على الحقيقة.

7-قالوا أن الدجال سيأتي بالمعجزات ،ولم يقولوا أن المعجزات يؤيد الله بها خلقه ليؤمنون لا ليكفرون كما سيأمرهم الدجال ،فمعجزات سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وعيسى كانت ليؤمن الناس بدعوة الله ووحدانيته، أما معجزات الدجال فهي للعكس أن يكفر الناس بالله لا ليؤمنون..!!... هذه ليست معجزات والقول بها هو مخالفة لمفهوم الإعجاز في الإسلام ويعني الكرامة الإلهية في محل الصدق لا الكذب ، لأنه لا يمكن أن يؤيد الله أحداً بمعجزة كاذبة.

8-قالوا لماذا تهتم لأمر الدجال وهو عندنا من علوم الغيب ؟ ..ولم يقولوا أن مجرد قولهم بالدجال هو تشريع للكسل وعدم السعي والعمل الجاد والصالح، فقد انتشر الكسل والسذاجة بين المسلمين بسبب هذه الخرافات، وساد منطق ضرورة فساد الأرض وفساد الناس قبل يوم القيامة، وأنه لا جدوى من مقاومة الباطل طالما سيأتي آخر الزمان من يهدمه ويقيم الإسلام ويعمه في أرجاء الأرض ، هذا منطق أسطوري لأن توحيد الناس تحت دين واحد ولواء واحد لا يمكن أن يحدث، وهو مستحيل من الناحيتين النظرية والعملية..قال تعالى .."ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم "..إذن فاختلاف الناس تحت ألوية متعددة وأمم كثيرة هو في مشيئة الله، وبالتالي

فالقول بأن الناس ستكون آخر الزمان أمة واحدة تحت دين الإسلام هو قول غير صحيح شرعاً.

9-قالوا أن الدجال سيمكث في الأرض أربعون يوماً.. يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع وسائر أيامه عادية ، ولم يقولوا أن قائل هذا الكلام كان يعتقد أن الأرض ليست كروية وأنها لا تدور حول محورها وأن القول بأن اليوم كسنة يعني تباطؤ حركة دوران الأرض إلى سرعة منخفضة جداً.. لدرجة أن الأرض ستتجمد وتنعدم فيها كافة أشكال الحياة...!!!

10- قالوا كيف تستغرب أن يوم الدجال بسنة وتزعم أن حركة دوران الأرض ستتباطأ حتى تعدم الحياة على كوكب الأرض..وما قولك في أن الشمس ستطلع من مغربها وهذه من علامات الساعة ؟..قلت : أن طلوع الشمس من مغربها يعني دوران الأرض في الاتجاه المعاكس ، وهذا لن يحدث فلكياً ورياضياً قبل توقف تام لحركة الأرض، والعلم يقول أن الأرض لو توقفت عن الدوران ثانية واحدة سنطير جميعاً في الهواء حتى نموت جميعاً في الفضاء.

11- قالوا أن الدجال سيرسله الله للبشر كافة كي يفتنهم في دينهم..ولم يقولوا أن الأحداث الواردة بشأنه تدور في منطقة جغرافية ضيقة للغاية وهي الشام والعراق وسيناء وتركيا، ونسوا أن الكرة الأرضية تضم أوروبا وآسيا والأمريكتين واستراليا وأفريقيا..كل هذا خارج صلاحيات الدجال..وذاك دليل على أن واضعي هذه الأحاديث كانوا يرون العالَم

محصور في منطقة محدودة هي كل العالَم لديهم ...وهي مركز نشاط الدجال المزعوم..

12- قالوا أن قبيلة بني تميم هي أشد القبائل العربية على الدجال ، ولم يقولوا أن هذه نزعة قِبلية عصبية نهى الرسول عنها ولم يأمر بها أو يُعلي من شأن قبيلة على أخرى، فالأفضلية بالتقوى والعمل الصالح لا بالانتساب للقبائل..حقيقة أن البعض لا يعلم أن أحاديث الدجال تضمنت مدحاً في قبيلة بني تميم على وجه الخصوص، والواضح أن مخترع هذه الأحاديث كان تميمياً أو من أقربائهم...الغريب أنه وبعد وضع قبيلة بني تميم أحاديث في فضلهم وشدتهم على المسيخ الدجال، وضعت قبيلة عنزة –العدو التاريخي لتميم-أحاديث أيضاً في فضلهم تقول..."نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون" ..(مسند أحمد 139/1)..هكذا كان صراع القبائل قديماً وصل إلى حد وضع الأحاديث كذباً على رسول الله.

13-قالوا أن في عصر الدجال سيفتح المسلمون القسطنطينية ، حيث قالوا في الحديث المشهور.."لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ... فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون ... فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته"

ولكن القسطنطينية تم فتحها عام 1453 ولم تحدث هذه الأحداث السينمائية ، ولم يقول لنا الأشاوس أن ما يسمونه.."بفتح القسطنطينية"..هو فتحاً واحداً غير مصحوب بالفتح الثاني أو الثالث، كي لا يزعم أحد منهم أن المقصود ليس هو الفتح الأول، وهذا يعني أن مدينة القسطنطينية كانت عصيّة على الفتح في زمانهم فتخيلوا أن فتحها هو من أشراط الساعة....!

14-قالوا أن الحرب في آخر الزمان ستكون بالسيوف والرماح ، ودافع بعض المعاصرين عن هذه الفرية ، وقالوا أن الله سيُهلك الأسلحة الحديثة ومنها الطائرات والصواريخ وكافة أنواع الأسلحة المعاصرة ليعود الإنسان مرة أخرى إلى عصر السيوف والرماح..
وهذا قولُ باطل من وجهين:

ا- أن هذا قولُ صريح بزوال الحضارة من أجل فقط تصحيح قصة الدجال، رغم أن القرآن في أكثر من موضع أشار إلى أن هلاك الأرض سيكون بعد وصولها لقمة الحضارة والعُمران بما يُغري الإنسان للكُفر بنعمة الله..قال تعالى.." حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا"..وفي الآية إشارة إلى أن هلاك الأرض سيكون في ظل حضارة قائمة تقوم عليها الساعة .

ب-أن هلاك الأسلحة لا يعني هلاك عقل الإنسان، فالعقل الذي أبدع وأنتج هذا السلاح سيُنتج غيره، إلا إذا كان المقصود هو هلاك عقل الإنسان نفسه وهذا لا يجوز منطقياً، لأن الساعة ستقوم في ظل تكليف الله

للإنسان ولا يمكن أن يهلك عقل الإنسان إلا إذا أصابه الجنون، والمعلوم أن الجنون ضد التكليف ،فإذا كان المقصود هو تخلف عقل الإنسان يكون السؤال، وهل التخلف سيصيب السلاح دون العمران، أو الزراعة أو الصناعة؟..هذه أشياء لم يفصلها هؤلاء الكذابون الوضّاعون لأن قصص الدجال ظهرت في عصرٍ كان يُحاكي ظروف الحرب القائمة في حينه، ولو فطنوا لقول بأن الحرب ستكون بالجمال وأن ركوب الحمير سيعود مرة أخرى لقالوا ذلك..!

الخلاصة: أن القول بهلاك السلاح والصواريخ لصالح أن تعود المعارك بالسيوف مرة أخرى.. هو قولُ أحمق ولا يُصدقه من كان يملك ذرة عقل، وأعترف أن هذه الجزئية بالذات كانت مُشكلَة لدي في أيام كنت أعتقد بصدق أسطورة الدجال، ولكن لعدم وفرة المعلومات لديّ لم أجد البديل .

أخيراً فإن حُجة واحدة على هذه الفرية.."العبيطة"..المُسمّاة بالمسيخ الدجال كافية للقضاء عليها وخلع جذورها للأبد، ولكن لا غرابة أن يكون المسلم في عصر الاتصالات والأقمار الصناعية أن يُصدق بأن الدجال محبوس في جزيرة مجهولة وسط المحيط، جزيرة لم ترصدها الأقمار الصناعية أو خرائط جوجل، وأن الدجال محبوس فيها لينتظر أمراً إلهياً له بالخروج لكي يهدم البيوت ويُفجر القنابل ،ويدعي الألوهية ، ويُحيي ويُميت، ثم بعد كل ذلك يركب الحمار ، ولا أعلم الحكمة من ركوبه للحمار ولديه سلطات الإله بأن يفعل ما يشاء، ياللسخرية والفضيحة، إله يركب حمار..!!...إنه لا غرابة لذلك في قلوب المسلمين ومن يُصدقون

أهل الحديث، فقد اعتادت أمة المسلمين أن تتعايش مع الكذب حتى تتجرع مرارته بنفسها، وفي كل مرة تنتظر الفرج ولا يأتي...

رسالة في عذاب القبر

من المُحزن ومن الصعب على النفس البشرية أن تعتقد في دينها أمراً هو لدى الآخر حُجة عليها ، فمفهوم ذلك الحبل الفكري والأخلاقي الذي يربط كافة البشر في تعيين مفاهيم كالصدق والكذب والبطش والرحمة والدين والحركة والسكون والنظر إلى الكون والجنس وسائر المفاهيم البشرية والتي لا تكاد تجد في أمرها خلافاً عدا بعض متعلقات ومصاديق تلك المفاهيم بين الناس..رأيت محاولات محمومة لتحذير الناس من حَدَث عظيم يغرسوه في أنفسنا منذ الصِغر، وكأن هذا الحدث هو لدينا أعظم من أهوال القيامة وعذابها، بل من رحمة هؤلاء أن كان هذا الحدث لديهم عذاباً دون النعيم، وكأن في مُخيلتهم ذلك القرع والزجر يهيمن على مفاصلهم ويشل طاقاتهم الفكرية والذهنية فلم يعودوا يعرفون إلا الاستعاذة منه والاستغفار لأجله.

إن فكرة الدين كي تخرج إلى مجال العمل والبناء لابد لها من فك قيود الإنسان وزرع مهابة الحق في نفسه..ذلك لصناعة الإنسان الحر المبادر والذي لا ينظر للأشياء كوعاء يحتويها لنفسه ورأيه.. بل ينظر إليها كقائد لها وموجه، مطلوب فكرة سويّة تؤمّن له الحُرية والمساواة والعدل له ولغيره ، فإذا كان خطاب من يتحدثون في هذا الحدث خطاباً واحدياً ..تحذير دون تبشير، تخويف وإرهاب دون أمان واطمئنان فما حاجة

الإنسان للتصديق بهذا الحدث؟!..إن من زرعوا في أنفسنا عقيدة "عذاب القبر" تغافلوا عن ماهية الإنسان المفكر الحُرّ والذي لا يقبل على نفسه الانقياد والتبعية، وأنه يفهم الدين بحكمة العدل التي توازن بين مشاعر الحب والكراهية..زرعوا فينا عقيدة مشوّهة أقرب إلى الحكايا والخُرافات منها إلى العقائد الثابتة والفاصلة، وكأنه ولابد لنا لكي نتميز في عقائدنا عن الآخرين أن نتميز عنهم بعقيدة 99% منها عذاب وزجر وبطش ومرزبّات تضربنا لتهبط بنا إلى سابع أرض وشُجاع أقرع يأكل جثثنا"المتحللة"ولا أعلم لماذا لم يسأل هؤلاء الجهابذة أنفسهم كيف لجثة تحللت أن تشعر بعذاب أو أن يجري عليها هذا العذاب أصلاً.

سيقولون ولماذا لا تنطق ذلك على الشهداء فقد صرّح القرآن بحياتهم وبالتالي فهم يشعرون، وكأنهم يريدون للقرآن بأن يتقيد لمفاهيمهم الضيقة ورغبتهم "المتكررة" في تقييد القرآن بكلام الرواة، فمفهوم أن الشُهداء غاية ما بلغ إلينا من خبرهم أنهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ولم يأتِ إلينا تصريحاً بأحوالهم في القبر بل لم يُذكر قبر أصلاً..وبالتالي يسقط الاستشهاد بمصيرهم لانتفاء القضية، أيضاً فالموت موت والحياة حياة هكذا نفهم آية الشُهداء في قوله تعالى.."أمواتاً بل أحياء"..والمغايرة بين الحالين ثابتة بنصّ الآية، وكذلك في ثبوت الموت على ما دون الشهداء-بمن فيهم الأنبياء- وأن استثناء الشُهداء بالحياة يعني في مضمونه سريان كافة خصائص الحياة عليهم، ومن يبتدع في كتاب الله أمراً ليس فيه بتأويل الآية لعموم الناس فالله حسيبه، فبدلاً من أن نُعطّل أحكام وقضايا الدين بحرفها عن فهمها"الفطري"لابد لنا من تشجيع أنفسنا على التمسّك بكتاب الله .

أيضاً فمن المقرر لدينا في الدين أن الله يحاسب عباده بموجب صحائفهم وهذا مُقرر سلفاً في مشاهد الحساب.. وحكمته أنه لا عذاب قبل ثبوت التُهمة، وما جاء إلينا من آثار"عذاب القبر"لم يحل هذه المُعضلة والتي تكاد تكون من ثوابت القرآن ومُحكماته، كذلك في إعطاء فرصة لكل نفس لأن تجادل -تدافع- عن نفسها كي تبقى الموازين بالقسط فلا يُظلم أحد...غاية ما أتى إلينا في هذا الشأن هو سؤال القبر.."من ربك وما دينك...إلخ"..وهو تصوّر دنيوي تم إسقاط آيات التثبت عليه ليكتمل المشهد، ولم يُجيب أحدهم عن الحكمة من بقاء هذا النوع من العذاب إلى يوم القيامة حيث كان بقائه يُثبت مظلومية أكثر الناس، فمن مات منذ 1000 عام سيُعذب ولن يتساوى مع من مات قبل القيامة بعام أو بعامين..وهكذا.

وعندما نقول لهم بأن القرآن يخلو من تلك العقيدة"الهمجية والخُرافية"يستدلون علينا بأقوى أدلتهم وهو قوله تعالى .."النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ".. ولكن ماذا نفعل فيمن عطّل تفكيره وشلّ حركته عن العمل، ولما لا والمؤمن بهذه "الخُرافة"هو مُقيّد أصلاً ولا يرى بعقله ما يراه ويسمعه من شيوخه..فالآية ليست محل نزاع لأننا لو قرأنا الآية -دون أي مرجعية مسبقة تحملنا على تفسير القرآن بأفكار موروثة- سنرى هذه الأشياء جلية واضحة:

1-أنهم يُعرضون على النار وليس "يُعذبون في النار"..

2-يُفهم من الآية بقاء النار في موضعها وانتقال أصحاب العذاب إليها..

3- الآية تتحدث عن فرعون مع كل جبروته وكُفره وطُغيانه إلا أنه لم يُعذب في النار.

4-عدم اختصاص الآية بفكرة "عذاب القبر"إذ الوارد في كُتب الصحاح أن عذاب القبر كطريقة وكأسلوب وأدوات ليس كعذاب النار وبينهما من الاختلافات ما شاء الله.

5-الآية قطعية الثبوت ولكنها ظنية الدلالة لاختلاف العلماء في أشكال العرض والعذاب المقصود من تفسير الآية لها..يعني ذلك وجود مساحة فراغ شاسعة تفتح عدداً من الأقاويل.

6-أن الآية لا يوجد بها أي لفظ يفيد معنى"القبر"والمقصود من الآية هو"البرزخ"..ولكن الخلط بين معاني البرزخ والقبر هو الذي أحدث هذا الاشتباه..ولو قرأ كلٌ منا الآية دون أي مرجعية مُسبقة سيرى أنها تتحدث في أمر آخر تماماً غير الذي سيق لها .

بالعموم الآية ليست محل نزاع لأنها لا تُثبت أو تنفي ما يُسمى"عذاب القبر"..وأنها مخصوصة لقوم فرعون وحدهم.. ومع ذلك لم نرَ لهم عذاباً يُذكر سوى العَرض، وإذا قيل أن العرض نفسه عذاب فهذا تقرير بوجود عذاب في القبر بغير ما ورد إلينا في كُتب الرواة والمحدثين..ناهيك عن

حال المغايرة الوارد في"ويوم تقوم الساعة" والذي أعقبه ثبوت العذاب في الآخرة..وهذا يعني أن العرض في مضمونه ليس إلا عذاباً نفسياً يفصل بين مفهومنا عن عذاب القبر وبين المفهوم الشرعي للبرزخ ووجود الأنفس فيه إلى يوم الساعة...فإذا قيل أن هذا التفسير بِدعٌ من القول ولم يسبق به أحد فالحكمة في الإسلام ضالة المؤمن ولو قال بها ملحداً فالحق معه، ومع ذلك فالشيخ محمد متولي الشعراوي-رحمه الله-يقول بأن آية العرض لا تثبت"عذاب القبر"إذ أنها تختص بالعذاب النفسي دون البدني وأحال الشيخ وجود ما يسمى"بعذاب القبر" كون العذاب يقتضي أولاً الحساب وبالتالي فالقول بالعذاب دون الحساب ليس من الشرع في شئ.

كذلك فالإمام الفخر الرازي صاحب"التفسير الكبير"ينفي اختصاص هذه الآية بإثبات أو نفي ما يُسمى"عذاب القبر" حيث يقول في تفسيره:

"احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا الآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشياً، وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال: { وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُواْ ءالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ } ، وليس المراد منه أيضاً الدنيا لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذ ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق، فإن قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدواً وعشياً عرض النصائح عليهم في الدنيا؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار، ثم نقول في الآية ما يمنع من حمله على عذاب

القبر وبيانه من وجهين: الأول: أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائماً غير منقطع، وقوله { يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً } يقتضي أن لا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر الثاني: أن الغدوة والعشية إنما يحصلان في الدنيا، أما في القبر فلا وجود لهما، فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر. انتهى.

قلت:أضيف أن الآية مكية في سورة غافر وهذا يعني-حسب الآية أن الرسول والصحابة وأمهات المؤمنين كان يعلمون"بعذاب القبر"قبل الهجرة ولكن مع ذلك فلدينا آثار عنهم تقر جميعاً بأنهم كانوا يجهلون"عذاب القبر"في تلك الفترة وأن امرأة يهودية-كالعادة-هي التي نبهت السيدة عائشة والرسول لهذا الأمر في المدينة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

1-"دَخَلَتْ عَلَيْهَا يَهُودِيَّةٌ اسْتَوْهَبَتْهَا طِيبًا فَوَهَبَتْ لَهَا عَائِشَةُ فَقَالَتْ أَجَارَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ قَالَتْ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِلْقَبْرِ عَذَابًا قَالَ نَعَمْ إِنَّهُمْ لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ"...مسند أحمد.

2-"دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْيَهُودِ فَقَالَتْ إِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ مِنْ الْبَوْلِ فَقُلْتُ كَذَبْتِ فَقَالَتْ بَلَى إِنَّا لَنَقْرِضُ مِنْهُ الثَّوْبَ وَالْجِلْدَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلَاةِ وَقَدْ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ مَا هَذِهِ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَتْ فَقَالَ صَدَقَتْ قَالَتْ فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَّا قَالَ فِي دُبُرِ الصَّلَاةِ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَعِذْنِي مِنْ حَرِّ النَّارِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ"..مسند أحمد-سنن النسائي.

قلت: أن معنى أن يجهل النبي بعقيدة أو كان يعلمها ولا يجهر بها للناس منتظراً تلك اليهودية أن تأتي بها ..فهذا يعد انتقاصاً واضحاً من رسول الله، نحن لم نتصور يوماً أن النبي كان شخصاً مبادراً بهذه الطريقة في التفكير..أنا على استعداد بقبول أي رواية ولكن شرط أن تحفظ للنبي مقامه الوارد إلينا في القرآن، وأن عَظَمة القرآن وحكمته تخطت كون الرسول فيه إنساناً خلوقاً طيب القلب....فصورة النبي في القرآن أنه المسلم الذي لا يتهاون في تبليغ الدعوة ، وأنه سيتحمل العناء وكافة التضحيات التي ستعقب أفعاله..لا أن يكتمها في قلبه منتظراً أهل الكتاب كما أفهمتنا تلك الروايات..ولما الكتمان والرسول هو أعظم من ضحّى لأجل الدين..وما هي قيمة"عذاب القبر"لكتمانه؟..ما الآثار السلبية المترتبة على الجهر به..إن فكرنا بعقولنا البسيطة سنجد لا شئ.

الخلاصة أن آية غافر لا علاقة لها بالمسألة لا من قريب ولا من بعيد..بل هناك بعض الآثار عن النبي في مسند أحمد وغيره تقول بأن النبي- في المدينة- كذّب اليهود في ادعائهم بأن هناك عذاباً في القبر فرد عليهم وقال"لا عذاب دون يوم القيامة"ثم نادى في الناس بعد ذلك وحذرهم منه..وهذا يُفترض حسب هذه الرواية المزعومة أن النبي كذّب شيئاً مصدره اليهود..ثم أوحي إليه بعد ذلك بصحته وهذا افتراءٌ على الرسول

ودجل وتخبيص فقضايا العقائد والإيمان لا يفتي فيها الرسول بدون علم كما أفهمنا هؤلاء.. والسبب في حدوث ذلك لدى الكاذبين على رسول الله أن الرؤية العقدية لديهم مبنية على روايات بشرية خالصة، سواء كانت "صحيحة أم ضعيفة"ليس هنا الإشكال..بل الإشكال في أن العقيدة بكامل أصولها وتفاصيلها يخلو منها القرآن، بل إن القرآن يقر بالعكس تماماً وينفي وجود مثل هذا التصور الميثولوجي في الإسلام،فالقرآن كان واضحاً ولم يذكر أي أحداث سواء نعيم أو عذاب في فترة ما بين الموت والبعث وأن هذه الفترة تمر على النفس دون شعور بالزمان أو المكان، وأن الجثة في القبر عبارة عن جسد يبلى ويتحلل تكون نفسها في مستودع البرزخ لا تشعر بزمان أو مكان لحين نفخة البعث..

هذا لابد وأن يفتح باب للنظر في كامل المسألة لأن التقرير السابق يتوافق مع عدل الله ورحمته ويحل كافة الإشكالات الشرعية والمنطقية التي أحدثتها هذه الخُرافة....أيضاً لا ننسى أن دور الخرافة في تقنين الاستبداد السياسي والديني كبير، وخُرافة كخُرافة عذاب القبر أعتقد أن منشأها المتصوفة وخرافاتهم، أو عقائد وموروثات المجتمعات حديثة الإسلام والتي تسللت لكُتب الصِحاح حتى استقرت لدينا وأصبحت من الثوابت ولا حول ولا قوة إلا بالله..

الطريف في خرافة "عذاب القبر" أنها لا تحل إشكاليات صنعتها وبالتالي تكون كالذي ورّط نفسه في مستنقع وغرق بأفعاله وجهله، وذلك بإقرارها أسماء ملائكة القبر وكأنه لا يوجد أسماء للملائكة تليق بمقامهم الكريم ومنزلتهم المُثبتة في القرآن..ففي حين نجد أن الله تعالى قال في مُحكم

كتابه.."ولا نُنزّل الملائكة إلا بالحق"..نرى القائلين بهذه الخرافة وقد جعلوا التنزيل بالباطل، حيث نعتوا أحد الملائكة.."بالمُنكر"..والآخر.."بالنكير"..حقيقة هذا سلوك غريب ولا أفهم الدافع أو السبب وراء هذه التسمية"القبيحة"..كذلك في قولها-أي الخُرافة- على لسان الكافر بعد سؤاله من ربك وما دينك فيرد قائلاً.."ها ها لا أدري"..وهنا أسجل ضحكة صفراء من هذا الرد الذي يوضح ثقافة القائل بهذا الحديث المُفترى..فتعبير.."ها ها"..للضحك هو تعبير عربي عام ومقيد حسب بعض المجتمعات العربية فأكثر دول الخليج يضحكون هكذا..وكذلك الشام ومنهم في مصر من يضحك هكذا.."ههههه"..ومنهم من في العراق من يضحك هكذا.."خخخخخ"..وبالعموم فهمنا أن هذا الضحك "المفترى"هو من نوعية الضحك المرضي والذي يعاني منه المرضى النفسيون...ولن أتوقف عنده كثيرا فقد ظهر لي أن قائل هذا الحديث عربي بثقافة عربية بينما الحساب عند الله لا يعرف أي حدود.

كذلك في قولهم بأن "مُنكر ونكير" سيظلوا يضربون الجثة بالمرزبة وتهبط بها إلى سابع أرض بينما يقولون في ذات الوقت أن الشجاع الأقرع سيظل ينهش في لحم الميت إلى يوم القيامة، وهنا لا أدري هل الإنسان في القبر سيتفرغ لنوع واحد من العذاب أم لنوعين؟!..أي أنه لا وجود إلا لاحتمال التنسيق بين منكر ونكير من جهة وبين الشجاع الأقرع من جهة أخرى على التناوب في آداء وظيفتهم!..أو بقولهم بأن عدم الاستبراء من البول وكذلك النميمة سبباً في العذاب، أو قولهم بأن عذاب عامة أهل القبور هو لعدم استبرائهم من البول، وقد سجلوا "افتراءاً" على رسول الله في واحدة منها.. بينما لم نجد هذا الشرط –أو السبب-في

سؤال القبر والذي عن طريقه –والجواب- عنه يأتي العقاب، أو بعدم التصريح بهوية صاحبي القبر المُعذّبين فإن كانا مسلمين فما بال الزنا والكذب والقتل والبطش والربا...إلخ..وإن كانا كافرين فما بال كُفرهما ولماذا البول والنميمة بالذات وحالهم ينضح بما هو أعظم!

حقيقة فالمتناقضات كثيرة ووضعها في هذا المقال جميعاً لا يكفي.. فهي بحاجة لكتاب، وكافة الروايات معلولة بعلل إما في المتون أوفي تضاربها معاً، بحيث يخرج لك في النهاية عقيدة ليست مترابطة وأكثرها ثغرات ليست فقط عقلية بل أيضاً شرعية..وأشير إلى أنني لم أبحث في فكرة "عذاب القبر" هذه إلا منذ عامين اثنين ولم أجد حُجة مقنعة عند من يقولون بهذا النوع من العذاب...

كمثال فقد خالتني شُبهة قوية وهي الحديث عن مشاهد "العذاب دون النعيم"ولو تدبرنا القرآن-الذي لا نقرأه بتدبر-سنرى أن الله قد ساوى بين مشاهد العذاب والنعيم في الآخرة في مشهد قوي يحفظ للقرآن توازنه وعدله..والبعض يرى أن هذا ليس كافياً حيث قالوا أن فكرة"عذاب القبر"قالت بروضة الجنة وحفرة النار وتوسعة القبر 70 ذراعاً..وكذلك قالت بالأنيس الصالح..لكن هذا كله ليس من مشاهد النعيم التي تتساوق مع المشاهد الحركية لمرزبة منكر ونكير وتقطيع الشجاع الأقرع للحم الميت وغيرها، حيث كان يلزم ذلك وبالتساوى مع مشاهد العذاب أن تُوجد مشاهد للنعيم يتنعم فيها الميت حِسياً وشعوريا وبدنياً كما حضر ذلك الشعور والحِسّ حين عذابه، فما الذي يمنع من طعام الميت وشرابه داخل القبر؟!..ولكن أعتقد أن عدم قولهم بالطعام والشراب ينبع من بواقى

الفطرة لديهم وهي التي تجعل مباهج الدنيا ولذتها حصرية للأحياء دون الأموات..ولكن السؤال-الذي في نفس السياق- لماذا يقبلون بمتاعب الدنيا وآلامها على الأموات ومع ذلك لا يقبلون باللذة في حقهم؟وهل يتناسب هذا مع عدل الله أم مع معاييرهم هم عن العدل؟!

حقيقة أن القول بنفي نعيم قضية يلزمه نفي عذابها.. فمعنى انتفاء فكرة النعيم –كجزء-وانتسابها للحساب –ككل-يهدم ما جاء في نظرية الحساب من الأساس ، وذلك تِبعاً لمنطق الجزء أصغر من الكُل، فإذا كانت رؤية الدمج تتضمن شيئين ثبت بُطلان أحدهما فالنظرية بالكامل لا معنى لها إلا بقرينة تُقيم الآخر مستقلاً.. يعني بتوضيح أكثر أن القضية الكلية هي"حساب القبر" والجزئي منها"نعيم وعذاب"..ولم يثبت لنا في كتب الرواة والمحدثين أن هناك حساباً في القبر لأن غالب ما أتى إلينا هو"عذاب القبر"..حتى أن البخاري بوّب له باباً بهذا الشكل"باب ما جاء في عذاب القبر"طب لماذا لم يذكر النعيم ؟!

على جانبٍ آخر قد يسأل سائل أننا نقول بأن الأنفس تظل مفارقة للجسد إلى يوم القيامة،ولكن أين مكانها؟ نقول هي في البرزخ كما أقر القرآن وكما أوضح الكثير من العلماء والدارسين لهذه القضية من قبل..والبرزخ هو الحاجز ما بين الموت والبعث، وأن هذه الفترة –أي البرزخ- تمر على النفس دون شعور بالزمان أو المكان، وأن الجثة في القبر عبارة عن جسد يبلى ويتحلل تكون نفسها في مستودع البرزخ لا تشعر بزمان أو مكان لحين نفخة البعث..أما وجود القبر فحكمته هي لتكريم الإنسان وصونه عن باقي المخلوقات وكذلك شعائر دفنه والدعاء له جميعها

لتكريمه وطلب الرحمة له في الآخرة..ولكن يبدو أنه باختلاط خرافة عذاب القبر بعذاب الآخرة جرى الاعتقاد بأن الدعاء ومراسم الدفن هي للوقاية من "عذاب القبر"وهذا غير صحيح..فالجسد يبلى ويتحلل في القبر ولا يسمع ولا يشعر لفقدانه جهاز الوعي والشعور والحس لديه وهو النفس..ويستحيل رجوع هذه النفس إلى الجسد إلا في مشاهد البعث كما صرح بذلك القرآن في أكثر من موضع.

أيضاً فلأهمية الدليل القرآني كونه أصل الأصول ومنبع التشريع..نأتي الآن لبعض الأدلة القرآنية والتي يستدل بها القائلون بخُرافة "عذاب القبر" وسنحاول الرد عليها بإيجاز شديد أملاً في إزالة بعض الشبهات والتفسيرات التي تعتري بعض الأذهان... ونسأل الله أن يُفيد:

قالوا أن الدليل في قوله تعالى.." سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم"..ولكن تعدد مرات العذاب لأكثر من واحدة دلالة على تنوعه ويكون ذلك في الدنيا بقرينة ختام الآية.."ثم يردون إلى عذاب عظيم"..والمقصود من العذاب العظيم هو عذاب الآخرة..فإذا كان تعدد العذاب مرتين أنه.."قبر وآخرة"..فيكون العذاب العظيم مغاير وإلا لا اعتبار لتقريره تعالى في الفصل بكلمة"ثم" وهذا مُحال في حق الله..فتقرير الفصل مُحكم ويُثبت مغايرة بين حياة وحياة أخرى..الأولى فيها العذاب مرتين أما الأخرى فتكون العذاب الأعظم.

سلمنا أن تفسيرهم يرى في تعدد مرات العذاب أنه "دنيا وقبر"وأنه يرى تلك المغايرة في ختام الآية، فأين تقرير ذلك الفصل بين الحياة الدنيا

والبرزخ، بل ان التثنية تتسق مع كون العذاب مرتين في حق المنافقين، فيجوز عليهم العذاب في الدنيا مرتين لقوله تعالى.." وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ"..فكان عطف الضراء على البأساء يقتضي المغايرة وكلاهما عذاب في الدنيا ..وكذلك لا يجوز إسقاط هذا العذاب على المسلمين كون الآية نزلت في المنافقين....فالآية ليست دليل على شئ والسؤال عن عذاب المنافقين كيف تم أو سيتم هو تحكمٌ بلا دليل والأولى الوقوف عند النص القرآني وعدم تخصيصه لنزول الآية في طائفة محددة سلفاً.

كذلك قالوا أن الدليل في قوله تعالى " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون"..ولكن الآية لا تُشير إلى شئ..ففي ختام الآية سيكون الجواب إن شاء الله أي في.."لعلهم يُرجعون"..وهذا تقريرٌ من الله أن المقصود من العذاب الأدنى هو العذاب الدنيوي وأن العذاب الأكبر هو العذاب الأخروي..فمعنى الرجوع يعني وجود الإمكانية للتوبة أو للاعتبار، أما في القبر فلا يوجد عودة ولا رجوع..

كذلك قالوا أن الدليل في قوله تعالى.." ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون"..ولكن البرزخ في القرآن لم يخرج عن معنى.."الحاجز"..ولا علاقة بتفسير البرزخ بأنه القبر أبداً، لأن الإنسان قد يموت ولا يُقبر في شئ ، والخطاب القرآني أجلّ من أن يفصل بين حياتين بتصور مادي مقصور على فهم الإنسان....أما لو أتينا بمطلع الآية الكريمة فهي كالتالي.." حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ،لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ

يُبْعَثُونَ"..فالميت يتذكر أحواله حين الاحتضار ويتمنى العودة ولكنها عودة متأخرة فقد استوفت نفسه معاشها في الدنيا وحان وقت معادها إلى ربها..لذلك فالآية لا علاقة لها بفكرة"عذاب القبر"إذ لو كانت تتصل بمضمون هذه الفكرة لكانت الآية كالتالي.."ومن ورائهم عذاب قبر إلى يوم يبعثون".ولكن البرزخ هو الحاجز الذي يفصل بين الحياتين"الدنيا والآخرة"وفيه يكون مستودع الأنفس حيث لا شعور لا بزمان ولا بمكان إلى يوم الساعة.

ومع ذلك تظل محاولاتهم للتشبث بأي آية تنصرهم ورأيهم الذي يهدف في المقام الأول والأخير إلى حفظ الرواية وصون أصحابها وناقليها حتى لو على حساب الشرع حتى لو أوذي النبي نفسه فلا يهمهم..فقد جعلوا الرسول جاهلاً بمثل هذه الحكايا وأنه يأخذ دينه من يهودية، وأنه يكتم الدعوة سنين طويلة تقصيراً في حق الله عليه، حتى الملائكة لم تسلم من أقوالهم فجعلوهم مناكير..وفي الحقيقة أن من يريد السنة الحقيقية فهي في الكتاب دون سواه، ومن أراد المزيد فليتطلع إلى الحديث الموافق له لا المتعارض، بينما العقل هو الكاشف وعنه المعيار.. فالسنة الحقيقية في الكتاب ومن أنكرها فقد أنكر الكتاب هذا ليس قولٌ بدع بل هو تقرير "مُحكم"في القرآن في أكثر من موضع..قال تعالى:

1-ما فرطنا في الكتاب من شئ.
2-ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ.
3-اليوم أكملت لكم دينكم
4-إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.

الآن سؤال للكافة مؤيدين ومعارضين..ما معنى.."كل شئ -وما فرطنا – واليوم أكملت لكم دينكم"؟..وهل يُعقل أن يفرض الله علينا عقيدة لا تخضع.."لكل شئ-ولما فرطنا"؟!..وما معنى الأشياء إذاً؟!..وما معنى التفريط؟!..إنه انحراف واضح وجلي عن منهج القرآن وفهمه..فضلاً أن القرآن أقر بحياتين وعذابين وثوابين ولكنهم جعلوها ثلاثة، القرآن يقر بأنه لا عذاب إلا بعد حساب بينما روايات عذاب القبر قالت بالعذاب دون الحساب...القرآن أقر معنى البرزخ وهو الحاجز..بينما روايات عذاب القبر جعلت البرزخ هو القبر...القرآن يقول أن الله لا يظلم مثقال ذرة ..بينما روايات عذاب القبر قالت بأن الله سيظلم الميت القديم...القرآن يقول بأن الميت يجهل ما حدث له والزمان الذي لبثه من بعد الموت إلى البعث بينما روايات عذاب القبر قالت بأنه سيعلم ...القرآن يُقر بأن النفس تصعد لمستودعها في البرزخ بينما أحاديث عذاب القبر تقول بأن النفس ستُعذب مع الجثة في القبر...القرآن يُقر بمشاهد الثواب والعذاب..بينما روايات عذاب القبر لم تُقرّ إلا بالعذاب ومشاهده...الثواب والعذاب في الآخرة من الأمور الغيبية بينما القبر مشاهد محسوسة ومن الممكن الاطلاع على أحوال الجثة بعد الموت..ولم يفتي أحد ممن يؤمن بعذاب القبر كيف لجثة تحللت أن تظل في عذاب إلى يوم القيامة...كذلك فالقرآن يقر بأن الميت فاقد لجميع صفات الوعي والشعور من النطق إلى السمع إلى العقل إلى الحركة إلى الحِسّ بينما روايات عذاب القبر قالت بخلاف هذا كله.

أعلم أن هذا المنهج لا يُعجب هؤلاء فهم لا يؤمنون إلا بحدثنا فلان وعلان، وأن الخبر إذا بلغ مبلغ التواتر -لديهم- فقد حاز على الثقة دون ضرورة لإعمال العقل أو حتى الاجتهاد للتأويل، فهم مُقلّدة ومع ذلك سأرد عليهم بأسلوبهم...أحاديث "عذاب القبر" مشهورة وليست متواترة..والمشهور الصحيح في حُكم الآحاد عند جمهور أهل العلم ، ومن قال بتواترها قال بعضهم بظنيتها قُرباً لليقين لتلقي الأمة لها بالقبول وهذا كلام لا معنى له..فالظن ظن واليقين يقين، أما تلقي الأمة بالقبول فهذا ثابت في أحاديث كثيرة عليها كثير المطاعن ومؤخراً تم تفنيد ورد الكثير منها كتعيين سن زواج وبناء السيدة عائشة وحديث الفرقة الناجية وغيرها فيسقط الشرط....كذلك فالحُكم بتواتر أثر ليس بالمسألة السهلة ففي القضية خلاف عظيم، كذلك القول بالإجماع فليس من العلم في شئ، أنا أصدق ابن حزم ومن لفّ لفّه في نفي وجود الإجماع، وكذلك قول إمامنا ابن حنبل"من ادعى الإجماع فقد كذب"..أفهم أن الإجماع يتحقق ولكن في أضيق الحدود.

علماً بأن جمعاً غفيراً من العلماء أفتى بعدم وجود المتواتر ومنهم من قال بأن المتواتر واحد وهو حديث"من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار".. ومنهم من قال بأن المتواتر خمسة أو عشرة ليس من بينها.."عذاب القبر "..فيظهر لنا أن جمهور الأمة لم يثبت قولاً واحداً بالتواتر في حق أحاديث"عذاب القبر..وعليه فلا موجِب لها في العقائد عند جمهور أهل السنة لعدم الإجماع..كذلك يسقط كون عذاب القبر من أصول الدين فهذا افتراءٌ عظيم، فجمهور أهل السنة توقفوا فيها ولم يقولوا بكُفر منكريها..علاوة أن كثيراً من العلماء والمحققين توقفوا في هذه المسألة

قديماً وحديثاً ولم يُبدوا رأيهم، وما يُدرينا ما قولهم وإلى أي قول ننسبهم، كذلك لثبوت نقض الإجماع بقول أكثر المعتزلة وفرقة الخوارج وبعضاً من أهل السنة والشيعة خاصة المعاصرين.

وفي هذا السياق أطرح رؤية عقلانية مقبولة للشيخ محمد رشيد رضا أفتى فيها بنفس النتيجة وهي أن عذاب القبر ليس من أصول الدين، ومع إقراره به إلا أنه التزم الشرع الحنيف بعدم تخطئة المخالف فيما لم يُصرّح به النص الصحيح وقطعي الدلالة، وهاك السؤال والجواب معاً:

السؤال: مِن الشيخ حسن أبو أحمد مأذون الشرع بنقطة (المنصورة) . في مطرية المنزلة خلاف بين طائفتين في عذاب القبر هل هو ثابت بصريح القرآن والسنة الصحيحة أم لا ؟ أرجو التكرم بإيفاء هذا الموضوع حقّه من غير إحالة على أعداد مضت لأني وعدتهم بذلك وعرفتهم بقولك الفصل ولكم الفضل .

الجواب: قد سبق لنا بيان هذه المسألة في المنار ، ونقول الآن : إنها لم يصرح بها في القرآن ، ولكن ورد فيها أحاديث صحيحة مشهورة وليراجع ما كتبناه من قبل (ص 946 م 5) و (ص 256 م 8) .انتهى

قلت:ظهر لنا بأن الشيخ أقر بعدم تصريح القرآن بتلك العقيدة وهي كافية لديه لعدم تخطئة المخالف، أما من يتفنن ويلتف حول النصوص لإقرار عقيدة لديه هي باطلة شكلاً وموضوعاً فذلك اتباع الهوى بعينه..حقيقة في

زمن الشيخ رشيد رضا -رحمه الله-كان الخلاف في مثل هذه الأمور شيئاً عاديا، حيث وبرواية مأذون المنصورة الشيخ حسن أبو أحمد يتبين لنا أن قضايا الاجتهاد في هذا الوقت لم تكن منكورة كما يحدث في زمننا هذا، وأن الإرهاب الفكري الذي يُواجه كل داعية وباحث في هذه المسائل الآن.. هو إرهاب ذميم ومصطنع وليس من الإسلام في شئ..ويكفي أن الشيخ رحمه الله في تقريره السابق في مجلة المنار-المُشار إليه أورد رأياً وجيها حيث قال.."فأنت ترى أن الباحثين بعقولهم فيما ورد من أحاديث عذاب القبر في خلاف لا يكاد يسلِّم واحد منهم للآخر ، ونحمد الله تعالى أنهم لم يجعلوا هذه المسألة من أصول العقائد التي يكفر منكرها"..انتهى..وهذا تقرير من الشيخ أن مسألة عذاب القبر ليست من أصول العقائد ، حتى مع إيمانه بما وُرد في الأثر عنه إلا أنه يُقر بأن المسألة لا تدخل في قضايا الإيمان والكُفر، بل كان الخلاف على عهده موجِباً للبحث والتحري.

أيضاً فرفضي لفكرة"عذاب القبر"ينطلق من الدفاع عن الشريعة والرسول، وأن لا نكون عُرضة للاختراق من أي عقائد بالية لا توجِب عملاً إيجابياً بل كان مفعولها السلبي في نفوس المسلمين أكثر إرهاباً وعُنفاً..فما بالك بعقيدة متهالكة ومتناقضة مع القرآن والعقل ابتداء..العقل لا يقبلها..والقرآن كذلك لا يقبلها...والعشرات من الآيات القرآنية الصريحة تنسف هذه العقيدة من جذورها...أنا مستعد أن أقبل بوجودها "عقلاً" شرط أن نُحكّمه في تلك التفاصيل والروايات المتناقضة والتي لا تتحدث عن الرسول إلا بزرع صورة سيئة له في الأذهان...أما شرعاً فالشرع يحيلها بشدة....أي أنني أرد أحاديث"عذاب القبر"ليس للرواية ولكن عن

"دراية"..وهذه طريقة مشهورة بين العلماء والمحققين ومنهم من رد"دراية"كثير من الصحاح لتعارضها -لديهم-مع القطعي الصريح والصحيح.

نقطة أخرى وهي غاية في الأهمية ،عُرف عن تدوين الحديث أنه سُمح فيه النقل بالمعنى، حتى من يقولون بتواتر روايات"عذاب القبر"نسبوها إلى المعنى فكان تواترهم معنوياً وليس لفظيا ، والنقل بالمعنى فيه من الخطورة ما شاء الله له أن يكون ،فما الذي يمنع من انتقال أحاديث"عذاب الآخرة"عن الرسول إلى فكرة أخرى كانت مقررة سلفاً في المجتمعات حديثة الإسلام ثم تطورت، أقصد هنا تحولها من "عذاب الآخرة إلى عذاب القبر"..هذا مقبول وجائز "عقلاً"ويجب أن يكون في منحى الدارسين، لأن أصل ومضمون فكرة"عذاب القبر" -بصيغته الحالية- يتناقض ويتعاكس مع الشرع الحنيف بشكلٍ فج، فالنفس يحيل عليها العودة إلى الجسد قبل البعث فيكون البعث في هذه الحالة مرتين وهذا مُحال، أيضاً فهناك من الحديث ما يؤيد هذا الاتجاه في قوله صلى الله عليه وسلم.." إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها"..ولا هبوط للجسد بعد صعود ..هكذا نفهم السنة أنها تتفق مع القرآن وتعضده وتشرحه..لا أن تناقضه وتعاكسه فيصل بنا الحال إلى تحريف الدين.

من وجه آخر فالآيات الناقضة لفكرة"عذاب القبر" قطعية الثبوت والدلالة معاً...كقوله تعالى.." ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولَى﴾ فهذا تصريح بأنه لا حياة سوى في الدنيا والآخرة..وكقوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ ويكفي أن ابن حزم رأى تعارض هذه الآية مع عقيدة

رد النفس إلى البدن في القبر، حتى من رأى أن ورود الآية على ألسنة الكفار يكفي لرد التعارض خرج حديثهم متهافتاً حيث وبقولهم "ربنا" يكونون في سياق الاعتراف بدلالة ختام الآية ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾..فإذا قيل أن اعترافهم محل شك وتقدح في صحة قولهم فماذا نقول في قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللّهِ وكُنْتُمْ أمْوَاتاً فأحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجِعُونَ﴾..كذلك في ثبوت رد المولى جل وعلا عليهم وإظهار كذبهم كما قال الرازي.." أما قوله إن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة، قلنا لما ذكروا ذلك لم يكذبهم الله تعالى إذ لو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم، ألا ترى أنهم لما كذبوا في قولهم ﴿وَاللّهِ رَبّنَا مَا كُنا مُشْرِكِينَ ﴾ كذبهم الله في ذلك فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ﴾ (الأنعام: 23، 24)."انتهى...

وللتفصيل أكثر بإظهار ثبوت الموتتين والحياتين دون ثبوتهما في القبر.. يقول الإمام الطبري في تفسيره: قوله: ﴿أمَتّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بدّ منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان. وقال آخرون عن السديّ، قوله: ﴿أمتّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: أميتوا في الدنيا، ثم أحيوا في قبورهم، فسئلوا أو خوطبوا، ثم أميتوا في قبورهم، ثم أحيوا في الآخرة. ...وقال آخرون في ذلك ما: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله ﴿رَبّنا أمَتّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق، وقرأ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ...قال: فلما أخذ عليهم

الميثاق، أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله: ﴿رَبَّنا أَمَتّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾، انتهى

وأضاف الزمخشري في الكشاف: وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتاً أوّلاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحيائتين الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (البقرة: 28) وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. ... ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلاّ أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتدّ بها، أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستثنيين من الصعقة في قوله تعالى ﴿إِلاّ مَن شَاء ٱللّهُ﴾ (النمل: 78).انتهى

قلت:يظهر أن المقصود من الإماتتين والإحيائتين في الآية ينسف فكرة"عذاب القبر"من جذورها..حيث وبمجرد القول بعذاب في القبر - يتسق مع ما ورد في الأحاديث- نضرب القرآن ويفقد تأثيره وهيبته، فضلاً عن ثبوت تأخير الله للظالمين ليوم تشخص فيه الأبصار ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (42)﴾ إبراهيم...واليوم كما هو متعارف لدى أهل العلم هو يوم القيامة، فلو كان هناك عذاب ما قبل القيامة لذُكر..كذلك في قوله تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (61)﴾ النحل....فلم يقل أجلان بل أجل واحد، فإذا قيل أجلان قيل بموتتان

وحياتان بعد الحياة الدنيا..كذلك في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (45)﴾ يونس...فلو كان هناك حياة ما بعد الموت إلى البعث لذكرها هؤلاء، ولكن التقرير كان أنهم لم يلبثوا إلا ساعة، وهذا يتسق مع السياق العام للقرآن والذي صرّح بأنه لا حياة إلا في الدنيا والآخرة.

أخيراً فالآيات التي تنسف عقيدة"عذاب القبر"كثيرة وهي بالعشرات وبعضهم وصلها لأكثر من 100 آية ، ولا أريد الاسترسال في طرحها وشرحها سواء بفهمي الخاص أو المنقول عن علمائنا وباحثينا، إذ كان يلزم ذلك كتابة كتاب كامل ومفصّل ولم نشأ ذلك لجواز تحصيل المُراد بالإيجاز، ومن أراد البحث والمراجعة فليُراجع، والقول بما يخالف هذا التقرير والتصريح فيه من الخطورة ما شاء الله...أيضاً من هذا السياق القرآني نفهم القرآن ويظهر لدينا بشكل مترابط ومتساوق لا يرد بعضه بعضا، حيث وبوجود وتأصيل هذه الخُرافة لدينا نصنع ليست فقط مشاكل عقلية بل أيضاً مشاكل شرعية لا تُعد ولا تُحصى، وكما أثبتنا عاليه تعارض وتشاكس روايات"عذاب القبر" فيسقط الاستدلال بها لاحتمالية الدليل من وجه ومن رد الدليل لما هو أعلى من وجه آخر...

وكما أن هناك فئة من الناس تهوى التصنيف أقول بأنني لا أتبع مذهباً إسلامياً بعينه، ويكفي أنه لو أراد أحد تصنيفي فأنا مسلم موحد بالله وحسب، لا أؤمن بالخُرافات، وأضع العقل معياراً كاشفاً على كثير من المسائل مما لم تثبت بطريق التواتر الخبري أو الصريح العقلي، فالعقائد

لدينا عقليات وخبريات..وخُرافة كخُرافة "عذاب القبر" لا يستسيغها عقل، إما بثبوت التعارض والتناقض وإما باستحالة الحدوث، فالقاضي عندما ينظر لمسألة يضع احتمالاً لديه بالإمكانية، كأن يزعم شخص بأنه سافر من القاهرة لأسوان بالسيارة في نصف ساعة، فكان رد كلامه دليل تعارض، كذلك من يزعم بأن عامة أهل القبور يُعذبون لأجل عدم استبرائهم من البول وهو لدينا حدثاً أصغر فما بالنا بمن لم يتطهر من الجنابة وهي لدينا الحدث الأكبر، وهل يتسق كون عموم الناس يُعذبون للأصغر دون الأكبر؟!..وأشياء كثيرة من التعارضات سُقنا منها هنا والبعض لم نذكره لضيق المساحة..

بقيت لدينا معرفة مصدر هذه العقيدة ومن أين جاءت دخيلة على الإسلام..قلنا أن الإسلام-كدين-لم يُشرّع وبالتالي لم يُشير إلى وجود حياة ما بين موت الإنسان وبعثه يوم القيامة ، وأن كافة ما وُرد في هذا الشأن يُشير إلى.."البرزخ"..وهو الحاجز الذي يفصل ما بين الحياتين الدنيا والآخرة، وأن الشعور بالزمان والمكان وراء هذا الحاجز معدوم .

هذه الفكرة طافحة في القرآن لدرجة التكرار في أكثر من موضع وضمن وحدة موضوعية مختلفة في كل سورة، وأن كل ما وُرِد إلينا في عذاب القبر جاء عبر الأحاديث والتي لا تكفي لإقرار عقيدة إيمانية مفصلية على غرار البعث يوم القيامة وحساب الآخرة والصراط والجنة والنار وما إلى ذلك، فضلاً عن أن هذه الأحاديث لم تبلغ مبلغ التواتر وعرضنا اختلاف الأئمة في الحديث المتواتر فمنهم من أنكر وجوده ومنهم من قال بأن المتواتر واحد ومنهم من قال خمسة أو أكثر ، وأن روايات عذاب

القبر جميعها أخبار آحاد يعني على فرض صحتها فلا يجب التسليم بها في العقائد..

فالتعامل مع الحديث يختلف عن التعامل مع القرآن، لأن القرآن كله متواتر والإيمان به -وبكل ما جاء به -فرض واجب على كل مسلم بالغ عاقل ولا يختلف في ذلك اثنان من المسلمين، أما الأحاديث فمنها الصحيح ومنها الضعيف، وأن الإجماع على صحة أيٍ منها يكاد يكون معدوم إلا في مواضع قليلة أجمع فيها المسلمون على صحة بعض الأحاديث...ليس من ضمنها عذاب القبر.

هذا يعني أن هذه العقيدة كانت- ومن أول وهلة- لابد وأن يُنظر إليها بمنظور الإمكان وليس الوجوب..بمعنى أنه يُمكن أو لا يُمكن وجود أحداث في القبر وبالتالي فلا يُقطع بها ولا تكون من أصول العقائد الإيمانية لاحتمال حدوث النقيض، وبالتالي لا يجري الدعاية لها أو التحذير منها ، فالدعوة"الدينية" لشيءٍ ما أوالتحذير منه يعني أن وجوده مُسلّمُ به ولم يتبقى سوى العمل له أو تجنبه في حين أن هناك أشياء أولى للاهتمام بها والعمل لها أو ضدها..وأحسب أن فكرة عذاب القبر نشأت بهذه الطريقة إلا أنها تطورت بتطور مفهوم الحديث وإدخال" الرواية مع السُنة"ضمن مفهوم واحد، فكان كلما ذُكرت الرواية يجري فهمها على أنها السُنة والعكس.. وهذا خطأ كبير نتج عن نزعات التقليد و تقديس الرجال التي اعترت المسلمين فصولاً من الزمن إلى يومنا هذا.

ولكن طالما أن هذه العقيدة موجودة فهذا يعني أنها كانت حقيقة لدى البعض نقلها المسلمون عنهم سواء من جِهة المجتمع والعُرف والثقافة أو من جهة الدين والنقل والاتباع..وأنا أرى أن عذاب القبر انتقل إلى المسلمين من الجهتين ولكنها أخذت شكلاً أكثر تفصيلاً لديهم مع تعدد الروايات الدالة..

ولو نظرنا إلى قصة منشأ هذه العقيدة- في تلك الروايات- سنجد أن من بشر بها المسلمين هم اليهود.. وذلك ضمن رواية اليهودية التي حذرت السيدة عائشة من عذاب القبر فخافت السيدة عائشة وسألت رسول الله عنه فصدقها، وهذه الرواية على شرط الصحيحين أي أن رجال السند هم رجال البخاري ومسلم ولكن الرواية لم يُدونها أو يُصححها أحدهم، فتم قبول الرواية وأخذها المسلمون بموضع التسليم وتم ربطها بالروايات الأخرى التي تحذر من فتنة القبر وتحكي كيفية وقوع بعض صنوف العذاب والعرض على المَلَكين وما إلى ذلك من أحداث ثَبُتَ بُطلانها في البحث السابق..

ولإحكام ما سبق لابد من تبيان أن قواعد الرد على العقائد "الغيبية" يجب أن يكون عبر ترابط كِلا الدليلين.. "العقلي والشرعي"..معاً..لأن من الغيبيات ما لا يجوز فيها النَظَر العقلي ولكنها مثبتة بالشرع، يعني أن كافة العقائد الإيمانية التي تحكي أحداثاً فاصلة ومهمة لابد وأن يُصرّح بها الشارع ولا يتركها للقيل والقال والاختلاف.

وبما أن اليهود هم أصل هذه العقيدة عند المسلمين فهذا يعني حدوث واحد من أمرين اثنين:

1-إما أن اليهود -حينها-كانوا يؤمنون بالحياة في البرزخ،وأن البعث يكون مرتين الأولى في القبر والثانية يوم القيامة، وبالتالي فهم يؤمنون بثلاثة أنواع من الحيوات...

وهذه العقيدة هي نفسها عقيدة من يؤمن بعذاب القبر من المسلمين!!

2-أو أن اليهود لم يكونوا يؤمنون بالبعث يوم القيامة أصلاً..ولكن يؤمنون بالبعث في القبر، وأن الحساب الأخروي لديهم موجود بداخله، وهذا يعني أن عذاب القبر لديهم هو نفسه عذاب الآخرة.

وأنا أرجح الثانية من ثلاثة وجوه..

الأول: أن هذا الاعتقاد هو بعينه اعتقاد المصريون القُدماء، فنشأة اليهود بالأصل كانت مصرية حتى مع الخلاف حول هذه النتيجة ولكنها كانت رؤية دينية عامة منتشرة في الشرق القديم، فالمعبود المصري يُقابله المعبود الفينيقي أو البابلي..حتى أن عقائد اليونان القدماء لم تَخلُ من هذا الطرح ..وعقيدة الحساب والجزاء لديهم كانت في القبور وهذا ما حملهم على دفن متاع الميت معه.

الثاني: أن كُتب وأسفار اليهود الكُبرى خلت من أي إشارة للبعث يوم القيامة، وأن الإيمان بيوم القيامة لدى اليهود لم يأتِ إلا متأخراً وبالتحديد بعد كتابة التلمود بشِقيه.." المشناة والجمارا"..والتلمود مكتوب بعد أسفار التوراة بسبعة قرون تقريباً.وهذا يعني أن اليهود عاشوا قروناً طويلة وهم يعتقدون بأن القبر هو المآل الأخير للميت، وأن الحساب الأخروي يكون فيه.

الثالث: أنه لا يوجد أحد من اليهود الآن يقول بعذاب القبر.. بمعنى أنهم يعتقدون في أن البعث يكون يوم القيامة ، وهذا يُثير التساؤل كيف وأن هذه العقيدة كان منشأها لدى اليهود ثم يُنكرونها الآن..والإجابة جاءت في الوجه الثاني بأنهم كانوا يقولون بذلك قبل كتابة التلمود، وبعدما جاء التلمود بعقيدة البعث يوم القيامة متأثراً فيه بالإنجيل...حينها آمن اليهود بأن البعث واحد يوم القيامة وأن الحياة اثنين في الدنيا والآخرة.

أخيراً لا أريد أن أسترسل في البحث عن القصة بأكملها.. ويكفينا الإشارة بأن فكرة عذاب القبر عند المسلمين كانت فكرة دينية أخذت بُعداً اجتماعيا نتيجة لتطورها على أيدي المتصوفة..أيضاً ومن أثر عُمقها الضارب في أذهان القُدماء الشرقيين، وهي تعني أن عذاب القبر لديهم كان هو العذاب الأخير لأنهم كانوا لا يعتقدون بيوم القيامة الذي يبعث الله فيه العباد ويُحاسبهم على أعمالهم فمن كان صالحاً دخل الجنة ومن كان طالحاً دخل النار، وأن الأساطير المصرية والعراقية واليهودية القديمة كانت متشابهة في البعض ومتطابقة في البعض الآخر ..وفي قضية عذاب القبر نكاد نرى تطابقاً عجيباً بين عقائد اليهود والفراعنة وبلاد العراق-خاصة

السومريين والبابليين- قبيل ظهور التلمود وتأثر اليهود بالأناجيل التي أفصحت عن شكل الحياة بعد الموت وبأن هناك يوماً ستُرد فيه الحياة للأجساد وهو اليوم الأخير للعالم وبعدها يأتي الحساب..

رسالة في قتل المرتد

من أبرز المسائل التي أخذت شوطاً من الحوارات والردود بين فقهاء المسلمين قديماً وحديثا هو حد قتل المرتد عن الدين الإسلامي، اختلفوا فيه بين الموافقة والمعارضة واختلفوا حول التطبيق، ولم تخلو اجتهاداتهم من أدلة موثقة تراعي في النهاية سماحة الإسلام –كلٌ حسب منظوره-ولكن برؤية مبسطة نرى أن من قال بنفي قتل المرتد كانت رؤيته أكثر توفيقاً وقوة لمراعاته أصول القرآن والركائز التي بُني عليها الدين الإسلامي، وأهم هذه الركائز هو فساد الاعتقاد بالجبر، وأن الإيمان الحقيقي هو الذي كان أصله اعتقاداً عن قناعة ورضاً كاملين.

يأتي الإشكال –غالباً- من الخلط بين الحُكمين الدنيوي والأخروي، فيظن البعض أن التجاوز عن العقاب الدنيوي هو تفريط في الدين والقول بجواز الكفر ولو ضمنياً، وهذا الاعتقاد حكايته رده، لأنه لو كان كذلك حقاً لكان عقاب تارك الصيام عقاباً دنيوياً هو الآخر، ولو تجاوزنا عنه فهو قبول بترك فريضة أساسية من فرائض الدين-على نفس المنطق!فالصيام كالإيمان هو علاقة بين العبد وربه ويحيل على غيرهما معرفته، فتأخير العقاب من الله حكمته في إتاحة كافة الفُرص للعودة، وأنه لا حق لإنسان أن يعاقب آخر على اعتقادٍ أو عبادة هي حصرياً بين

العبد وربه- كما سلف،يأتي الخلاف في حال الجهر بأحدهما، ونحيل ذلك على قضية الاختيار وحكمة الرب في خلق الإنسان مُخيّرا بين الحق والباطل وبين الكُفر والإيمان مصداقاً لقوله تعالى.."فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"..."ولكم دينكم ولي دين"..ولا حكمة لمن يسوق الناس إلى دينه بالتخويف والقمع، بل الإسلام ليس في حاجة لإنسان لم يأتِ إليه إلا هادئ النفس مطمئن وساكن السريرة.

الآن سنخوض بإذن الله في نقاش وطرح بعضاً من النقاط الهامة في قضية" قتل المرتد"، وسنعرج في الأسطر القادمة على بعض الإشكاليات في محاولة لحلها بعيداً عن النمطية وبوضع ردود حاسمة بحاجة هي الأخرى لردود حاسمة:

1-ذُكر لفظ الردة ومعناه في القرآن الكريم أكثر من 10 مرات ولم يلحق الله به أي عقوبة تفيد القتل...مما يُخرج القضية من سياق القطع بوجود الحد-عن القائلين به- إلى سياق الظن، فالقرآن هو مصدر التشريع الأول، وقضية الدماء هي من أعظم القضايا البحثية في الفقه الإسلامي، ولا مجال للحُكم فيها إلا بدليلٍ صريح وصحيح لا يشوبه الخلاف.

2-لم يثبت أن رسول الله قتل أي مرتد ، بل الثابت هو ارتداد بعض الناس على عهده صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه تركهم ولم يعاقبهم بالموت، وبهذه النقطة والنقطة السابقة يتبين لنا أن قتل المرتد يخلو منه القرآن والسنة الفعلية-المُجمع عليها-على حدٍ سواء.

3-يقول الله تعالى في القرآن الكريم.."لا إكراه الدين".والآية صريحة ومُحكمة وغير منسوخة-عند القائلين بالنسخ-وحكمتها في دحض أي اعتقاد بالجبر يُنتج إنساناً منافقاً ومخادعاً.

4-كافة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن قضية عقوبة المرتد لفظاً ومعنى، جميعها تتحدث من وجه السلام والحرب لا من وجه الكُفر والإيمان، فالمقصود هو عقاب المحارب لا الكافر، أما المُسالم ولو كان كافراً فلم تتعرض إليه بالقتل أي متون صحيحة على الإطلاق.

5-أشهر حديث يستدل به القائلون بقتل المرتد هو حديث.."من بدل دينه فاقتلوه"..ولنا في هذا الحديث ستة أقوال:

أولاً: الحديث من مراسيل الإمام مالك، وجاء بعده البخاري ليوصله من رواية عكرمة البربري مولى ابن عباس، وعكرمة كان خارجياً كما قال أحمد وابن معين وغيرهما..والخوارج كانوا يقولون بكفر فاعل المعصية، وقاتلوا الناس على ذنوبهم، فليس من الغريب أن تتوافق رواية قتل المرتد مع هوى أي خارجي ولو كان عكرمة.

ثانياً:الحديث مطوّل يحكي فيه تحريق الإمام على بن أبي طالب عليه السلام للزنادقة، وهذه الحادثة أنكرها البعض عن الإمام تنزيهاً ووصوناً له، فلا يُعقل أن يقوم صحابي جليل بمرتبة علي بن أبي طالب بحرق أي إنسان وهو حي، إذ الفِعل خارمٌ للمروءة ويعتريه القسوة والفظاظة

والجلفة في التعامل والعقاب، ولم يكن هذا سلوك أيٍ من كبراء وفُضلاء الصحب الكرام.

ثالثاً: كان هناك صراعاً سياسياً حاداً بين فريق الإمام علي بن أبي طالب وفرقة الخوارج، وعكرمة كونه كان خارجياً فليس من الغريب أن يتجنى الراوي على الإمام علي بهذا القول الفاحش...أقول أيضاً ورغم أن البعض حاول نفي خارجية عكرمة كابن حجر والطبري وغيرهما، إلا أنه لم يُمكن رد أقوالهما فخرجت ردودهما كأنها تتعامل مع نصوص ميتة لا حياة لأصحابها للذود عنها، وفي العموم لم يأتِ القول عليه بالخروج من فراغ.

رابعاً:فوق تهمة الخروج التي اتُهم بها عكرمة كان أيضاً رميه بالكذب من ابن عمر وسعيد ابن المسيب وغيرهما، هذا ورغم دفاع ابن حجر عن اتهامه بالكذب إلا أن ردود ابن حجر لم تخلو من الإحتمالية، وكأن الرجل لم يملك دليلاً صريحا للذب عنه.

خامساً: لم يحتج الإمام مسلم في صحيحه بروايات عكرمه فلم يكن من رجاله، والسبب كما قيل لكلام الإمام مالك فيه، وهذه نسبية الحُكم بعينها، راوي يوثقه البخاري ويقبل بروايته دون شواهد أو متابعات، في المقابل لا يحتج بنفس الراوي الإمام مسلم في صحيحه إلا مقروناً بصحابي آخر وفي رواية واحدة فقط للتعضيد، وكأن مسلم يحترز من روايته، خلاصته أن هذا الوضع يضع رواية الراوي موضع الشك لا التوثيق كما يفعل البعض تعصباً وحُمية.

سادساً: لو سلمنا بصحة الحديث فهو في النهاية حديث آحاد والآحاد لا يوجب الحد كما قال الشيخ شلتوت –رحمه الله-إذ الحد وإراقة الدماء يلزمه النص الصريح والمتواتر، وأشار الدكتور سليم العوا أن سكوت القرآن عن حد قتل المرتد هو في ذاته قرينة تصرف معنى الحديث إلى معنىً آخر،وقد طرح فضيلته عِدة قرائن أخرى في بحثه الماتع بعنوان.."عقوبة الردة تعزيراً لا حداً"..وذهب فيه إلى أنه لو صح الحديث فقد يُفضي ظاهره إلي القول بالتعزير أي أنه خاضعاً لسلطة ولي الأمر فتفعل ما تراه مناسباً، وبمحاولة فهم ما قاله العوا فهو يقصد خروج القضية من كونها حداً بحُكمٍ شرعي إلى كونها سياسة شرعية، ولكن مع ذلك.." فأي تدخُّل للسلطة تحت أي اسم كان، وبأي صفة اتصفت، بين الفرد وضميره مرفوض بتاتًا، وأن الاعتقاد يجب أن يقوم على حرية الفرد واطمئنان قلبه"..(جمال البنا- لا عقوبة للردة.. وحرية الاعتقاد عماد الإسلام)

تتمة القول في هذه النقطة: أن الرواية عليها كثير من الخلاف وبها من الغموض واللبس ما شاء الله ،وهي رواية آحاد وعليها كثير من الشبهات وليست لها شواهد صحيحة، ومن ثم كان الإستدلال بها على إراقة الدماء عبثٌ وضياع لهيبة الحق والإسلام في قلوب الناس.

6-هناك حديث أقوى وأصح من الحديث السابق وهو حديث ابن مسعود مرفوعاً.." لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه

المفارق للجماعة "..الحديث رواه الجماعة أي أنه أقوى من الحديث السابق بإضافة مسلم إلى مخرجيه،والحديث يتكلم عن قتل التارك لدينه المفارق لجماعة المسلمين كما هو واضح من الحديث،فمن كان يترك جماعة المسلمين على عهد رسول الله كان بالكاد ينضم إلى فريق الأعداء ومن ثم يُصبح محارباً، وهذا القول يُعضد رؤيتنا السابقة إذ قلنا فيها أن جميع المتون التي تتحدث عن عقوبة المرتد فهي خاصة بالمحارب دون غيره..وفي حديث ابن مسعود كان حمل المقيد على المُطلق..والمُطلق هنا هو.."التارك لدينه"...أما المقيد فهو.."المفارق للجماعة"..مما يقيد النص في نهايته بقيد الحرب والإعتداء لا غير.

7-رُوي عن بعض أئمة السلف من أهل السنة والجماعة كابراهيم النخعي وسفيان الثوري وغيرهما قولهم الصريح بأن المُرتد لا يُقتل...(د.عدنان ابراهيم-محاضرة حد الردة في القرآن والسنة)

8-أفتى الكثير من علمائنا في العصر الحديث بأنه لا قتل للمرتد في الإسلام كالإمام محمد رشيد رضا والإمام محمد عبده والإمام محمود شلتوت والأئمة عبدالعزيز جاويش وعبدالمتعال الصعيدي وعيسى منون ويوسف القرضاوي ومحمد البوطي وراشد الغنوشي وطه جابر العلواني وغيرهم الكثير..أفتوا جميعاً بأنه لا قتل للمرتد في الإسلام..(المصدر السابق).

-يتضح لنا من سياق المناقشات أن قضية قتل المرتد هي قضية سياسية بحتة ولا علاقة لها بالحُكم الشرعي، فالله لم يأمر الإنسان بقتل المرتد ،

فقد خلق الله الناس متفاوتون في عقولهم وأفهامم، ولكونهم مختلفين فلا يجوز أن نتقوّل على الله حُكماً جائراً يعاقب الإنسان على خلافه رغم كون هذا الخلاف سنة من سنن الله في خلقه..قال تعالى.."ولا يزالون مختلفين ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"..وتكفي الرؤية القرآنية الفريدة في صياغة تعامل مع كافة المخالفين بمن فيهم المرتد، فحتى مع الزجر والوعيد لم يصرح القرآن بعقوبة القتل، ولمن يتفنن في صناعة تخصيص لبعض العام من القرآن نقول له اتقِ الله ولا تُشرعن لنفسك ما لم تُؤمر به، فحتى كافة تخصيصاتك ونسوخاتك مردودٌ عليها من نفس رتبة الدليل ،بل هناك أدلة أقوى ولكنك تغض الطرف عنها لحاجةٍ في نفسك الله يعلمها...

رسالة في القعقاع بن عمرو التميمي

شخصية القعقاع بن عمرو التميمي..جاءت كمسلسل فني عُرض مؤخراً وحاز على إعجاب الكثيرين....ولكن كعادة البحث عن أي شخصية تاريخية فلن نكتفي بالنص..حيث لا يمكن اعتماد التاريخ كرواية ينبني عليها حُكماً، بل يُعتمد على الرواية والرؤية معاً..هذه إشكالية كبيرة تلك التي لم يتم فيها الربط بين الرواية التاريخية ورؤيتها التي تستنتج حدثاً فارقاً أو مُدخلا صغيرا لقضية كبري..من هنا يأتي دور الفهم ببيان تلازم الرواية والرؤية ..حيث وجود المادة التاريخية ليس قاضيا علي وجودها ولو بصحة سندها أو نسخها..فمستوي الفهم هو الذي يُحدد بيان هذا التلازم بدلالة واضحة حتى وإن شككنا في بعض صحتها ..ولكن في النهاية لن نستطيع قراءة التاريخ إلا بالرؤية عبر الرواية..

في البداية وكما البحث السابق حول قضية "بناء الرسول بصفية بنت حيي بن أخطب"..هذا البحث هو ثمرة من ثمرات مجهودي في أحد المواقع..ناقشنا فيها قضية القعقاع بالتفصيل، ولم نترك شاردةً ولا واردةً إلا وطُرحت، وكما عادة هذه النوعية من الحوارات فنتائجها غالباً ما تكون منطقية في حين توافر شروط الحوار الجيد بوجود أطراف تعقل وتحاور أكثر مما تنقل وتتعصب..وسنحاول إيجاز البحث بطريقة سلسة وجديدة لم يتطرق إليها من خاض في نفس المسألة من قبل.

قيل أن القعقاع صحابي وقيل أنه من كبار التابعين..

أو كما قال ابن عبدالبر عنه وعن أخيه عاصم بن عمرو.." " لا يَصِحّ لهما عند أهل الحديث صُحبة ، ولا لقاء ، ولا رواية ، وكان لهما بالقادسية مشاهد كريمة ، ومقامات محمودة ، وبلاء حسن "..
الاستيعاب(2/784)...

وكذا ابن الأثير حيث قال أنه روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : " لصوت القعقاع بن عمرو في الجيش خير من ألف رجل "..
أسد الغابة (390/4)..
وكذا أبو علي مسكويه.. قال أنه روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال أيضا :" لا يهزم جيش فيه مثل هذا "..يقصد القعقاع..
تجارب الأمم " (332/1)..

ومن الإصابة لابن حجر قال.." " كتب عمر إلى سعد : أيّ فارس كان أفرس في القادسيّة ؟ قال :فكتب إليه : إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو ، حمل في يوم ثلاثين حملة ، يقتل في كل حملة بطلا ".. الإصابة (343/5)

أرى أن ابن حجر عده من الصحابة وكذلك مؤرخين معاصرين -ولكن إسلاميين -كالدكتور راغب السرجاني والدكتورعلي الصلابي وغيرهم حتى أن الصلابي أشرف علي المسلسل المذكور بنفسه وقام علي تجريد الشخصية وإعطائها دوراً في القادسية فاق –إلى حدٍ كبير -دور سيدنا خالد بن الوليد في نفس المعركة..ولكن هل ما حدث هو جهل بالتاريخ أم علمٌ تامٌ به؟..سنرى ذلك من خلال البحث –بإذن الله-..وهل كان ذلك أيضاً هو بمثابة وقوع في مصيدة تاريخية ملأت كتب التاريخ والتعريفات بالصحابة أم لا؟!...سنرى ذلك أيضاً...على جانبٍ آخر سمعت أن الشيخين السلفيين أبي إسحاق الحويني و سلمان العلون أنهما أنكرا حقيقة وجود هذه الشخصية أو كونه صحابي ورجح الحويني أن يكون تابعياً عاش في زمن بعد وفاة الرسول..وهذا غريب إذ ليس من المعهود عن محدثي وشيوخ السلفية إنكار شخصيات تاريخية أو معدودة ضمن الصحابة-إجمالاً-بل المعهود غير ذلك..ولكن بمتابعة هذا الرأي وقفت على أن سبب إنكارهم عائد علي مكذوبية الراوي لكافة روايات القعقاع .

هذا الراوي الناقل لكافة روايات القعقاع هو .."سيف بن عمر التميمي".. وهو راوي متهم بالزندقة عند ابن حبان وبالكذب عند ابن معين... في حين نبحث عن أن يأتي خبر إلينا بذكر القعقاع بن عمرو قبل سيف بن

عمر والذي توفي في أواخر القرن الثاني الهجري ولم نعثر على رواية واحدة- ولو منقطعة-تروي عن القعقاع قبل زمن سيف –أي في القرن الأول الهجري.. في حين نقل الإمام الطبري –في القرن الثالث -هذه الروايات في تاريخه بعد جمع ما يقارب من 735 رواية تاريخية مأخوذة من كُتب سيف بن عمر التميمي..لاحظوا أن القعقاع تميمي وكذلك الراوي "الكذاب" سيف بن عمر..وهذا يُزيد من قضية اختلاق هذه الشخصية من قِبَل هذا الراوي ودسها في التراث الإسلامي في عصر كان النقل فيه مقدم على العقل بشكلٍ كبير...سنرى حقيقة ذلك بإذن الله.

لتأكيد ضعف أو مكذوبية سيف بن عمر التميمي الناقل الوحيد لروايات القعقاع سنطرح رؤية حديثية تحمل أقوال أهل الجرح والتعديل في الرجل في أطروحة زميل فاضل طرحها أثناء النقاش:

أقوال أئمة الجرح والتعديل في سيف بن عمرو

1- يحيى بن معين :فلس خير منه- ضعيف

2-أبو زرعة الرازي: ضعيف الحديث

3- أبو داوود : ليس بشيء

4-أبو حاتم الرازي : متروك يشبه حديثه حديث الواقدي

5- يعقوب بن سفيان: حديثه وروايته ليس بشيء

6-النسائي : ضعيف

7- الطبرى : صرح بضعفه وانه يضاد الإجماع (مع روايته عنه)

8-العقيلي : لا يتابع على كثير من حديثه

9- ابن ابى حاتم : متروك الحديث

10- ابن السكن: ضعيف

11- ابن حبان :يروي الموضوعات عن الإثبات وقالوا: انه كان يضع الحديث وكان قد اتهم بالزندقة.

12-ابن عدى :بعض أحاديث سيف مشهورة وعامتها منكرة

13-الدار قطني : متروك- ضعيف

14-الحاكم :متهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط

15-البرقاني : متروك

16-الصيرفي : من الضعفاء والمتروكين

17-ابن نمير :سيف الضبي تميمي وكان جميع يقول: حدثني رجل من بني تميم وكان سيف يضع الحديث وكان قد اتهم بالزندقة.

18-ابن الجوزي: ذكره في الضعفاء

19-الذهبي في الكاشف : تركوه واتهم بالزندقة- قد نقل عنه بعض الروايات.

20- ابن حجر :ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ

وهذا متمسك للذين يقولون أن ابن حجر وثقه في التاريخ وقد نقل عنه ابن حجر في التراجم والغريب انه لم يستشهد به ولا برواياته مرة واحدة في أحداث الفتنة التي نقلها ابن حجر في شرحه للبخاري في الجزء الثالث عشر .

21- أعرض عنه أصحاب الكتب الستة عدا الترمذي فقد روى عنه رواية واحدة - حسب على-وها هو نقل لتلك الرواية مع تعليق الترمذي والألباني عليها من موقع الشيخ ناصر الدين الألباني(لحديث: حدثنا أبو بكر محمد بن نافع حدثنا النضر بن حماد حدثنا سيف بن عمر عن عبيد

الله بن عمر عن نافع عن بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فقولوا لعنة الله على شركم قال أبو عيسى هذا حديث منكر لا نعرفه من حديث عبيد الله بن عمر إلا من هذا الوجه والنضر مجهول وسيف مجهول قال الترمذي : حديث منكرقال الشيخ الألباني : ضعيف جدا)

22- نقل الشيخ عن ابن كثير هذا النقل - في معرض تصحيح اثر يا سارية الجبل- (ثم قال ابن كثير : " و هذا إسناد جيد حسن " . و هو كما قال , ثم ذكر له طرقا أخرى و قال : " فهذه طرق يشد بعضها بعضا " . قلت : و في هذا نظر , فإن أكثر الطرق المشار إليها مدارها على سيف بن عمر و الواقدي و هما كذابان) ولم أر الشيخ يعقب على نقل ابن كثير.

23-قول الشيخ فى حديث الحق مع عمار- ضعيف جدا - يقول الشيخ (بشر بن الفضيل مجهول بالنقل " .قلت : وسيف بن عمر متهم ، فالحديث ضعيف جدا .)

24- وهذا نقل آخر عن الألباني من السلسلة الضعيفة (وهذا موضوع ؛ آفته خالد هذا ؛ قال في "التقريب" :"رماه ابن معين بالكذب ، ونسبه صالح جزرة وغيره إلى الوضع" .ومن فوقه مجاهيل . وقال ابن عبدالبر في ترجمة سهل بن مالك من "الاستيعاب" :"حديث منكر موضوع ، وفي إسناده مجهولون ضعفاء ، يدور على خالد بن عمرو القرشي ، وهو منكر الحديث ، متروك الحديث" .ثم أخرجه أبو نعيم من طريق سيف بن

عمر : حدثنا أبو همام سهل بن يوسف به .قلت : وسيف هذا صاحب كتاب "الردة" ؛ حاله قريب من خالد بن عمرو ؛ قال الحافظ في "التقريب" :"ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ ، أفحش ابن حبان القول فيه" .قال ابن حبان في "الضعفاء" (1/ 245) :"اتهم بالزندقة ، كان يروي الموضوعات عن الأثبات" .وقال الحاكم :"اتهم بالزندقة ، وهو في الرواية ساقط" .)....أرأيت كيف جعل الشيخ سيف بن عمرو قريب من خالد الذي قيل فيه منكر الحديث ومتروكه.

25- يقول الشيخ الألبانى (وأما (سيف بن عمر) ؛ فمعروف ؛ لكنه متهم بالوضع ؛ قال الذهبي في "المغني" :"له تواليف متروك باتفاق..انتهى الاقتباس.

قلت"سامح عسكر": وهكذا يظهر دفاع ابن حجر عن سيف وقوله"عمدة في التاريخ" .. بل دافع عن الراوي في رده على من اتهموه بالزندقة، ومذهب ابن حجر في تعيين الصُحبة هو مذهب الرؤية- كما هو مشهور، لذلك نراه وقد جمع في الإصابة جمعاً غفيراً من الرجال ينسبهم للصُحبة ،وكأن ابن حجر بهذا الجمع قد استفاد من كُتب سابقيه وعلى ما يبدو أن إضافاته كانت أكثر... لذلك أرى أن من يريد معرفة الصحابة عليه بعدم حصر معلوماته في سلك ابن حجر والذهبي فكليهما مدرسة واحدة- تقريباً -والبديل ورغم أسبقيته إلا أنه كتاب جيد لمعرفة الصحابة وهو كتاب ابن عبدالبر المسمى"بالاستيعاب في معرفة الأصحاب"..وهو أفضل الموجود من كُتب التراث عن الصحابة...بينما الشائع هو انتشار رؤية الإمامين ابن حجر العسقلاني والذهبي وكلاهما من مُعظّمي السند دون

الدراية ، لذلك فهم يُثبتونه كحقيقة تاريخية ولكن برواية دون رؤية..مسألة سهلة التصور..نعم يصعب علينا تصور التاريخ أو القطع بأحداثه ثبوتاً ونفياً..ولكن في قضايا الوجود لا محيص من القطع..والشُبهة هنا داحضة الوجود إن لم يُثبت الآخر بدليل صحيح عن عقل صريح هذا الوجود..

بتفصيل أكثر حول التساهل مع سيف بن عمر في الروايات التاريخية وعدم قبوله كراوي حديث...قرأت اعتماد سيف بن عمر كمؤرخ لدي الذهبي وابن حجر وغيرهم ..في حين أصل شهادة المحدثين له بالضعف..ووثاقة الإنسان منا في "عِلمه-وقدرته-وأخلاقه-وأمانته"..هذه شروط رئيسة خارج إطار التفكير داخل المذاهب والأديان بدلالة توثيق الشيعي لدي البخاري في وصل روايات السُنّة..هنا تُثار عِدة إشكالات..

1- أيهم أدق رواية وأقل عدد من الكلمات..التاريخ أم الحديث...الجواب هو الحديث..وهو دافع من الدوافع التي جعلت من علماء أهل السنة يتشددون في رواية الحديث....هذا منطقي.

2-وعليه فمن يُحكم عليه بالكذب والفبركة في الحديث -وهو أدق رواية وأقل عدد من الكلمات..فمن المنطقي أن يُحكم عليه بالكذب والفبركة فيما هو أعلي منه من حيث عدد الكلمات –حتى إن لم يكن للدقة حساب..

3- أعتقد أن سبب توثيقه كمؤرخ لدي الذهبي وغيره هو اعتماده كراوي

أصيل لروايات الفتنة-كما شددت في أكثر من موضع..ولو أسقطه الذهبي كمؤرخ فهذا إسقاط من الذهبي لتاريخ الفتنة بأكمله..أما في الجانب الحديثي فسهل تكذيبه دون ضرر..وقد أثبتنا ضعف هذا القول – منطقيا..

4-هناك إِشكالية عقلية كيف لراوي متهم بالزندقة لدي ابن حبان والحاكم والنيسابوري..أن يُوثق كمؤرخ لدي الذهبي..حتى لو اعتددنا بحُجة "التاريخ والحديث" الملقاة..فلماذا لم يبحث الذهبي في أسباب الحُكم وتفصيلها دون رد قول ابن حبان باختزالية..ولم لم يرد علي ابن معين وهو من هو في الحديث ورجاله..

5-الحديث هو بالأصل تاريخ -من حيث المضمون..والكذب في المضمون هو كذب كلي وليس جزئي كي نثبته هنا وننفيه هناك.

6-البعض يجيز الراوية التاريخية عن الضعفاء والمتروكين بحُجة تساهل جمهور أهل العلم في التفرقة بين ما يشترط للروايات الحديثية وما يشترط للروايات التاريخية فيتشددون في الأولى لأنه ينبني عليها العمل ويتساهلون في الثانية متبعون لمنهج النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه الذي أجاز لنا الرواية عن بني اسرائيل "ولا حرج"!!..والرد على ذلك سهل وبسيط أن الاحتجاج بجواز الرواية عن بني إسرائيل مصحوب بأمر واضح خُلاصته في .."لا تصدقوهم ولا تكذّبوهم"..والاعتداد بجواز الرواية عن بني إسرائيل واستخدامه كذريعة للتساهل في نقل روايات التاريخ مخالفة لأمر رسول الله بعدم التصديق أو التكذيب ..وعليه -

وحسب أمر رسول الله- جاز لنا الطعن في أهلية سيف بن عمر كمؤرخ صادق وليس عمدة في التاريخ!

في المحصلة أجد أمامي رواية تاريخية دون رؤية توضح مقدماتها وكيف وأين نشأت بوضوح..حتى تاريخ وفاتها قيل في العام 40 هجرية وهذا يتعارض مع كونه صحابي -مشكوك فيه- حسب من أنكر وجوده"كصحابي"...حتى أن الروايات عنه في أكثرها تبدأ بكلمة.."قيل"....وعليه فكان ذكر النتيجة دون السبب وهو إخلال واضح بتجريد شخصية لإثبات وجودها....

وهنا أو أن أقف وقفة.. أولاً: سيف بن عمر ساقط الرواية وسلوك الاختلاق مُحتمل منه "عقليا" ..ثانياً:أن شخصية القعقاع ليست شخصية مجهولة كي تندثر لدي الرواة المعاصرين لزمن الفتنة بهذا الشكل..أكيد لو كانت موجودة لجاء إلينا خبرها بأكثر من طريق غير سيف بن عمر التميمي..هذه شخصية صُنع عنها مسلسل درامي كامل ..يعني -وحسب العُرف الإنساني -أن الروايات الناقلة لها ولأخبارها كثيرة وكثيرة جدا..لدرجة أنها قد تتجاوز عدد الروايات الناقلة لبعض الصحابة الثابت وجودهم ولا نزاع فيهم...حتى أن ملامح الشخصية نفسها وبواسطة الرؤية التاريخية تستشف منها بطولة غير عادية..وأنها تعدّت كونها شخصية هامشية أو صحابي غير معروف أو حتى تابعي مجهول...أنت أمام قائد معركة تنافس في البطولة مع صحابة أفذاذ كخالد بن الوليد..بل وتعدي بطولته في كثير الروايات الناقلة لآثاره..

منطقيا.. شخصية بهذا المستوي من الشُهرة فلابد من ذكرها أو حتى تواتر أخبارها..وعدم الاكتفاء بذكرها تاريخيا..بل ستُذكر أيضا حديثياً..إذاً هناك منطقة مُظلمة تجعل الفرد منا وهو يقرأ عنها يقعد في حيرة..من هذا المُدخل أري أهمية سلوك الرؤية التاريخية كبديل ولو مؤقت عن الرواية والتي وحتى الآن عجزنا عن وصلها بزمن المتقدمين..

عرضنا هذه الرؤية على المخالف مستشكلاً انفراد سيف بن عمر"الكذاب" في الرواية عن القعقاع.. فقال.." ما كتبه علماء المسلمين قبل سيف بن عمر مما يخص السيرة وأحداث التاريخ الإسلامي الأولى في حكم المفقود والنادر"..وحسب هذا الكلام فالمخالف يقر بأنه لا يوجد دليل يوثق أحداث القعقاع من غير طريق سيف بن عمر، ولكن عزا عدم التوثيق لاندثار وفقدان الأصول التاريخية التي توثق تلك الحقبة..والرد على هذا الادعاء أنه لو كان ذلك يصلح تبريراً فلماذا لم نحمله على كافة الصحابة وأن اندثار وفقدان الأدلة لن يصيب القعقاع بمفرده بل سيطال شخصيات أخرى مؤثرة..

ولكن بعد البحث أكثر تبين أن هناك طريقاً آخر يوثق القعقاع من غير طريق سيف وهو رواية ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص 109 وقصر الأمل ص 182 إذ يقول فيها "حدثنا سوار بن عبد الله نا مرحوم بن عبد العزيز نا القعقاع بن عمرو قال : صعد الأحنف بن قيس فوق بيته فأشرف على جاره فقال سوءة سوءة دخلت على جاري بغير إذن لا

صعدت فوق هذا البيت أبدا " انتهى...وهذا سند صحيح متصل يثبت وجود القعقاع وصحة روايته-حسب كلام المخالف.

وسنرد على ذلك من وجهين..

الأول: هذا الطريق يُثبت وجود القعقاع بن عمرو من طريق ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن سوار عن مرحوم..وهذا طريق عن غير سيف بن عمر ولكنه لم يكن قبل سيف بن عمر بل بعده..وفاة سيف بن عمر التميمي 180 هـ..ووفاة ابن أبي الدنيا 281 هـ..أي بعد وفاة سيف بن عمر بحوالي 100 عام..والسؤال الأبرز كان عن إمكانية الكشف عن ذكر القعقاع قبل زمن سيف وهذا غير موجود.

الثاني: أن سند ابن أبي الدنيا مقطوع لأن مرحوم بن عبدالعزيز والذي من المفترض أنه نقل عن القعقاع عاش في القرن الثاني الهجري بينما -وحسب ترجمة القعقاع- فقد توفي في العام 40 هجرية..وهذا يعني أن السند مقطوع..علاوة علي كون أبي الدنيا جاء بعد زمن سيف..وما دام ذكر مغازي القرنين الأول والثاني ليس متاحا إلا من سيف فهذا يُعزز من توقعي بأن توثيق الذهبي وابن حجر لسيف بن عمر "كمؤرخ" كان لهذا السبب ألا وهو انعدام آثار تلك الحقبة إلا من طريق سيف..وإلا ذكر الحافظين ذكرا في سيف والقعقاع من غير سيف ولو عزواً أو بلاغا.

حتى الآن تبقي الإشكالية كبيرة..أنه لو فرضنا صحة ما ذهب الكثير بعض المحدثين –كالشيخ أبي إسحاق الحويني السلفي الذي قال بأنه لا

يوجد صحابي بهذا الإسم-..فهذا يعني أن تاريخ الوفاة الوارد في الترجمة غير صحيح وإلا كان صحابياً..وحتى الآن لم يُثبت له صُحبة أو حياة في زمن الخلفاء الراشدين والفتنة..وعليه فاختلاق الشخصية وارد من جِهة كون وجوده محتملاً في زمن متأخر كتابعي ثم وبحكم كذب سيف بن عمر نسب سيف للرجل بطولات وهمية قد يكون قد وضعه محل بطولات خالد ابن الوليد كما ذكر المؤرخ المدائني خالد في موضع.. ذكر محله الطبري عن سيف القعقاع..

مسألة اختلاق الشخصيات مقبولة عقليا وعلميا..فالتاريخ في الماضي كتُب علي هوى السلطان..ودول مستبدة كالأموية والعبيدية والصفوية..فاق استبدادها السياسة بل تعدي إلي الدين..هذا مؤثر عظيم علي المؤرخ والراوي..حتى اختلاق المكان أيضا جائز عقليا وعلميا..قصة أصحاب الكهف وما روي في تفاسير المسلمين وما توافق بين التفاسير الإسلامية وعقائد المسيحيين حول أسطورة النُوّام السبعة خير مثال..حيث اختلقوا كهفا في أوروبا الشرقية علي أنه الصحيح وهو مكان الحدث..ثم اتضح علمياً أنها كانت أسطورة متداولة من أيام أرسطو أي قبل زمن المسيح..وقد كانت مُدخلا كبيرا للطعن في القرآن لولا سلوك الباحثين بإعادة النظر في القصة بمنظور غير منظور المفسرين واتضح أن الكهف ليس في أوروبا بل في الأردن..وأن القرية التي كان فيها أصحاب الكهف المؤمنين كانت يهودية وليست رومانية وأصحاب الكهف أنفسهم كانوا مسيحيين موحدين..وهذا يُثبت المنهجية التاريخية الضعيفة التي تعاملنا بها مع التاريخ....

الشاهد أن التاريخ يلزمه وصل ثقة -علي الأقل لإثبات الوجود وإلا وقعنا ضحية للتصيد الغير النزيه..مؤرخ متهم بالزندقة يروي تاريخ المسلمين ويُتهم باختلاق شخصيات عجزنا عن إثباتها..هذا تاريخ مسلمين ويجب تحري البحث فيه بدقة..ولو أعملنا قواعد الحديث في التاريخ لكان لدينا رصيد تاريخي أكثر دقة..ولكن التساهل فيه هو ما جلب علينا هذه النكسات..لذلك اعترضت علي منهجية توثيق بعض المؤرخين وإن كانوا ضعفاء وكذابين في الحديث ومن أمثالهم الراوي الذي نحن بصدده المسمى "بسيف بن عمر التميمي" فقد وثقه بعض الفقهاء والمحدثين "فقط كمؤرخ" والسبب كما أسلفت أنه يعد هو الراوي الوحيد صاحب النصيب الأكبر من روايات الفتنة وما عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم..

أيضاً لدحض أي شبهات تعتري ما وصل إليه البحث وجب علينا للتقريب أن نضرب الأمثلة من الواقع كي تكون الرؤية أكثر وضوحاً بسؤال أو أكثر قاضٍ حاكم..سنسأل سؤال وعلى أي مخالف الإجابة عليه بوضوح.." هناك رجلين الأول عاش في القرن التاسع عشر..والثاني عاش في القرن الحادي والعشرين...ادعى الثاني–كأول شخص يدعي ذلك- أن هناك شخصا يسمي القعقاع بن عمرو معاصرا للأول في القرن التاسع عشر..وكان صاحب بطولات وسجايا قويمة..وزعم له مواقف مع أصحاب الأول...بينما عُرف عن الثاني وثاقته كمؤرخ..ولم يُوثّق كراوي للحديث...سمع الناس من الثاني بطولات عن القعقاع..فهل للناس أن يصدقوه بدون الرجوع لمعاصري الأول بطُرق نقل صحيحة..أم يكتفوا

بحكايات الرجل ويصدقونها لأنهم يُحسنون الظن بالثاني أو أنهم يوثقونه كمؤرخ"...انتهى..

إن الإجابة على هذا السؤال ستضع المشرط في الجرح قولاً إما لعلاجه أو لإيذائه ، فالباحث في التاريخ يجب أن يتجرد من أي مرجعية مذهبية أو خلفية أيدلوجية تمنعه من الحياد..وأصل السلوك الإنساني حين البحث في التاريخ هو الحياد والموضوعية وعدم مهابة الأفراد..فنحن لا نعلم وإلي الآن ظروف من أثبتوا حقيقة وجود هذه الشخصية...أو حتى من وثقوا ناقلها تاريخيا..وبينما كذبوه حديثياً وثقوه تاريخياً ومن هنا يأتي التناقض بانتفاء الصدق عن المضمون..

أيضاً فهناك من خاض في قضية "القعقاع بن عمرو التميمي" ومنهم الشيخ حسن بن فرحان المالكي وقد فصل القضية بمقالات مترابطة ضمن أجزاء أطلق عليها.."القعقاع بن عمرو حقيقة أم أسطورة"..وقد اطلعت علي الكتاب وقرأته من بدايته لنهايته والحُجج فيه قوية وجميعها أدلة من التراث السني دون غيره..هناك من رد علي المالكي وأشهرهم د . سليمان بن حمد العودة في كتابه .." الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ من التاريخ الإسلامي ".. وقرأت مساجلات ثنائية وردت ضمن سياق صحفي وثقته الصحف السعودية تحت عنوان.." آراء وأصداء حول عبد الله بن سبأ و روايات سيف في الصحف السعودية "....كان حوارا ممتعا، تارة يهدأ وتارة أخري يشتد،ولكن في النهاية كان حوارا ماتعا فصّل المسألة بشكل أكثر حِرفية..

هناك من صنع بحوثاً حول الراوي"سيف بن عمر التميمي" وحاول توثيقه كمؤرخ ثم بدا للقارئ أن هناك بحثاً لم يقف فقط عند توثيق سيف مؤرخاً بل تعداه البحث إلى توثيقه كراوي حديث، وهذا يخالف "إجماع" أئمة الجرح والتعديل. ...كمثال ما صنعه الباحث الكريم الدكتور أحمد معبد في العمل على توثيق سيف تاريخياً فإذا به الحال يصل لتوثيقه حديثياً!!!..ووصل إلى نتيجة مفادها ما يلي.." ما يرويه سيف من الأحاديث النبوية يعتبر ضعيفا بسبب ضعف ضبطه للروايات الحديثية، لانشغاله بالتاريخ، لكنه ضعف قابل للانجبار بما يعضده من متابع أو شاهد كما هو معروف، وذلك إذا لم يكن في الحديث علة أخرى من جهة غيره، كحديث معلموا صبيانكم.. أما رواياته التاريخية فإنه يحتج بها فيما ينفرد به لاعتنائه بضبطها ومعرفتها كما تقدم، وذلك إذا لم يخالف أرجح منه، أو توجد علة أخرى من جهة غيره."انتهى

قلت: أستغرب تبرير الباحث للضعف الحديثي لسيف بعلة انشغاله بالتاريخ..نتيجة دون مقدمات منطقية وإلا جاز لنا -هو راوي ضعيف قابل للانجبار كما يقول..أن لا يحتج برواياته التاريخية لانشغاله بالحديث-منطق معكوس...فالحديث في مضمونه تاريخ ..صحيح البخاري نفسه تاريخ..والرواية إن لم تُنقل بحِرفية وأمانة تساوى مقدار الأمانة والصدق بمعيار الذات وصلاحها أو أهليتها فلا حجة لها..فهذا التبرير السَمِج-وسامحوني على اللفظ فلم أجد غيره لوصف هذا الفعل-يُوجه إليه سؤالاً حاسماً..والسؤال هو كيف عرف ذلك؟!!..ولماذا لا نفترض العكس؟؟!..بكل بساطة إن ما فعله الباحث هو تحكمٌ بلا دليل..حتى طريقة توثيقه لسيف بن عمر ستصل بالرجل حتما لمرتبة لم

يصل إليها عند الحُفاظ...وهذا دفاع غير منضبط عن شئ مجهول..وما كان رصدنا لدافعه إلا توثيق لخلفيته التي يتحدث من خلالها.

لكن الباحث نفسه يجيب علي هذا الغبش بقوله في مقدمة بحثه.." "وقد ألف سيف في التاريخ الإسلامي كتابين اشتهرت نسبتهما إليه وهما: كتاب الردة وكتاب الفتوح وموضوع الكتابين كما ترى حساس للغاية، لتعلقه بمرحلتين من أدق وأصعب مراحل تاريخ المسلمين"..انتهى

قلت: هذه هي مرجعية الباحث في بحثه..حساسية المرحلة ودقتها وصعوبتها..إذاً أستنتج أن ذلك هو دافعه من وراء البحث..وبالتالي ليس غريبا أن يقع في الخطأ المنطقي السابق هكذا دون وعي..أيضاً فالباحث يُقر بحِجّية سيف التاريخية ولكنه يربطها بعدم مخالفة الأرجح أو وجود علة أخري من جهة غيره..وهذا يبطل الاستدلال به في قضية "وجود" القعقاع..لأن الأرجح ثابت وهو عدمية ذكر هذه الشخصية من أي مصدر خلافاً لذلك الراوي..والعلة الأخرى المذكورة هي ذاتها ما ثَبُتَ رُجحانه..

أخيراً فالبحث في القضية لن يتجاوز حدود البحث عن شئ مجهول، هذا لأننا نتعامل –في الأصل- مع نصوص ميتة بحاجة للدفاع عنها من أصحابها –وهذا مُحال-لذلك وَجب تحكيم العقل لتجريد المسألة وإعطائها لبوساً منطقياً يصلح لكي يكون دليلاً شرعياً أو تاريخياً، فالمسألة تاريخية بحتة ولكن لها أفرع وذيول تتعداها لأحكام وفقه المذاهب..نعم هذا صحيح..فسقوط رواية"سيف بن عمر" تاريخياً يعني أن الشخصية الثانية التي انحصرت روايتها عنده هي الأخرى مشكوك في صحة

وجودها..هذه الشخصية هي"عبدالله بن سبأ اليهودي"..لننظر إذاً لكم المتناقضات والخلافات والأسئلة التي لم توجد لها إجابات..هذا كي نقف على رؤية كاملة الأركان نستطيع بها الوقوف على حقائق التاريخ .

رسالة في صيام يوم عاشوراء

يصوم المسلمون السُنّة يوم العاشر من مُحرّم من كل عام، ويُطلقون على هذا اليوم .."يوم عاشوراء".. نسبةً لليوم العاشر من الشهر، ولكن المسلمون من الشيعة يقولون بأن صوم يوم عاشوراء هو بدعة اختلقها الأمويون .."النواصب"..لتعظيم يوم استشهاد الإمام الحسين عليه السلام..وإلى الآن يحتفل السُنّة بهذا اليوم ويعدونه عيداً سنوياً لأسباب ليست لها علاقة بحادثة استشهاد الإمام الحسين ،بل ويعدون صوم هذا اليوم قُربة من القربات استناداً إلى مرويات حديثية وتاريخية تجعل صوم هذا اليوم سُنة واقتداءً بالرسول والجيل الأول من المسلمين.

هنا نود أن نبحث في هذا الموضوع بعيداً عن أي رؤية مذهبية أو أيدلوجية وسنجعل فيها الدليل هو الحَكَم لتبيان هذه القصة ...

سنورد النصوص كما هي في "صحيح البخاري"..وسنعقبها بالإشكاليات:

أولا-الروايات:

1-حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

"قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ مَا هَذَا قَالُوا هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى قَالَ فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ"

2-حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

"كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُهُ فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ"

3-حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ"

4-حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

"يَوْمَ عَاشُورَاءَ عَامَ حَجَّ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا يَوْمُ عَاشُورَاءَ وَلَمْ يَكْتُبْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ وَأَنَا صَائِمٌ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُفْطِرْ"

ثانياً-الإشكاليات:

1-هناك تعارض بين الرواية الأولى والرواية الثانية..ففي الرواية الأولى يظهر بأن النبي لم يكن يعلم عن عاشوراء وصومه شيئا حين قدم للمدنية..بينما الرواية الثانية تقول بأن الرسول كان يصوم عاشوراء في مكة بدلالة صوم قريش لهذا اليوم...كيف؟!

2-الرواية الأولى بها انتقاص واضح من رسول الله ، إذ جعلت بني إسرائيل هم الذين يُعلّمون الرسول ماهية هذا اليوم وفضله وأيضا صيامه..مما يفتح بابا للقول بأن اليهود هم أساتذة النبي وكانوا يعلمونه أشياء....وكيف يأمن لهم النبي بمجرد قولهم أن هذه كانت شريعة موسى وهم من عُرف عنهم الكذب وتحريف الدين؟!

3-الرواية الثالثة تقول بأن الرسول أمر بصوم يوم عاشوراء ثم وبعد فرض صيام شهر رمضان انتقل حُكم صيام يوم عاشوراء من الوجوب إلى الجواز بدلالة.."فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ"

أي نفهم من ذلك أن صوم عاشوراء-حسب الرواية-كان مفروضا قبل تشريع صيام رمضان في السنة الثانية من الهجرة-بصريح القرآن.....بينما الرواية الرابعة- المسموعة من معاوية- تُقِر بجهل أهل المدينة بهذا اليوم حتى زمن معاوية..ومعروف أن زمن إسلام معاوية كان في السنة العاشرة من الهجرة..كيف؟!

4-لا أعلم عن تعظيم اليهود ليوم عاشوراء إلا من هذه الروايات..فاليهود المعاصرين لا يحتفلون به، كيف ذلك وهم يعلمون أن أسلافهم كان يعظمونه..أود تبيان هذه النقطة فقد تكون معلوماتي حول الدين اليهودي ضعيفة..فلم أعلم من شريعة اليهود أي تعظيم ليوم عاشوراء إلا من هذه النصوص التي وُجدت لدى المسلمين....وأي باحث في الأديان لا يأخذ شرائع الأديان من غيرهم..لابد وأن تكون لديهم نصوص صريحة وواضحة تحملهم على تعظيم ذلك اليوم..أين هذه النصوص؟!

5-هناك أقاويل يُرددها البعض أن صوم يوم عاشوراء كان يوافق يوم عيد الفصح اليهودي أو ما يسمى بعيد الخلاص الموافق ليوم نجاة بني إسرائيل من فرعون ويستدلون بأدلة..وأن أول من شرّع لصيام هذا اليوم لدى المسلمين هم الأمويون..فما مدى صحة هذه الأقاويل خاصة وأن الدكتور عبدالوهاب المسيري قال بأن اليوم الوحيد الذي تصومه اليهود هو يوم "الغفران"..أو يوم كيبور وهو الصوم الوحيد الذي ورد في أسفار موسى الخمسة...

قلت :هذا إن دلّ فإنما يدل أنه لا يوجد يوم يصومه اليهود يسمى بيوم عاشوراء!..ناهيك أن السنة لدى اليهود شمسية وليست قمرية..فمن إذا الذي ابتدع هذا الإسم ولصقه في رواية البخاري ونسبه لحديث الرسول مع اليهود...وهل يجوز لنا القول بأن جميع روايات صوم يوم عاشوراء هي إسرائيليات مصحوبة بكيدية مذهبية تُعظّم من هذا اليوم؟!

6-لو جوّزنا صحة جميع الروايات وسلامتها فإن صوم يوم عاشوراء كان مستحباً قبل تشريع صوم رمضان..فلما نُسخ بصوم رمضان أصبح هذا اليوم كسائر الأيام يجوز فيه الصيام طبقا لقاعدة "من شاء ومن أبى فلا حرج عليه"..وأن انتظار هذا اليوم كعيد من عام لآخر هو غلو وكيدية مذهبية دخيلة على شريعة محمد..هل هذا الكلام صحيح؟

7-يقول الدكتور سعدي أبو حبيب في كتابه "القاموس الفقهي".."عاشوراء: اليوم العاشر من شهر المحرم عند جماهير العلماء، وهو اسم إسلامي لا يُعرف في الجاهليّة"..انتهى.. وكذلك وافقه ابن الأثير في "النهاية" وإبن دريد في "الجمهرة" والقاضي عياض في "مشارق الأنوار".

قلت: كيف ذلك والرواية الثانية في صحيح البخاري تؤكد ثبوت صحة صوم هذا اليوم في الجاهلية، ولو كانوا يصومونه في الجاهلية فعلي أي إسم أو عنوان كانوا يقدسونه؟!...إن صيام يوم وتعظيمه لهذه الدرجة لابد وان يكون عنوان التقديس أو إسم هذا اليوم في الجاهلية كان معروفاً لدى الصحابة ..والصحابة أغلبهم كانوا يعيشون في عصر الجاهلية وبالتالي

كانوا يعرفونه..فأين هذا العنوان من التراث الإسلامي غير عنوان.."يوم عاشوراء"؟

8-أنكر الشيخ الألباني في كتابه.."تمام المنة" .أي حديث به فضل التوسعة في يوم عاشوراء ردا على رواية"من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته"..فقال بعد تبيان ضعف طرق الحديث.."وهكذا سائر طرق الحديث مدارها على متروكين أو مجهولين ومن الممكن أن يكونوا من أعداء الحسين رضي الله عنه الذين وضعوا الأحاديث في فضل الإطعام والاكتحال وغير ذلك يوم عاشوراء معارضة منهم للشيعة الذين جعلوا هذا اليوم يوم حزن على الحسين رضي الله عنه لأن قتله كان فيه"....

قلت:ولكن الشيخ في ذات الوقت احتج بقول المناوي بقوله ..وقد نقل المناوي عن المجد اللغوي أنه قال: "ما يروى في فضل صوم يوم عاشوراء والصلاة فيه والإنفاق والخضاب والإدهان والاكتحال بدعة ابتدعها قتلة الحسين رضي الله عنه"....أي أفهم من ذلك أن رد الشيخ لا يقتصر فقط على منكورية التوسعة بل إلى الصوم أيضاً...بحاجة إلى من يُدلي بمذهب الشيخ كاملاً في المسألة؟

9-يقول المقريزي ما نصه...""فلمّا زالت الدولة (حكم الفاطميين) اتّخذ الملوك من بني أيّوب يوم عاشوراء يوم سرور ويوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنعون الحلاوات ويتّخذون الأواني الجديد ويكتحلون ويدخلون الحمام، جرياً على عادة أهل الشام، التي سنّها

الحجّاج في أيّام عبد الملك بن مروان، ليرغموا به آناف شيعة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي، لأنه قتل فيه وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيّوب، من اتّخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسّط ..."..الخطط المقريزيّة، ج1، ص 490....

قلت:رواية المقريزي تشير إلى أن الحجاج بن يوسف الثقفي هو من سنّ مظاهر الإحتفال بيوم عاشوراء، ومن ضمنها التبسطة في الطعام..وحتى زمننا هذا نرى ذلك واضحا أنه في يوم عاشوراء تُعقد فيه الأطعمة ويتبرك الناس فيه بالصلاه والصوم ..فهل الصوم هنا له علاقة بالإحتفال وبالأطعمة أم أن هذا شئ وهذا شئ؟ ..وبالتالي فانعقاد الأطعمة هو بدعة من عمل الحجاج؟..أما الصوم-لو صح- فقد كان طبيعيا خارج أي مظهر من مظاهر الإحتفال وإظهار الفرح والسرور وإعداد الأطعمة.

10-يقول ابن القيم الجوزية في كتابه زاد المعاد في هُدى خير العباد..."الرواية بأن النبي قال " لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع "، وأنه لم يأتِ العام المقبل حتى توفي تدلّ أن صوم عاشوراء والأمر بصيامه كان قبل وفاة النبي بعام، وهذا يتناقض مع الرواية الأخرى بأن ذلك كان عند مقدمه المدينة .. وكلا الحديثين من رواية ابن عباس نفسه!

قلت:ابن القيم يرى شُبهات حول روايات صوم يوم عاشوراء..فلماذا كانت مخفية عنّا؟!..أعلم مذهب ابن القيم في المسألة..وأعلم أن قداسة البخاري ومسلم لديه منعته من إكمال البحث ودراسة تلك الروايات

دراسة متستفيضة..ولكن ما قاله ابن القيم هو بمثابة خيط نرى به المسألة بشكل أوضح.

11-أخيراً يقول محمود باشا الفلكى فى تقويم العرب قبل الاسلام: "يظهر ان اليهود من العرب كانوا يسمون ايضاً عاشوراء و عاشور اليوم العاشر من شهر تشرين، الذى هو أول شهور سنتهم المدنية و سابع شهور السنة الدينية عندهم. و السنة عند اليهود شمسية لا قمرية فيوم عاشوراء الذى كان فيه غرق فرعون لا يتقيد بكونه عاشر المحرم بل اتفق و قوعه يوم قدوم النبى." دائرة المعارف البستانى 11:446 .

قلت: فحسب كلام الفلكي أنه حتى ولو صحت جميع الروايات المنسوبة لرسول الله في صوم يوم عاشوراء فهو لا يعدو كونه التقاء صوم يوم عاشوراء لدى اليهود مع قدوم رسول الله للمدينة..وبالتالي فثبوت يوم عاشوراء وجعله العاشر من مُحرّم كل عام لا أصل له.

رسالة في الحسد

نحن بحاجة إلى فهم جديد لقضية العين والحسد..لأن التصور المعتاد لقوة العين على الأشياء أو المحسود هو تصور ميثولوجي خُرافي يُعطى سلطة لعيون الحاسدين وقلوبهم على الناس، بحيث يرى البعض أن للعين قُدرة على التحكم في مصائر الناس وأحوالهم.. وهو ما يُنافي المنطق القرآني الذي يفصح بأنه لا سُلطان لأحدٍ على أحد، فما بالنا بمن يرى بتأثير عضو من أعضاء الإنسان -وهو العين- على مُجمل حياة البشر...؟!

الحسد كما أراه –وكما هو مذكور في القرآن- هو مُجرد تمني زوال النعمة عن الآخرين، ولكنه يبقى حَسَداً لا قيمة له إلا إذا انتقل من مرحلة التمني إلى مرحلة التنفيذ، أي أن يشرع الإنسان في تحقيق رغباته ومطامعه بيده ، سوى ذلك فالحسد هو شعور سلبي ونار تأكل صدور الحاسدين ولكنها في الحقيقة لا سُلطان لها على الغير بالمُطلق...

هناك آثار قرآنية تعرضت لهذه القصة وهي تقول بأن الحسد لا يكون شراً إلا حين وقوعه، فحين يقول الله عز وجل (ومن شر حاسدٍ إذا حسد) أفهم مباشرةً أن الحاسد لا سلطان له إلا إذا حَسَد..وإلا لقال الله عز وجل(ومن شر حسد الحاسد)..معنى هذا الكلام أن رغبة وتمنى زوال النعمة لدى الحاسد هو مجرد شعور بحاجة إلى تطبيق بدلالة(إذا)..أما الآثار الحديثية ففي صحيح مسلم أن العين من قدر الله، وهذه إهانة للذات العلية وانتقاص من شرط من شروط الإيمان، إذ لو سلمنا بصحة هذا القول المنسوب لرسول الله نكون قد أخضعنا القدر لسُلطة الإنسان..فيما هناك آثار أخرى ولكن لا يُعتد بها لتعقلها بموروثات اجتماعية وثقافية لأهل هذه العصور..

كان لي بحث قديم منذ عامين تحدثت فيه عن الحسد بمنظور اجتماعي وروحاني، وبفضل الله اجتهدت في تبيان الفكرة وتبسيطها على قدر الاستطاعة...تبنيت فيه المنظور القديم و"الخُرافي" حول تأثير العين بطريقة غير مرئية على الأشياء، وهو ذاته نفس المنظور الذي كان يرى به أغلب الناس الحسد...ومع ذلك فمن يقرأ هذا البحث سيلمس شك وقلق

الكاتب من هذا التصور الخُرافي، ولكنه لم يكن لديه الجديد أو لم يستقري واقعاً علميا أو أفكاراً قوية تُدحض هذه الخُرافة...البحث كان بعنوان..(نظرات في الحسد وعلاجه)..وها أنا أعلن اليوم عن مراجعتي لتلك الفكرة، مع الإبقاء على كافة التوجيهات الاجتماعية والروحانية والنصائح التي تخللها البحث.

أقول أن الاعتقاد بصحة مفهوم الحسد الشائع بين الناس يُصيب المنظومة الكونية بخللٍ كبير، لا يستطيع أحد فيه أن يضبط إيقاع الكون.. فكلما اجتهدت وصنعت منافع للناس جاء لينقض اجتهادك وعملك من كان في قلبه حسد، والحُجة موجودة أن هذا حسد ومذكور في القرآن..والحقيقة أن فهمنا للحسد –الوارد ذكره في القرآن- هو فهم مغلوط وناجم عن تصورات اجتماعية وثقافية مغلوطة حتى من قبل أن يأتي الإسلام برسالته..لماذا لا نسأل أنفسنا ونُطلق لأذهاننا العَنَان..نحن نكره إسرائيل ولديها نعمة الأمن والمال، فلماذا لا نحسدها كي تزول هذه النعمة؟..وإذا كنا نكره لاعباً لكُرة القدم كليونيل ميسّي أو كريستيانو رونالدو فلماذا لا نحسدهم كي يُصابوا أو يهبط آدائهم في الملاعب؟..وإذا كنا نكره فناناً أو سياسياً أو عالماً اقتصادياً أو ذرياً فلماذا لا نحسد هؤلاء كي تزول النعمة التي أنعم الله عليهم بها ونكون ممن أقر الله أعينهم بهذا النصر ؟!...

إن الاعتقاد بتأثير العين على الناس هو مجرد وهم كبير أنتجته لدينا أنظمة التخلف والتقليد الفكرية .. هذه الأنظمة التي أبعدتنا عن الفهم الصحيح للدين وعن رؤية القرآن العالمية للكون وللبشر..فإذا قيل أن مفهوم العين أو الحسد لا يشمل التحكم في مصائر الناس ولكنه محدود

الطاقة في أعين البعض بمشاعر سلبية قلنا لو سلمنا بأن الحسد هو طاقة سلبية ذات تأثير محدود فما الذي يمنع من عدم محدوديتها؟.....ولو سلمنا أيضاً بسلبية هذه الطاقة فما الذي يمنع من إيجابيتها؟..هذا يعني أن للحسد –حسب هذا المفهوم-سُلطة خير أيضاً كما هو سُلطة شرّ..بمعنى أنني قادر - وبسلطة هذه العين - أن أجعلك وزيراً أو ذا مالٍ عظيم..

مفهوم الطاقة في هذا الحال لا ينفك عن الإرادة ، فأنا حين أغضب - لاإرادياً -بإمكاني أن أهدأ لو أردت ذلك..يعني أن هذه الطاقة السلبية هي بالأصل ناجمة عن إرادة الحسد، وبالتالي تكون سلطة العين هي سُلطة حقيقة وبإمكانها تغيير مصائر الناس وأحوالهم.

في القرآن حين حَسَدَ إبليس سيدنا آدم وتمنى زوال نعمة الله من عليه ..لم يكن لإبليس سُلطة على أدم إلا حين قام بتتبعه وإغوائه، فانتقل الحسد هنا من باب التمني والرغبة إلى باب العمل، وهذا بالضبط هو المقصود من قوله تعالى..(ومن شر حاسدٍ إذا حسد)..ولو كانت للعين سُلطة تأثير -ولو بطاقة محدودة سلبية- لكان حسد إبليس لآدم كافياً لتحقيق رغبات إبليس ومطامعه..كذلك حين حسد ابن آدم أخيه على تقبل قُربان أحدهما دون الآخر..هل كان للحسد مفعول إلا حين انتقل هذا الحسد من باب التمنى إلى باب القتل؟!..هذا هو المقصود بأن الحسد لا يكون شراً بالآخر إلا إذا دخل مرحلة التنفيذ، سوى ذلك فهو طاقة مُعطلة تؤذي صاحبها وحسب..

فإذا قيل أن الحسد بمعنى تمنى زوال النعمة وليس العين بُغية التدليل على جواز الحسد بمجرد الشعور.. قلنا بأن القلب يحسد والعين ترى وترفض- هذا هو المدلول..والدلالة في أذى المحسود..أي أن ما بين التمني ورؤى العين تلازم...وهذا رد على من يحصر الحسد في الشعور به كي يُدلل على جواز أذى المحسود بمجرد شعور الحاسد.. الخلاف يبقى في العين وتأثيرها.. وأرى أن هذه العين هي مجرد عضو بشري يُترجم الشعور والإرادة إلى رؤية ضيق وغيظ ..وهي المرحلة الأخيرة قبل العمل..لذلك جاء القرآن يطلب من الإنسان التعوذ من شر الحاسد بعد انتهاء هذه المرحلة الأخيرة لكفاية الإنسان من شر أعمال الحاسدين.

لتبيان ذلك أكثر أنه وحين يبتلينا الله بشرور الحاسدين نُفكر حينها ،هل هذا الحسد كان عن تأثير وسلطة عين أم عن حقد وحسد وغل نتج عنه أعمال شريرة- ولو لم تُوجد عين؟

هناك فارق لأن هناك من سيفهمها على النحو التالي:

1-عند الذين يعتقدون بأن الحسد هو سلطة للعيون على الآخرين، وأن هناك تأثيراً غيبياً لها غير مرئي.. فالخياران لديه واحد، لأن العين والشر -لديه- سابقُ ولاحق..علة ومعلول ..مؤثر وأثر..في النهاية عقله لا يستوعب الفصل بين العين كمفهوم والشر كمفهوم آخر...

2-أما عند الذين يعتقدون بأن الحسد هو شعور بالضيق والغل والحقد وتمنى زوال النعمة..وفي ذات الوقت هو يؤمن بأن الحسد لا يضر سوى

صاحبه ولا تأثير له مُطلقاً على الآخرين فالخياران لديه ليسوا واحد..لأنه لا يرى العين تعمل كي تصنع شراً..ولو فعل فيكون قد أخرج العين من وظيفتها التي خلقها الله من أجلها إلى وظيفة أخرى تُكسبها وظائف الأعضاء الأخرى سواء بالتأثير المادي أو المعنوي أو الذهني.

في القرآن الكريم نرى الإجابة عن هذا السؤال بوضوح وهي في قوله تعالى ..(له معقباتُ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ،إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم ،وإذا أراد الله بقومٍ سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)..والآية تعني أن الإنسان قادر على التغيير من نفسه فإذا كان كذلك فليس للآخرين سُلطة على تغييره وبالتالي فليست لهم أدنى سلطة لإلحاق الأذى به ، وبالتالي يَبطُل مفهوم الحَسَد وسلطة العين الشائعة بين الناس ويؤيد ذلك قوله تعالى أيضاً ..(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير)..والمصائب هي في طبيعتها شرور، فكانت سلطة العين هنا مُنتفية لتعلق المصائب بأعمال الناس وكسبهم بأيديهم.

توجد لدينا فرضية التقصير الشخصي على مستوى الواجبات العامة والخاصة، فالإنسان المُقصّر في واجباته نحو دينه أو أخلاقه أو إنسانيته هو مُعرض في كل الأحوال للشرّ، وبالتالي يبقى عُرضة لاستجابة الله لأماني ورغبات الحاسد كما في قوله تعالى.. (ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمةٍ أنعمها على قومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم)..والتغيير المقصود هنا-كما هو في ظاهر الآية-يعني التغيير للأسوء..فالنعمة خير وزوالها شر..هذا يعني أن للحسد درجات، منها ما

يظل مكتوماً في نفس صاحبه، ومنها ما يظهر للناس على شكل أقوال أو أفعال، وهنا الشاهد ، أنه وبمجرد ظهور آثار الحسد وانتقالها من مرحلة الشعور إلى مرحلة العمل يكون الخطر المُحدق، لذلك كانت الاستعاذة من الحاسد في القرآن تأتي بمعنى الاستعاذة من عمله وليس من مجرد حسده.

ولكي لا يقول أحد أن هذا التفسير هو قولُ بِدعُ لم يَقُل به أحدُ من السابقين نقول أنه ليس جديداً، وأن هذه القضية مثارة منذ القِدم ففي تفسير القرطبي قال..(قلت : قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود ، فيتبع مساوئه ، ويطلب عثراته)..وكذلك الفخر الرازي في تفسيره قال...(إن أبا علي الجُبَّائي أنكر هذا المعنى إنكاراً بليغاً)..وفي كتاب "تخيلات العرب" للحسين بن أبي جعفر بن محمد الرافقي ..أنكر العين وعدّها من الخُرافات..ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الرؤية كانت منتشرة بين الناس، ولكن المنتشر حينها كان أن العين حق وأن الحاسد يؤذي بمجرد حسده، وكان الناس يستعيذون من شر الحاسد ومن شر عينه..ولكن كم من حقٍ مهجور وكم من باطلٍ مشهور.

أخيراً لو كانت للعين سُلطة على إحداث أي تغيير في أحوال البشر أو الأشياء لكان يستحيل على الأعمى أن يحسد، ونحن نرى بأعيننا أن العميان مثلهم كسائر المُبصرين لهم مشاعر الحب والكراهية..الحِقد والرحمة..الانتقام والعفو..البُخل والكرم..فإذا حَسَد المُبصرين لحسد العميان..ولو حصرنا الحسد هنا على قلوب العميان فلماذا ننفي ذلك على المُبصرين ؟!..هذا يعني أن الحسد عند هؤلاء هو أشمل من العين، وعلى

هذا فيصح لديهم الحسد دون رؤية المحسود..والسؤال الذي يتبادر للذهن مباشرةً، إذا كان ذلك حقاً فما هي المعلومات التي عن طريقها سيحسد الحاسد..فإذا قالوا أن العين ليس شرطاً وأن السَمَع كافٍ لبلوغ المُراد لقلنا بأن الأطرش سيُحال عليه الحَسَد...وهكذا

رسالة في التوسل

التوسل أرى أنه فكرة حقيقية وليست متوهمة وبالتالي فهي تحتفظ بمسوّغاتها الشرعية والعقلية لدينا، فقط هي بحاجة لفهم داخل منظومة العمل والإلقاء بعيداً عن الدجل والعُنف المقابل له أو عن الضعف ونزعات السيطرة المقابلة له..فالإنسان بطبيعته يتوق للحرية ويعتقد في حريته أنها مصدر أصيل لقوته الوحيدة، وبالتالي كان رفض الرأي الآخر هو طبيعة بداخلنا نتجت عن اعتقادنا بذواتنا كأولوية..وأننا إذا سلكنا سلوك الحوار والجدل فسيقودنا ذلك إلى الفهم، لذلك فعندما تتعقد أي مشكلة بين طرفين مهما بلغ مقدار تعقيدها فالحل السهل واليسير لها يبدأ من الحوار.

رحم الله أبي القاسم الشابي الذي قال بأن الحياة صراع فبدّلها البعض إلي صراع الحياة..وسواءً كانت هذه أو تلك فثبوت الصراع في الدنيا بدهي، بل تكاد أن لا تجد مجالاً أو منطقة أو مجموعة من البشر إلا وكان الصراع فيهم حاضراً –بطبقاته-كنتيجة حتمية لسنة التدافع...تظهر أنواع تلك الصراعات فتأخذ أشكالاً أقرب إلي صورة الشخص المُخيلة إليه ، فيرى نفسه طرفا أصيلاً يحمل الحق في مواجهة الباطل، وبغرور

الإنسان وتناظره وحِرصه علي الانتصار يبعد عن النجعة وتزداد الهَوّة..وبعيدا عن مؤلفات الصوفية والسلفية حول التوسل والتي لا تكاد تخلو من التبرير والأدلجة..أرى أن قضية التوسل بحاجة للتوضيح من مجال آخر أكثر خصوصية للإنسان في عقله وثقافته وعُمق استقراءه..وكأن المسألة لدينا ليست بحاجة إلي علم أكثر ما هي تحتاج إلي عقل وبالتالي إلى فهم..فالعِلم يرتبط بالمعلومة كمغذي أولي ، والمعلومة تعني التقريب وسيادة مفاهيم التواصل، أما لو تحالف العلم مع العقل حينها سيُفنّد المعلومة ويطرحها للتساؤل وهذه أولي مراتب العلم الحقيقية...السؤال ..وعدم التسليم للموروث دون محاججته وإخضاعه للشك.. هذا فيما دون الأمر فيه بالتسليم...

قد يقول قائل بأن قضية التوسل تمس أصول الدين وتجرح التوحيد ولا ينبغي التهاون فيها...وقائل آخر يقول بأن التوسل جائز وهو قول جمهور السلف والخلف ولكن يفعله المتوسلون بشرائط تحفظ لهم دينهم وحبهم لأولياء الله الصالحين ...إذن نحن أمام طرفين..الأول يفعل والثاني يُنكر..ولكن لم يسأل أحد منا من قبل ماذا لو لم يلتزم كل فريق بضوابط الفعل والإنكار؟..هذا ما أود الإِشارة إليه كمُدخل لفهم تلك القضية التي تسببت في شقاق بين المسلمين وتشيعهم لفرق متناحرة تقاتل بعضها بعضاً علي التافه والعظيم..

إن الطرف المُدافع عن التوسل يدافع عنه لاعتقاده بأنه لازم من لوازم حب الولي الصالح..ومنهم من يرى في التوسل وسيلة فطرية تدفعه رغباته الإيمانية بالاستزادة من سيرة المتوسل فيه..وكأنه يري القدوة

العملية في ذهنه حاضرة وبحاجة لإخراجها من حيّز الصورة إلي حيّز الفعل..أغلبهم يعلمون ضوابط الفِعل ولا ينساقون وراء أهوائهم التي أحيانا تخرج بهم عن المألوف فيرتكبون جُرماً عظيما..وفي الغالب يقع هذا الطرف أسيراً للعُزلة..فيعبد الله بحواسه قبيل عقله وينساق وراء عاطفته الجياشة -التي يتميز بها عن الآخرين..فتُسقطه عبادته في براثن العُزلة والجهل بالتركيبة المجتمعية والسياسية والثقافية المحيطة به..فيرى مصطلحات العصر-المتداولة-شذوذا عن العقائد ويُخضع الأحدث لمعتقده ، ولن يقع في ذلك المأزق كل متفتح من ذلك الطرف يعلم معني الحب والإيثار أشمل مما درسه وتلقاه علي أيدي مشايخه فيسع صدره وعِلمه الآخرين.

أما الطرف المحارب للتوسل فحاله أشبه بحال المدافع وقد يفوقه سوءا..وكأن قضية التوسل ليست بحاجة إلي هجوم أو دفاع أكثر من حاجتها للعقل الذي يضع لها معايير خارج الفهم الموروث والمُقيّد بقيود الزمان والمكان..فحال الهجوم لن يخلو من الأخطاء ولو لم يراجع ذلك الطرف أخطائه فستُهدم شخصيته لأنه لا حقيقة كاملة دون الخطأ والاعتبار منه..وحال ذلك الطرف علي خطر عظيم..فالهجوم الدائم قد يقلب الإنسان إلي وحش كما قال "نيتشة" بضرورة أخذ الحذر عند مقاتلة الوحوش لئلا يُصبح المقاتل وحشا...هذا هو الإنسان ضعيف المَلَكة، تدفعه حواسه للحُكم والفِعل دون وضع حواجز تحول بينه وبين الغلو.. وبالامكان أن نري تلك الوحوش الافتراضية في مجتمعاتنا بوضوح...

ستري أن أكثر المحاربين للتوسل قلوبهم غُلف ولا تتقدس لديهم القدوة إلا بخضوعها لهوي المحارب ورأيه، فهم يرون التوسل فِعلاً جارحا للعقيدة وهؤلاء أرجح أنهم مُقصّرون في واجبات التربية الإيمانية أوالتثقيفية التي تجعل مقاصد الإسلام وروح شريعته نبراسا لهم أمام أعينهم ،وأكثر هؤلاء صناع للفِتن ..فتَحكّمِهِم في أنفسهم بسيط مع وجود حافزهم أقوي..ولو أعملوا عقولهم لوقفوا علي أن التوسل هو فكرة قبل أن يكون فِعلاً جارحا للعقيدة..ولن يُجابه الفكرة سوي الفكرة المضادة الخالية من الإقصاء أو التهميش الذي قد يضع الهدف المقصي في خانة الضعف مما سيجلب لها الأنصار..أما الفكرة المضادة الصحيحة هي قيام الفرد علي ذاته بالتثقيف والاحتكاك والحضّ عليه، وأن يهَب نفسه للحُبّ والإيثار..وأن لا يَعجل بزوال المُنكر -وإلا لم يكن هذا الفعل منكراً..وأن يقوم علي إِشغال فراغه وفراغ الناس ، وأن يعمل كحلقة مجتمعية لقتل الجهل بالتحريض علي معرفة أوجه الخِلاف وتدارسها ببيّنة عقلانية وروحية شرعية..

بينما ستري أكثر المدافعين عن التوسل يُفرغونه من مضمونه الداعي إلي حبّ الولي والاقتداء بسيرته وتقليده في عبادته..فينقلون التوسل من مجال العبادة والتطهير إلي مجال التعصب للفكرة..فالمحارب يترصد لهم ولو لم يدافعوا ستُمحى هويتهم وهوية الأولياء...ولو أعملوا عقولهم سيجدون أن لا حاكم عليهم سوى أنفسهم..سواءً بقي ها القبر أم ذهب ..أو ضعفت فكرة التوسل أو قويت.. فالتوسل في مكنونهم دافع للعبادة أكثر منه شرطاً أو وسيلة..فهم الذين يصنعون ويحملون التوسل..وبالامكان زرعه كفكرة في قلوب الأجيال دون التعرض للدافع أصلاً ، هذا الدافع الذي ومن كثرة

الدفاع عنه وإبرازه كفكرة مقدسة -أو جائزة مُدافع عنها- ستوضع في قفص الاتهام وسيُشار إليها كمُنكر لدى العامّة..

من تلك الظواهر وقفت علي رأياً وسطا أسوقه كالتالي:

1-أن قوله تعالي"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان"..هو قولُ كافٍ لاختصار طريق الدعاء وعدم التكلف.

2-ضرورة الحضّ علي حُبّ الأولياء وتدارس سيَرهم لزرع القدوة أمام الأبناء..خاصة أننا شعوب بحاجة ماسّة إلي إظهار قدى تتسم باللين والزُهد والحبّ والمقامات الربّانية والعِرفان.

3-يتميز الصوفيون بإنكار ذواتهم وتنمية نزعاتهم الاجتماعية..فالتصوف –كفكرة- تغرس لديهم الإيثار والزُهد..وهاتين القيمتين كافيتان لبناء مجتمع ناجح و مترابط.

4-يتميز السلفيون بغيرتهم علي العقيدة..ولكن من الغيرة ما قتل والتكلف يودي إلي المهالك.

5- أن علي الطرف المحارب للتوسل عليه بناء ذاته وإنسانيته بعيدا عن فكرة الوصاية علي الآخر التي تستحوذ علي عقله، إضافة إلي إظهارها للاقتداء بها ظهوراً لا رياء فيه ومُفعم بالإخلاص والربانية..

6-ضرورة الحِفاظ علي الآثار الإسلامية ومن بينها قبور الأولياء ومقاماتهم..فأي أمة تفرّط في آثارها ينقطع الحبل بينها وبين ماضيها..

7-لا أري في قضية التوسل حاجة للزهد عن الخوض فيها..وكأنها قضية تراث إسلامي مختلف عليها بين الفقهاء وحسب..وإلا لن نُراوح أمكنتنا وسنظل في دائرة الخلاف تتسع وتضيق حسب مستوي العِلم وجُهد العلماء..من الضروري بل من الواجب النظر إليها برؤية أكثر عصرية مما قُرئ عنها في الكُتب...

لو نظرنا إلى أي قضية شرعية ومجتمعية -ومن بينها التوسل- سنرى أن المقصود منها مرضاة الله حسبما يظن الفاعل أنه مأمور شرعاً..فإذا كان الجميع يسعى –بطريقته- لتحصيل مرضاة الله فحين اختلافهم حول أشيائهم يكون خلافهم تابع من تصورهم لها..وبالتالي لا صورة واحدة يجتمع عليها الفُرقاء وإلا سينتفي تعدد المصاديق،حينها وجب بحثهم عن أصول الخِلاف –لتوحيد الصورة- وأن يعملوا لحلّها طمعاً في نيل الحقيقة..فالعائق الذي يمنع البحث عن أصول الخِلاف هو نفسه من اعتقد في رأيه وفِعلهِ الحق، والإنسان بفِطرته باحثُ عن الحقيقة ومع ذلك ليس هو الحقيقة..فلا من حارب التوسل مُحقاً ولا من دافع عنه كان ناجيا..

أحاول أن أستجمع تلك الصورة للرجل الذي يقف متمسحا بالمشهد داعياً بجاه الولي وقد يستغيث به، فالصورة المُنطبعة للولي في ذهنه هي لرجل صالح له مقام عظيم عند الله، فكان تصرفه وكأنه يعتقد بوسيلة بينه وبين الله.. أن اشفع لي ياسيدي عند ربي ، إنني مأزوم ومهموم إنني مخطئ

وعاصي ،هذا الرجل مِسكين ضل طريق الله من أوسع أبوابه المُسجلة في الأمر الشرعي الصريح.."أن ادعوني فإني قريب".. يبحث عن السعادة ولكن قلة علمه بطريق السعادة حالت بينه وبين تحصيلها بطريق آخر غير هذا الطريق..فهو يعتقد أن السعيد غير مُحتاج وأن الأثرياء هم السعداء، وبحسب منطقه لن نري ثرياً يفعل ما يفعله المتوسلون بتلك المشاهد..

صورة أخري لرجل يقف بذات المشهد ويفعل ما فعله الأول..ولكنه يدعو دعاءً عِرفانياً كي يري الله بقلبه بعدما عجز عن رؤيته بحواسه، فهو يهيم شوقا في حب الله متأسياً بالرجل الصالح -صاحب المشهد، يدعو من خير الدنيا والآخرة فهو علي عِلمٍ بما يقول وصورة الرجل الصالح لا تفارق خياله..يري أن ذلك كان مسلكاً للسلف وللخلف فلا يشك بما يفعل..هذا رجل صالح ولو اختصر دعائه دون الرجل الصالح لما خسر شيئا ولم يكن لينتقص من صاحب المشهد ولو مثقال ذرّة..فقد تكلّف بدعائه بدليل أنه سعى لمعرفة الله بقلبه ثم تحول الوسيلة بينه وبين ربه فكيف يتصل الحبل العِرفاني وبينهما وسيط.

وعلي النقيض من رواد ذلك المشهد أري رجلين أحدهم غارَ علي دين الله عِلماً بعدما عَلم أن هذا السلوك كان فِعل الأولين من الكَفرة والمشركين ولكن عدم تمكنهم من أنفسهم وضبطهم لعلومهم انداحت لهم -وورثتهم -المسألة باعتقاد النفع والضرر فيهم من دون الله، فلا يجلس في المكان إلا وأنكر علي من فَعل..فكان تصرفه شهوة ساعة وكأنها غايته في الدنيا –أن يمنع- ومن أجل ذلك وُجد،فيُهمل نفسه بجهله للولاية

وأصحابها الأتقياء الأنقياء.. الذين وصفهم ربهم بأنهم لاتتجافى جنوبهم عن المضاجع ويدعون ربهم خوفا وطمعا، ولو فعل لعَرف معني المنع الذي قام، أن لا منع إلا بعِرفان وأن شهوته قد تحول بينه وبين إصلاح ما ظن أنه فاسد..القضية لديه بحاجة إلي ضبط نفسي وعقلي يقيمان الدين في النفس قبل البحث عنه في ذوات وأفعال الآخرين، وتلك هي الحكمة أن أصلح نفسك قبل أن تصلح الآخرين وإلا شاب فِعلك فساداً من حيث أردت الإصلاح، وتُصبح وحشاً من كثرة مقاتلتك للوحوش..وما عِبته عليهم بعدم الضبط والتمكن وقعت فيه يامسكين، فرأوك جافيا مجافيا..غليظا فجا فانعقدت لديهم الآمال في غيرك وصِرت شر من يُمثل قضية وأتاها من حيث لا يعلم..

بينما الآخر كان لديه المنع.."نزعويا"..فهو جاهل بسلوك السلف والخلف..ولديه رأي واحد أن هذا شِرك عظيم وأصحابه ليسوا بشراً مخطئين ولكنهم فاعلين متعمدين..رافضاً للحوار ومُقلدُ عظيمُ لسلفه الأولين الذي ظن بجهله أنهم سلف الأمة المختارين..فقادته نزعته إلي التقوّل علي الولي الصالح بعلم أو بدون فوقع في الإثم العظيم أن انتقص من أولياء الله وقام علي هدم القدوة في أذهان من رجاها وسعى إليها..هؤلاء في الأَصل ليسوا مخلصين فعبادتهم لله -يسعون إليها- رهبةً وخوفاً دون الطمع والرغبة وإلا انعكس ذلك علي سلوكهم وصاروا كمثل الأول الذي قام بالمنع علماً وفهما للقضية وللموضوع ، أن نواجههم في مهدهم قبل أن نراهم مشركين..

الفارق بين الأول والثاني هو نفسه الفارق بين البناء والهدم..فالثاني أقرب إلي الهدم منه إلي البناء، ولكن الأول ليس ببعيد عن الهدم فقد يهدم نفسه دون أن يدري، والاثنان علي قاعدة معرفية ليست متينة..فعبادتهم لربهم تجاوزت المعرفة بالله بأن عبدوا ربهم -بظنهم- خوفاً وطمعاً دون سلوك الحُبّ.. أن يُحبّوا الله فهو الواحد الذي يستحق العبادة والأهلية، فيُحبونه ومن فرط حبهم ينسون الخوف والطمع ولو أنهم في قرار أنفسهم راجين خائفين،فيتوجهون بقلوبهم في رِحابه ويضعون عن أنفسهم الوهم وهوى النفس ولا يقعون أسرى لتلبيس الشيطان عليهم.. فيعرفون معني العبادة ، وأن تنعكس عبادتهم علي سلوكهم فتتهذب مَلَكاتهم، وتَخفُق قُلوبِهم لمن يُحب الله ولو بطريقٍ ليس كطريقهم..

على جانبٍ آخر فقضية التوسل ليست نصية أكثر منها روحية وعقلية..لها جانب نصي فيما يُعرف بالدليل، وهو لدي الفقهاء مختلف فيه بين ما يصلح لأن يكون دليلاً وما لا يصلح للاستدلال..القضية طويلة ومُعقدة وقد قرأت قولا للشيخ حسن البنا -رحمه الله- يُجيز فيه التوسل بالأفعال والمنازل ولزمه مع حب العبد للصالحين..ومن الغريب أن نري فقيهاً كالعِزّ بن عبدالسلام وهو صوفي النزعة والهوى والطريقة ولكنه كان من ضمن المانعين..في المقابل تري فقيهاً آخر كالشوكاني وهو سلفي النزعة والهوى ولكنه كان من المُجيزين..إذن نحن أمام قضية لا ترتبط بعِلم ولا بنص أكثر من ارتباطها بالعقل الكاشف لذلك النص وبالروح التي تستشعر هذا السلوك..

أعظم طريقة تكشف سلوك الإنسان وتضعه في مواجهة بين عقله ومبادئه هي إخضاع الأشياء للسؤال...هكذا..لماذا هذا ولماذا تلك وماذا سيحدث لو..من هنا أقف علي أن الأيدلوجية -الموجِّهة لكلا الطرفين المختلفين- مرتبطة بالكسل العقلي أكثر من ارتباطها بنص -أياً كان درجة صِحته وقول الفقهاء فيه..أيضا ترتبط بالنزعة التقليدية أكثر من نزعة التجديد..فكِلا الطرفين مُقلدين ومن الصعب إقناعهم بخِلاف ما نشأ عليه كل فريق..لذلك أري الحاجة ماسة للخروج من بوتقة التقليد واعتبار أنّ ما ألِفَهُ الأولون خاضع للسؤال لاعتباره صادراً من قول غير معصوم..هكذا ستُحل إشكالية التوسل بكل سهولة..وبغض النظر عن الدخول في حوار الهدف منه البحث عن ما يوافق الهوى والنزعة أكثر من تقصي الحقيقة...وهذا يتسق مع كون علاقة المسلم بالمخالف هو الاستيعاب لا تعزيز الخِلاف وكأنها حرب بين خير وشر، فلا من حارب التوسل كان مقلداً للنبي ولا من دافع عنه كان متأسياً به..كمثل تلك الخِرقة التي تقطعت التي إذا ما أقدمنا بتجميعها وخياطتها وتأهيلها للملبس كانت شيئاً جميلا....فالخِرقة التي تقطعت هي الدين ..وقِطعها المتناثرة هي فهمنا الجزئي له...فإذا ما سلكنا العمل علي تجميع هذه الخِرقة بانت لنا واتضحت صورة الدين بأسمى قِيَمه ورِفعته وكماله.. فتلك النزعة الوحدوية ضرورية لفهم الدين فهماً كلياً يُقرب لنا فهم سلفنا الصالح له..

حقيقة فإن الكثيرين ممن يعتدون بالتوسل- كسلوك- يقرأون قولة تعالي"إني قريب"..بحقيقة بُعد العبد عن ربه وبذلك فلا تعارض بين الآية وحقيقة التوسل الذي يُفترض فيه بأن تلك العلاقة لا تقوى إلا بوسيط..وفي هذا نُظُر..فحقيقة العبادة لله في الأمر الصريح.."أعبدوا

الله"..ولم يُشرك رب العزة هذا الأمر بمخلوق حتى يبدو أنه كوسيط..فهو أمر مباشر وقد تكرر في عديد الآيات التي نفت الوسيط بين العبد وربّه..لماذا أقول هذا الكلام....لأن المتوسل في الغالب ينطلق من قاعدة العصيان أو البُعد ليسلك مسلك التوسل كي يكون أكثر قُربا لخالقه..وهذا الفِعل وإن بدا نزيها إلا أنه قد يجلب بعضا من التواكل والكسل فيظن العبد أن العلاقة بينه وبين ربّه متعلقة بفلان أو عِلاّن، وكأن باب الله لن يُفتح إلا في أوقاتٍ معينة ،وبهذا جعل العبد عبادته لربه من جانب دون جانب.. حقيقة لست من هواة التعقيد ولا أحسب نفسي إلا طارحاً لأفكاري بسلاسة ويُسر، وتلك العبادة من ذلك الجانب قد تتعارض حقيقة مع هدى الله لعباده التي ربطها الله في أكثر مواضع القرآن بالتقوى وبالتالي فلا حاجة للعبد إلى وسيط..

يقول الله تعالي.."ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين"..فالقرآن هداية ولكن لمن؟..هو هداية للمتقين..والتقوى محلها القلب، وللمتقين صفات في القرآن خَصَّها الله لعباده الصالحين كالإيمان بالغيب وهو أشمل ومنه تأتي سائر العبادات..، فيكفي العبد تدارس ملكاته وتهذيبها عن المعاصي وإقامته لدين الله –كما فهمه-في نفسه كي يكون ممن هدى الله ، ولا تقوى حقيقة إلا بإرادة السلوك..ومنه يأتي الربط بين هدى الله وإرادة العبد....فمن يجعل فكرة الوسيط واجبة كمن قطع العلاقة بين الهُدى والتقى واشترط علي نفسه- بتكلف-طرفا ثالثا قد يحرمه من التدبر الذي لا يحتاج إلى متخصصين..تكفيه الفطرة.

إن الإنسان كي يسعى لإثبات ذاته وبنائها بناءً علمياً عملياً لابد له من شروط أهمها التخلي عن أي مطلب دنيوي كتحصيل المال مثلاً، فطلب المال وطلب العلم لإثبات الذات لا يجتمعان، كالذي حرص على الدعوة بوظيفة تقوم أولاً وأخيراً على تحصيل المال أما الدعوة فهي عمل لديه مُعتاد وأحيانا بحُجة فراغ الأتباع وانتظارهم للداعي، في هذه الحالة أصبحت مقاومة النفس الأمّارة بالسوء في غاية الصعوبة، هذا لو أراد المواجهة أو خُلق لديه الدافع أصلاً، فالنفس تميل دوماً لحب الظهور وسد الحاجة، وغايتها أمام الناس تختلف عن غايتها الحقيقية باختلاف التبرير وشرح المقاصد العامة للفعل، لذلك فإن العالم الداعي الذي يسعى إلى تحصيل المال قلما ينتفع من علمه، وفي الغالب تنطبع لديه دعوة روتينية لا بحث فيها ولا نَظَر، فإبداعه مُقيد بقيد الرغبة في العلم.

هذه إشارة إلى أن اللاجئ لفِعل التوسل أحياناً ما يقع أسيراً لدعواتٍ تقليديةٍ جامدة لا بحث فيها ولا نَظر، فما عُرِف عن السلف كافٍ للتعيين دون النظر، وهذا يقتل الرغبة الإصلاحية لدى المتوسل ويستبدلها بأفكار جامدة كثيراً ما يتسبب تهويل الإنسان لها إلى جرائم عقدية ليست من الإسلام، هنا قد يكون للعِرفان دور ناهض، يجب التركيز فيه على احترام العلماء وتوقير العارفين والتأسي بما عُرِف عنهم،والعِرفان -ذو الدعوة العملية- هو الأكثر تأثيراً في صَلاح بني البشر عامة، وهو عين الحكمة ومسلك كافة فقهاء الدنيا وفلاسفتهم، فالطفل منذ الصِغر وبتقليده للكِبار لا يعرف إلا الدعوة العملية، وبصلاح الكبير يَصلُح الصغير، وقد تأتي مرحلة عُمرية للتلميذ يفترق فيها عن أفكار وأعمال المُعلّم هي النقطة التي يأتي منها الخلاف.

سواءً بقي البشر أو فنوا من هذا العالم لن يضر الله شيئاً،وإثبات الإنسان لذاته يأتي لتقويم سلوكه وعدالة أفكاره لنفسه كي ينتفع بها في هذا العالم، وأن يصنع لديه الإرادة لفِعل الخير، كل هذا يفعله الإنسان تبرّماً من النقص الذي لا يتسق مع فطرة الإنسان..فلا يوجد إنسان على وجه الأرض يرضى بالنقص،قد يرضى حينها بالعجز لضعف قدراته، أما أن تُتاح له الفرصة لسد النقص –بعد رصده-فلا أعتقد أن هناك إنساناً سيُفرّط في هذه الفرصة، وبناء الإنسان لنفسه سيخلقه عزيزاً عند الناس، أو كما قيل بأن تبني نفسك وتبخل عن ما في أيدي الناس عامة فتُصبِحَ عزيزاَ...

لماذا أقول هذا الكلام؟..لأن فاعل التوسل عادةً ما يعتقد في ذاته النقص ولا يتبرم منه ويرضاه، يفعل ذلك بحُجة أن هؤلاء أسياده ومهما فعل فلن يصل لمنازلهم عند الله ، هذه فكرة فاسدة بالطبع وفسادها في جلبها للتواكل وللكسل، وأظن أن أكثر هؤلاء كُسالى لا يخدمون مجتمعاتهم أكثر من خدمتهم لأنفسهم، وهم معزولون داخل دائرة ضيقة لا تكاد تتسع إلا لمن يوافقهم وأفعالهم، ليس الكل إنما لكل قاعدةٍ شواذ..إنما هذا التيار في الغالب لا يستمع للنصائح -مقلداً، والسبب كما قلنا في السابق قد يجوز لفساد فكرة المواجهة من أناسٍ يعملون على تحطيم هذه القدى لديهم، أو أنهم أنفسهم مِثالاً للفساد أكثر من الإصلاح، ومن يفهم هذا التيار جيداً يعرف كيف يتعامل معه.

أما الآن فسننتقل إلى تصوير سيكولوجي مادي لنزعات الهدم التي يتبعها البعض لمحاربة التوسل..وسنضع لها تصويراً من زوايا عِدّة لقتل هذه الروح الغريزية.. واستكمالا للفكرة الإصلاحية التهذيبية سنعرج على قضية الهدم مُمثلة في قضية هدم الأضرحة، ولكن كالعادة سننظر إليها بإيجاز.. بعيداً عن حُكمها الشرعي الذي يسوغ فيها الخلاف بين علماء المسلمين ، فالخوض في غُمار هذا الحُكم -من الناحيتين الفقهية والعقدية- سيودي بنا إلى التكلف والتعسير..أما الإسلام فهو سهل وبسيط وتلخص فكرته الإصلاحية في البناء وليس في الهدم..تلخص أيضاً في إيجاد البدائل قبل التفكير في مآلات المشاهد..وكأننا ننظر للمسألة بطريقة تصور مختلفة تنتقل رحابها من إنسان إلى إنسان آخر يرى في تلك المشاهد ظُلمةً ونورا..جهلاً وعلما..تقوىً وضلال..جنةً ونار.

لذا كانت الحاجة لنا للنظر للمسألة من زوايا أخرى أكثر رحابة وواقعية..وسنبدأها بالزاوية الاجتماعية ثم نعقبها بالعروج على الزوايا الأخرى على التوالي..فتعيين الحالة الاجتماعية لقضية هدم الأضرحة لابد وأن تكون استثنائية كي تخضع لجميع معايير الحالة الاجتماعية للظرف الاستثنائي، وبما أن هذا الظرف سيُنتج حِراكاً قد يؤدي إلى صدام بين فئتين فجاز لنا القول بأن هذا الظرف الاستثنائي قابل للدحض -كفكرة -وحال مخالف للواقع الافتراضي- الغير صدامي..من وجه آخر فإنه ليس كل صدام سيؤدي إلى تنوير كما يزعم بعض الديالكتيكيين...فالصدام في بعض الحالات يُورث ضغائن وأحقاد تتوارثها الأجيال..هذه الموروثات لا تُزال بغير التوعية ونشر العلم..لذا كان من الأصلح في هذه الحالة أن تُستبدل الفكرة إلى حالة توعوية تؤدي إلى

التنوير الحقيقي الخالي من نزعات الصدام- ذات الخلفيات الدينية..فالتنوير هنا له أصل روحي يُميّز بين علاقة الله والإنسان وبين علاقة الإنسان بنفسه، فالعلاقة الأولى قِيَمية أخلاقية لوجود غاية عظمى يسعى لها الإنسان لتحصيل الأجر..والعلاقة الثانية نفعية بحتة..مادية لو خلَت من أي فكرة إلهية فهي خالية من الأخلاق بالتبعية.

لذا كان كل من يجور على العلاقة الأولى لصالح الثانية فهو مُفسد لا محالة، ويتساوى في ذلك كل من اتبع شخصا دون غيره في ذات المسألة وبين من جعل نفس الشخص إلهاً يُعبد..فالتنوع واجب وقصد العلم من تتبع الخِلاف وليس الجزم بعدميته، ولكن ليس معنى وجود الضرر أو المفسدة أن يكون عدم منفعة..هنا كانت الحالة أشبه بالحالة الافتراضية الأولى-الغير صدامية- التي خالفها الظرف الاستثنائي القابل للدحض..خُلاصته في فساد التحرك الأول الذي صنع الظرف الاستثنائي المعروف لدينا بهدم الأضرحة..وهذا إثبات واضح من ناحية عقلانية واجتماعية موجزة..بأن القائم على الفكرة وتنفيذها هو مُفسد في الأرض ومخالف لشريعة الله الإصلاحية بين بني البشر.

أما من الناحية الثقافية فالمطلوب من المرء أن يكون عارفاً مُطلعاً ولو على معلومات وأفكار لا تُرضيه..وطُرق تحصيل المعلومات لا تخلو من إنكار للذات- عملياً..فالقارئ العارف لابد وأن يتسلح بالتواضع وإلا فسينظر لأي فكرة جديدة بموضع شك أو رفض أو خوف..يقول الله عز وجل.."ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا"..وكما أوضحنا العلاقة بين الهُدى والتُقى- في معرض العلاقة بين العبد وربه..يبدو لنا

تلازماً من وجهٍ آخر بين .."التُقى والقُدرة".. وذلك على التفريق بين الحق والباطل، وكما أثبتنا في الفكرة الاجتماعية أن القائم على هدم الأضرحة حكمُهُ حُكم المعتدي فيتبين لنا انحراف وِجدانه وخطأ تقديره بدلالة تَلبّس المسألة عليه وعدم قدرته على التفريق ..وبالتالي وقوعهِ في الآثام وإلا فسيقف لثبوت الشك.

فالفكرة الثقافية المتعلقة بالبناء نابعة من الحالة الثقافية للمجتمع الحاضن لهذا الفعل، والوقوف على ماهية المجتمع تصعب في هذا الزمان، ذلك لأن الحدود بين الدول والشعوب أصبحت كالسراب وبالتالي سقطت فكرة.."أهل مكة أدرى بشعابها".. وكما أن الثقافة في أصلها معارف وعلوم فالإنسان المثقف لن يكون مثقفاً إلا باطلاعه على كل خِلاف دار حول المسائل ومن ضمنها مسألة هدم الأضرحة..فلا يتعين على الفاعل القيام بما يريد إلا بتجاوز الخلافات وخاصة الفكرية منها، وإلا لن يكون مثقفا...إذن فالتفريق بين الحق والباطل مشروط بالمعرفة- شرط الثقافة- والثقافة كما أنها علوم ومعارف وبما أن العلوم والمعارف لا ينضب معينها إذن فالثقافة أصلها الإحاطة بجميع أوجه الخِلاف وتجاوز كافة الشُبهات، وأنه لا حق إلا بإجماع لا لبس فيه ويكون مُعتبر وبدليل صحيح وصريح لا يقبل التأويل..ولو ساغ فيه الخِلاف وكان التأويل فيه على أوجه ، حينها خرجت المسألة من سياق اليقينيات إلى سياق الظنون وبالتالى أصبحت شُبهة ومن اتقى الشُبهات فقد استبرأ لدينهِ وعِرضِه.

أما الزاوية الأخلاقية فهي عماد المسألة، فالأخلاق بطبيعتها ترفض الهدم وعندما يجرؤ الإنسان على فِعلٍ فهو إما عالم به وبعواقبه وحينها

سيتحرز قدر إستطاعته، أو يجهل الفعل وعواقبه وحينها سيُقدم على التبرير له بقصد قطع الطُرق لإدانته..فهو في هذه الحالة يرى في خصمه ذلك الكيان العاصي الشرير الذي يجب نحره فكريا حتى يطمس لديه أصل معاصيه وشروره ، يفعل ذلك الإنسان ما فعل في تصرفٍ شائع بين الناس تحت مسمى "الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر"...لكن فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر لابد لها من ممارسات مفيدة ،ولو أدت هذه الفكرة إلى ضرر فلا فائدة منها وينبغي إعادة فهمها من جديد، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المُعضلة عند البعض بقوله تعالى.."وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"..ولا بر ولا تقوى في وجود الضرر، ولا إثم وعدوان مع منفعة..هكذا يُفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر بسهولة ويُسر،أن التعاون على البر والتقوى سمة الجماعات الصالحة وأن والتفكك والعُنف الناتج عن الإثم والعدوان هو سمة الجماعات الضالة.

حقيقةً فالمخالف في الإسلام له قُدسية يلمسها العارفون، تتضمن هذه القدسية وجوب العدل معه وإنصافه مصداقاً لقوله تعالى في مواضع عِدّة.. "اعدلوا هو أقرب للتقوى".."وأمرت لأعدل بينكم".."وأقسطوا إن الله يحب المقسطين".."قل أمر ربي بالقسط".."وإذا قلتم فاعدلوا"..فالمخالف في الإسلام مُحصّناً تحصيناً مانعاً لأي اعتداءٍ على كرامته وخصوصياته وأملاكه فضلا عن اعتقاده وحرياته....أيضا فالإنسان المخالف -أيا كان منهجه أو اعتقاده -لا ينبغي التفريط فيه بحال، فهو كالثروة القومية التي لا ينضب معينها عند العُقلاء، بمعنى أن وجود المُخالف في حد ذاته يخلق دافعاً للإنجاز والمنافسة على المستوي العملي ودافعاً للتطوير

والتجديد على المستوى النظري والفكري، ومن يظن في مخالفه أنه شر من الشرور الكثيرة فقد قدم أولى استمارات نهايته ونهاية مشروعه في هذا العالم...إذن فالزاوية الأخلاقية تبدأ من قبول الآخر قبولاً وجوديا - على أقل تقدير، وأن العمل على قهر هذا المخالف هو إيذانٌ بنهاية أخلاقية مأساوية على جميع المستويات الفردية منها والجماعية-عدا المعتدي.. وقديما قال شوقي.." إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا"...

أما لمن يلجأ إلى تبرير أعماله فالإنسان ليس بحاجة إلى تبرير ما يفعله إلا لو كان مُحيطا قديرا بالمسألة من جميع جوانبها ، وأن يكون متسلحاً بوِشاح الحق والثبات على الرأي ما دام لا ينقص من حقوق الآخرين، فالتبرير هو سقوط أخلاقي مرير يقع في أسره عادةً طُلّاب الهوى وسائر الضعفاء أمام نزواتهم وشهواتهم..وفي الغالب ما يقع التبرير في أمرين اثنين هما.." السياسة والعلم".. وبالذات العلم الشرعي، ذلك أن النفس بحبها للظهور ولرفضها للهزيمة تميل إلى إظهار دوافع هي ليست الدوافع الحقيقية لأفعالها، ومع التكرار ينكشف أمر المُبرّر، ومع توالي الهزائم والنكبات ينكشف أكثر، أن أسبابه التي ساقها قديما ليست هي الحقيقية وأنه كان يكذب...

أيضا ما يسوق إلى التبرير ذلك من يقوم على الهدم بتفكير مُجرد يُطلع الآخر على تفاصيل المسألة مُتجنبا مضمونها الإنساني وفكرتها الرئيسة، كمثال من يُقدم على هدم الضريح فيُشرع على الفور في إظهار تفاصيل عمله وأن ما فعله لتجنب الشرك بالله ولمحاربة الجهل والخُرافات وما

إلى ذلك من أسباب قلنا أنها تبدو مقنعة للناس، ولكن دافعه الأصلي - وهو ضيقه من الآخر - قام بكتمانه، وأنه وفور انتهائه من التخلص من هذا الأمر سينتقل إلى ما بعده في سلسلة هدم لن تتوقف، فبتفكيره المُجرّد وتبريره لم يقف على لُبّ المسألة، وبجهله وكِبرِهِ خاض في التفاصيل ، فالجانب الإنساني لديه من القضية صعب الخوض فيه لأنه سيكشفه كإنسان عدواني ينزع إلى الفساد أكثر من الإصلاح.

وقد يكون الفاعل هنا لديه مشاكل اجتماعية أو روحية ،وبدلا من مواجهتها بما يناسبها فيشرع على الفور في تحويل مشاعره الغاضبة من هذه المشاكل إلى مشكلة أخرى عبر ما يُعرف في علم النفس بالإزاحة، ومعناها أن يُزيح الفرد عنه أي مشكلة بافتعال مشكلة أخرى، وبالتالي يخرج من حيز مشكلته القديمة إلى فضاء أكثر قبولا لديه ولأهوائه التي تملكته في تلك اللحظات، وهو وإن كان شخصاً عنيفاً في ذاته فسيلجأ في الغالب إلى هذا السلوك، أما لو كان ممن لديهم خيالاً خِصباً أو مشاعر فِضفاضة أو سلوكاً مُهذّباً فمن الصعب عليه أن يسير في هذا الطريق دون أن يجد لديه الوازع لكسر أهوائه العدوانية التي اكتسبها في أوقات ضعفٍ فكري وخللٍ تربويّ.

ولو انتقلنا إلى الزاوية السياسية فسنرى أن أكثر الأزمات التي يُقابلها السياسيون هي اهتزاز صورهم أمام الشعوب، وعليه كان من أبجديات العمل السياسي أن يتعلم الدارسون كيف يتحكّمون بعواطفهم بعيداً عن الانفعال أو الخروج عن المعتاد، هناك بالتأكيد صورة تنطبع في أذهان الناس يملؤها الهيبة والوقار عن العاملين في السلك الدبلوماسي عامة،

هذه الصورة تظل موافقة للأسماء المُرادة حتى أقرب الأجلين سواءً لترك الوظيفة أو للوفاة، حتى أنها تظل بعد الوفاة لا تفارق هذه الصورة أذهان الناس، وكثيرا ما أصبحت هذه الصور محلّ أعمال المبدعين في إخراج أعمال كوميدية لتصوير هذه الأسماء بخلاف ما اعتاد عليه الناس، النتيجة هي صورة جديدة كاسرة للعادة تجلب البهجة والضحك في القلوب.

كذلك لابد للسياسي أن يتجنب كل ما يُثير كراهية الناس واحتقارهم، فخطابه التوحيدي هو أسلم طريق للخروج من مُعضلة السياسي المُهدد بفشل مشروعه أو إقصاء جهته–أياً كانت-لذلك كان العمل السياسي التوافقي هو أنجح صنوف العمل السياسي تأثيراً وانتشارا، قد يحدث تقصيراً فيما يخص عدم مواجهة الإشاعات ونبض الشارع كما ينبغي..لذلك كان السياسي الأقرب إلى الشارع ونبض الناس هو الأعلم بكافة خيوط اللعبة السياسية وكيفية تحصيل النجاح، كذلك على السياسي أن لا يكتفي بالعمل حسب ظروف مجتمعه الثقافية والسياسية والدينية، بل عليه أن يُراقب مُحيطه الجُغرافي من كافة زواياه العِرقية والدينية والثقافية، ذلك لأن الإعلام هو سيد العصر بلا منازع، هذه السلطة الإعلامية –تقريبا- نجحت في إزالة الكثير من الفوارق بين الشعوب وهدمت أغلب ما تعارفت عليه المجتمعات بنقلها لشعوب دول الجوار.

طبيعي وفي ظل هذا الوضع أن تُخلق بيئة شعوبية لا تترك صغيرا إلا وحاز على اهتمامها وكيفية دراستها..ومن هذه القضايا هي رؤية سلوك السياسي البانية التي تهتم بالعمل والإنتاج أكثر من اهتمامها بالوعود، تهتم بمواجهة ظواهر الرجعية والانحطاط أكثر من اهتمامها بكيفية تطبيق

أيدلوجياتها..وكل ذلك هو مقدمة لنجاح مشروعه السياسي فيما لو أحسن الرصد ثم المواجهة....أما قضية البناء فهي لا تُعطي فقط سُمعة للسياسي بل أيضا تبني له حائط صد أمام أي غزو سياسي أو فكري يتعرض له، أما ثقافة الهدم وكما تحدثنا عنها في السابق فلها جانبا سياسياً لا يقل أهمية ، حيث وتِبعاً للانشقاق المُجتمعي واستنكار ما تعارف عليه الناس فهي تهدم صورة السياسي هدماً مُعرّضاً للتعاظم إذا لم يواجه ما حدث بوضوح..وأن لا يظهر بصورة المُتلوّنِ أو التافه الضعيف الذي يخرّ أمام أولى الضغوط عليه..حينها سيشيع بين الناس ضعفه وتُهدم صورته بلا رجعة.

أما إذا كان البناء له أوجه ضارّة فلا يمكن تعيين الإصلاح بالمُطلق، فقد يبني الإنسان بناءاً في ذهنه غير صحيح فيبني عليه مقدمات ونتائج غير صحيحة، وقد يبني بناءاً في الواقع الخارجي يقتل به المخلوقات أو يخرق به قوانين الطبيعة فيُفسد التوازن البيئي، كذلك الهدم فقد يهدم الإنسان في ذهنه فكرة مخطئة أو خُرافة فتخلق لديه رؤية أكثر عقلانية وواقعية، وقد يهدم بناءاً في الواقع الخارجي فيُحقق به العدالة، لذلك كان تعيين الإصلاح للبناء وللهدم في عَرَضهم أحق من تعيينهما في الجوهر..كالمسلم الذي يذبح البقرة والذبح لديه بناءا لتغذيته، بينما الذبح لدى الهندوسي هدم لا يجوز ..

الفكرة العقلية والسياسية في البناء تأتي من تحقيق العدالة وهي عند أفلاطون تحقيق الانسجام والتكافل بين كافة أفراد المجتمع، ولدى أرسطو تصرفات وِفق تشريعات تُحقق المساواة وتواجه الظُلم، وقضايا الهدم التي

تُنتج صراعاً دينيا أو فكريا صِداميا -له تأويل سائغ- في الدين لا تُصنّف وِفق قضايا الهدم الإصلاحية، وبما أن القائم على الهدم تجاوز العدالة -باعتماده على قوته حيث طغت عليه الأنانية- فعمله يكون خارج دائرة العدالة ..وذلك بدلالة خرقه لتشريعات المجتمع..هذا الخرق سينعكس على الأخلاق ويؤدي إلى كسر الفضائل..فالإنسان في ذاته كائن اجتماعي يملك وعياً وإرادة ولا يمكن أن يبقى معزولا عن الناس بمجرد إيمانه بمُقدسٍ لديه، وكأن هذا الكائن كما هو مسئول قانونيا فهو أيضاً مسئول أخلاقياً، وكأن هناك تلازم بين القانون والأخلاق.

لشرح النقطة السابقة من وجهٍ آخر ..فقد تأملت في فلسفة الكوجيتو لديكارت التي تؤمن بالتفكير كشرط للشعور بالوجود فوجدته يؤمن بأن الآخر كائن افتراضي وأن الذات لديه كائن مستقل ومنغلق على نفسه..وفي رأيي أن هذه الطريقة في التفكير هي مُدخل خطير للشعور بالأنانية أو الدونية، وقد يتبعها القائم على الهدم دون معرفتها..والحل الأسلم لذلك هو الاعتبار بأن الذات هي جزء من وجود مجتمعي يضم الذات والآخر..وأنه لا وجود للذات إلا بتعيين الآخر له..في المحصلة أنا آخر عند الآخر..وأنا ذات عند نفسي..ولا أعيش في هذا الكون وحدي..وأن المنظومة التشريعية تفرض عليّ وعلى الآخر التمسك بالقانون كشرط لعدم التجاوز في حقوق الآخرين، وأن الالتزام بهذه المنظومة هو في المُحصّلة ارتقاءٌ بالأخلاق.

في الأخير مهما بلغ الخلاف حول التوسل -وما يتعلق به من قضايا- فقد أصبح قضية مُستهلكة- كشعور لدى الرأي العام العربي، وأن من

يعيشون الآن في فَلَكه بين مؤيدٍ ورافض ..هم يصرفون جهودهم إلى سلوكيات انعزالية لا تخضع للمعايير الحقيقية التي تسير عليها مجتمعاتنا الحديثة، وأن هذه المعايير أصبحت لا تؤلي بالاً لأي خلاف يتعلق بالتراث بل إلى علوم وواقع جديد يتسم بالتغيّر الجذري في المنظومة الفكرية للإنسان، وأن الذين يعزلون أنفسهم عن هذا الواقع هم في الحقيقة يواجهون ثقافة شعب بأكمله ويواجهون أيضاً شواهد ومُعطيات لا تكف عن صناعة الجديد كل ساعة...إنما كان هذا البحث هو محاولة لبناء إنسان مترابط ومتزن بعيداً عن الغلو أو التفريط في قضية أصبحت نتائجها وتوابعها وما يلحق بها أهم من طبيعتها وأحكامها الشرعية.

رسالة في علم الكلام

علم الكلام يبحث في العقائد بأسلوب شبيه بأسلوب الفلاسفة، ويعرف بعلم التوحيد وعند التهانوي في ."كشاف اصطلاحات الفنون" سماه أصول الدين ونقل تسمية أبي حنيفة له بالفقه الأعظم، إذاً هو علم ضروري لفهم العقيدة الإسلامية خاصة ولمعرفة الله والكون عامة، وقد صُنفَت فيه المصنفات وعُقدت له مجالس العلم..إلا أنه وبالتطور العقلي والمجتمعي للإنسان اختلفت رؤيته للدين نوعاً ما، فصار الدافع النظري الذي أسس لقواعد العلم في مراحله الأولى غير ذي جدوى في عصر المعلومات والرؤى التجريبية والبراجماتية، وبالتالي فقد أصبح المسلم أحوج لطريقة مختلفة ينظر بها إلى الدين بعدما تغير الإنسان وبالتالي تغيرت الأحكام.

من الضروري معرفة أن فلسفة الدين تدعو إلى الوحدة وصهر الخلافات في الرؤى العامة واتحاد الأصول..لا أن تدعو إلى الفُرقة وتنمية الخلاف والتميز الدوني، فإذا كانت الفُرقة ظاهرة من ظواهر المجتمع فبالتالي نرى أن الرؤية الشمولية للدين يعتريها القصور والتقصير في ذات الوقت، ولنا أن نسأل هل كان علم الكلام-بصورته وأدواته وسلوكياته الحالية-سبباً مباشراً أو غير مباشر في تفرّق المسلمين؟

هذا سؤال هام ويستدعي ضرورة البحث في أهمية العقل .."البسيط".. ومقاربته مع العقل.."المُناظِر"..وعقول العامة "بسيطة"حين تصوّرها لعقائدها، ذلك لوجود فارق بين المعرفة والأخلاق لا تُدركه عقولهم، فالعامي يرى الأخلاق بدينه وإنسانيته وحين يقوم بعملية تجريد للخُلق فلا يتصور دور المعرفة لأن الأخلاق والمعرفة لديه واحد فيظن أن الخُلق معرفة، وأن العالِم لابد وأن يكون خلوقا..وهنا الفارق..لأن أهمية المعرفة تكمن في البحث عن حقائق الأشياء والموجودات، فبمجرد النظر للأخلاق بصورة المعرفة فيخلط بين الحقائق كجواهر وأعراض، ولا يتميز لديه المفهوم من المصداق..لذلك أعتقد أنه مهما قيل في علم الكلام -القاصد للتنزيه-لن يستوعبه عقل العامي إلا بإيجاز القضية لديه في فكرة أو اثنين:

الأولى: في قصور العقل البشري على الإحاطة بعالم ما وراء الطبيعة، وأن قوانين هذا العالم تُفسّر بخلاف حدسنا ومُدركاتنا.

الثانية: أن دلائل وجود الله ووحدانيته ننظرها ونرصدها في الإنسان.."أخلاقه-ثقافته-مجتمعه-سلوكه"..ثم في الطبيعة بقوانين العلة والمعلول والمُرجح والرجحان وهذه قضية يستوعبها عقل الإنسان بداهةً أنه لا رُجحان إلا بمُرجح.

من هنا نقف على بعض الأدوات "الفعّالة"حين التعامل مع عقل الإنسان، أما عقل المسلم فهو تِبعاً للعقل الإنساني وما دام مسلماً فلديه نصوصه التي يحتكم إليها ومنها إلى شرح قانون.."المحكم والمتشابه"..ومنه إلى مشاريع فكرية ترعاها الدولة بواسطة وزارة الأوقاف أن لا حديث إلا بالمُحكم، ويتم التسليم بما وُرد من صفات العقل الإنساني وحملها على تصور الأدوات والمشاريع الفكرية-عملياً.

أما بالنسبة للعقل المُناظر فعلم الكلام أولى جُل اهتمامه بالحوار والدفاع عن العقيدة عبر التأمل والبرهان، وبالتالي وحسب أهمية البرهان لمخاطبته.."العقل المنطقي للإنسان"..تكن مهمة علم الكلام، ولكن ماذا لو تبدى لنا أن بعضاً من أسس العلم بُنيت على آثار يحتمل عدم صحتها، أو فساد مدلولها؟..وماذا أيضاً لو ظهر لنا أن الحكمة من العلم كانت نظرية وليست عملية؟

أرى أن هناك ثمة خلط بين الاعتقاد والمعرفة ، وهو الذي حمل بعض المناظرين على توصيف اعتقادهم بأنه"قمة المعارف" أو"حكمة العقيدة"..فمبجرد الاعتقاد ينزع الإنسان لتجريد وتشكيل عقيدته ومن ثم يدعو إليها وينافح عنها، وهنا رصد لحالة اكتفاء معرفي توقفت عند

حدود مؤثرها الأول في "الحكمة النظرية"..وبالتالي كانت"الحكمة العملية لديه مرجوحة -دون أن يشعر-رغم أن المعرفة لا حدود لها البتة، حتى مع تصورنا للعقل البسيط وطريقة التعاطي معه فالعقل المُناظر لن يغادر أودية الميتافيزيقا، وسيظل مشغول بها...

كذلك لابد لنا وأن نستذكر دور السياسة في التأثير وتشكيل عقليات المتكلمين ..ابحث عن السياسة..ليس كما يُقال ابحث عن المرأة، ولكن هذه المرة ابحث عن السياسة فهي سبب أصيل للبلاء، وهي مُرتكز كثير من –إن لم يكن كل-الفرق في تشكيل عقائدهم والدفاع عنها ضد كل مخالف، وفي تلك الحالة يبحث الإنسان عن الدليل الذي يدعمه ورأيه.. أي أن هواه سابقٌ لمعرفته، فالمؤثر العاطفي في تشكيل الرأي كبير، والمضمار السياسي يكاد يكون هو حلبة الصراع بين الفرق بأشكاله..وغالباً ما يبدأ الخلاف العقدي بخلاف سياسي كمثال ما حدث بين السنة والشيعة..وما حدث بين السنة والمعتزلة..حتى تلك الاختلافات"العقدية" التي نشأت بين مدرستي الأشعرية والماتوريدية من جهة ومدرسة "السلفية" من جهة أخرى لم تخلُ من الباعث السياسي.

ساعد في تعميق الخلاف -والذي كان منبعه سياسياً-احتكاك المسلمين بحضارات الغرب والشرق وهذه نقطة حوار سنناقشها مستقبلاً بإذن الله، ويُمكن القول أن الخلاف السياسي -مدعوماً بروح الدفاع عن العقيدة من الغزو الفكري الأجنبي- زاد من حدة الصراع وبالتالي تشكيل عقليات وطُرق تفكير شبه مستقلة، فباختلاف طُرق التفكير سيختلف التأويل حتماً..ذلك لأن الصور العقلية في الأذهان في الغالب ما تكون ثابتة

ومستقرة بعدة مؤثرات منها المعلومة ومنها التاريخ-ومنه السياسة-ومنها العاطفة ومنها الخلط بين الصور العقلية الثابتة والمتغيرة، ذلك لأن الثابت منها هو حقائق خالدة ، أما المتغيرة فنطاق عملها محدود وينحصر في العالم الخارجي بأشياءة، وبالخلط بين الصورتين تنشأ حقيقة مشوّهة هي أداة الخلاف -لا شعورياً.

في الغالب نحن نتعامل مع العالم الخارجي في إطار عمل الحواس، ولكن خداع الحواس ممكن بشكل كبير، وبالتالي فدخول هذا الجانب في تشكيل الحقيقة غير مأمون العواقب ،وأعتقد أن أكثر من شغلوا أنفسهم بعلم الكلام لم يسلموا من هذا السلوك..وباعتبار ما سبق فلا يمكن القول بأن السياسة كانت مؤثراً وحيداً في صنع الخلاف، بل يجوز القول بأنها رافد أو أنها ترتبط بالخلاف حول النصوص"التأويل"بروابط روحانية لا تنفك عن عالم المادة.. كمثال ما حدث من خلاف حول الإمامة بين السنة والشيعة، فالروح لدى السنة أقرب للصحابة وللخلفاء الأربعة تحديداً، بينما هي عند الشيعة أقرب لآل بيت رسول الله ونسل علي والحسين تحديداً...وبعدم انفكاك هذا التوجه الروحاني عن عالم المادة يتم المزج حتى تتشكل حقائق مُطلقة لدى حامليها فيُنافح عنها كل منافح ويتعصب لها كل متعصب ..وأظن أنه وبزيادة رقعة التنوير العقلاني سيجري خنق هذا المزج ليتم الفصل بين عالمي الروح والمادة-في هذا الإطار-وبعدها لتفهم رأي الآخر..

لا أنسى في هذا السياق حظوظ النفس وما أدراك ما حظوظ النفس، فأكثر ما يهدم الإنسان العَجَب ومنه إلى ضعف الإيمان، ومرد ذلك إلى خُلق

التواضع، لذلك أرى أن كل متواضع –حقيقةً- لا يُصبه داء الكلام بالخلاف السياسي، فبدون التواضع تنشأ الحمية والعصبية في إحياء متكرر لخُلق الجاهلية الذي كان يحاربه رسول الله..حتى لو مرة واحدة فقد لا يسلم الإنسان منها وتظل لديه حقيقة حتى حين تواضعه فيما بعد...التجريبيون هم أكثر محاربي هذا الخُلق الهدّام حتى عند من لديه بعضاً مما لديهم فهو خصم لحظ النفس، ذلك لإيمانه بأن ذاكرته"المُتخيّلة"ليست حقيقة مُطلقة إلا بإخضاعها للحِس.. وهنا الفارق الذي لابد وأن ينتبه إليه كل باحث، فخطأ الحواس ممكن ولكن فقط حين خلطه بالصورة الثابتة العقلية والتي تُعد كالحقائق المُطلقة ومنها التفكير المنطقي، أما التفكير بواقعية فيُخضع الذاكرة للشك ومنها إلى تجريد حقيقة جديدة بالتركيب والاستقراء مع مرور الوقت.

أيضاً فالفلسفات العاملة في حقل الإلهيات لم تكن لها حدود واضحة للمعرفة ، ومنذ أن بدأ الاحتكاك بين المسلمين والغرب حتى سن المسلمون قوانين للبحث في ذات الله وصفاته، وذلك لتقييد حركة البحث وجعلها متمايزة عن أساليب الفلاسفة التي قضت بقِدم العالم مما يتعارض مع الرؤية الإسلامية والإيمانية بشكلٍ عام،وما جعل المتكلمون يسلكون هذا المسلك هو تقيدهم بالنص المتوافق مع العقل، بينما لا يعتمد الفلاسفة على نصوص معينة ويُطلقون لعقولهم العنان للبحث والنظر.

أسلوب الفلاسفة نفسه كان خطراً كبيراً على عقائد المسلمين، حيث نعتبر أن علم الكلام كان المسلمون يمارسونه دون تمييز أو تقعيد قواعد واضحة للتعاطي معه، والسائد قبل ظهور علم الكلام -كتعريف وكقواعد-

هو التكيف مع النص بتأويل الفقهاء، ومع صعود حركة الترجمة في زمن الدولة العباسية نرى وقد أجبر ذلك الفقهاء على النظر بقواعد جديدة لرصد التعاطي مع العقائد بأساليب أكثر منطقية، حيث كان اعتماد الفلاسفة بشكلٍ كبير على المنطق الأرسطي كونه أكثر الأساليب شهرةً في التعاطي مع العقل الإنساني وكشفه.

إذاً فعلم الكلام كان موجود-قبل ظهوره كتعريف- ولكن كسلوك فقهي غير متخصص وغير مُقعّد بقواعد معينة تجعل في البحث عن ذات الله وصفاته أكثر اتساقاً مع العقل، ومعلوم أن معيار الاتساق من أكثر المعايير قبولاً لدى العقل في تفسير الأشياء..وعن دلالات وجوده هو قُرب زمان-ما قبل الكلام-بزمن رسول الله وصحابته وآل بيته، حيث كان عامل الفهم لم يندثر بعد، حتى مع ظهور الفِرق ولكن ظلت الأمة على وعي-شبه تام-بحقائق الدين، يدل على ذلك كثرة المؤلفات الفقهية والحديثية وكأنه لا قدسية لمنهج محدد في التعاطي مع القرآن أو السنة....

أما عن دوافع نشوء علم الكلام كقواعد فيبدو أنها كانت عن صدمة أعقبها نزعة توضيح..ولا أعتقد بالدهشة حيث كان أسلوب الفلاسفة غريباً على المسلمين،فقد يشعر الإنسان بالدهشة حين حدوث طارئ أو مستجد له جذور في وعيه عبر تكوين صورة عقلية ثابتة هي لديه حقائق مُطلقة، ولا أعتقد أنه وبجهل المسلمين بأساليب الفلاسفة كانت لديهم هذه الصورة، علاوة على اهتمام المسلمين في هذا الحين بالتجربة والعمل أكثر من البحث العقلي والنظر المُجرد، فعلى ما يبدو أن الحكمة النظرية

لم تكن لها شعبية تُذكر في عقول المسلمين في صدر التاريخ الإسلامي، وأنه من كثرة غزوات المسلمين شكلت لديهم منطقاً عقلياً تجريبياً مُقيداً بفهمهم للنص.

في هذا السياق نُثبت أن الحالة المعرفية للعقل المسلم "الباحث" توقفت وجَمُدت منذ زمنٍ طويل، وذلك بظهور - ثم سيادة- طُرق التدريس القائمة على الحفظ والحشو، بينما الأصل في المعارف أن لا حدود لها البتة،فهي تتطور بتطور عقل الإنسان ومحيطه الاجتماعي..فمنذ أن نشأ علم الكلام إلى أن تم تقعيده بقواعد البحث في ذات الله والتوحيد والقضاء والقدر وغيرها من المباحث ..إلا وجرى توظيف العقل المسلم على التكيف فقط مع الموجود..هذه الطريقة وتلك القواعد لابد وأن يأتي عليها زمن لم تعد تتسق فيه مع معايير الحقيقة المختلفة، بل وبركود العقل الإنساني يجري تخصيص وتحليل متتالي ينتهي إلى التكلّف والبرود ومن ثم مجافاة الواقع والعقل معاً.

ليست كل أصول البحث في علم الكلام بحاجة لإعادة نظر، فقواعد كقواعد المحكم والمتشابه وغيرها -مما لا تستغني عن الجدل والحَجّاج - لا يمكن إعادة النظر فيها إلا عبر قواعدها العقلية والبحثية الثابتة منذ زمنٍ طويل.. أو ربما يُضاف إليها أو يُستنبط منها حسب مهارة وقوة الباحث ولا يُعد ذلك إعادة نظر إذ القواعد ثابتة فقط يجري تكييف المعارف الجديدة على القواعد القديمة أو استخراج واستقراء أخرى..هذا السلوك لا يستثني أحد، فالعلم لا يتقيد بقيود الدين أو المذهب ، وما دام علم الكلام هو دراسة بحثية عقلية للعقائد إجمالاً فلابد من وضع معارف

الإنسان شتى في دائرة الاهتمام، فليس من المعقول أو من المقبول أن يُوجد أنواع وصنوف من الخير في مكانٍ ما لا نستفيد منها البتة، أو يجري نقدها ونقضها من داخل النَسَق.

أيضاً فعلم الكونيات الحديث ربما يكون قد انتصر للرؤية الكلامية التي صيغت بناءاً على النص في مواجهة براهين الفلاسفة، وأقصد بذلك أشهر قضية خلافية بينهم ألا وهي قِدم العالم وحدوثه، فالعلم الحديث يعترف بنظرية الانفجار الكبير التي تُثبت أن الكون لم يكن قديماً وأنه حادث في زمنٍ ما وبطريقة ما، ومن المؤكد أن هذا انتصار كبير للمتكلمين أعزه إلى قدسية وعصمة النص الإيماني بالعموم..لذلك فالتقدم العلمي يمكن القول عليه أن نتائجه خدمت الإيمان بالله بشكلٍ كبير، ورغم أن قضية الإيمان ليست بحاجة لبراهين عقلية إلا أن هذا مهم في مضمار الرد على المُنكرين العقلانيين.

ومع ذلك فهناك قضايا بحاجة لإعادة نظر، فمع قدوم العلم الحديث واكتشافاته وتحدياته إلا وبرزت لنا قضايا لم يؤلها المتكلمون اهتماماً كما ينبغي كمثال الرؤية الداروينية لوجود الإنسان والأنواع، أو تحديات المنطق في عصر ميكانيكا الكم التي تفترض كسر مبادئ الهوية و اجتماع النقيضين وغيرها مما يحتار له عقل الإنسان، أو التوقع التجريبي لنظرية الشواش"الفوضى الخلاقة" تلك النظرية التي تُحاكي السلوك الإنساني عبر نموذج حاسوبي....أو عبر الرؤى الفقهية المختصة بالمجتمع في عصر الإعلام والنهضة والثورة الرقمية وعلم النفس والهرمنيوطيقا، فالعلاقة بين الفقه والعقيدة ضرورية للكشف والتفسير وإذا

كان الفقه يهتم بالإنسان والمجتمع ومكوناته وظروفه فالعقيدة لا تَخلُ هي الأخرى من ذات الاهتمام.

أيضاً فالفجوة التي حدثت بين المتكلمين القُدامى والجُدد لابد لها من ردود فعل عكسية تُحي علم الكلام وتُعيده للواجهة من جديد، فكما كان الاحتكاك بفلسفات الغرب والشرق قديماً باعثاً على العمل والتطوير المعرفي ..لابد من استخدام هذا الباعث مرة أخرى ولكن هذه المرة للحكمة العملية أكثر من الحكمة النظرية التي سادت الإحياء الأول لعلم الكلام..أيضاً فقدوم علم الكلام في ثوبه الجديد سيُزيح ظاهرة الفقهاء والوُعّاظ الذين احتلوا حياة الناس وأصبحوا هم الموجه الأول للشارع في العصر الحديث، رغم كون الكثير منهم يُعانون من الضعف المعرفي والانحطاط الأخلاقي وخفض مستوى الإدراك العقلي لصالح النزعة والمذهب والعِرق، كل هذا سيؤثر حتماً في مسيرة النهضة الشاملة، وأن المشروع التجديدي الكبير يستوجب النظر في الأساليب والأدوات ومنه إلى المعارف.

أخيراً هل ما قرره الفقهاء للرد على التجسيم والمجسمين يصلح لأن يكون أصلاً دون فرع؟..يعني هل يصلح أي مفهوم أو نظرية ترد على هؤلاء أن نصمها.."بالنظرية أو الفكرة المجردة"..؟..

كمثال أن تخرج نظرية يكن باعثها الأول هو الرد على فكرة ما ثم تنحرف هذه النظرية بمرور الوقت من كونها جزء من سياق لتُصبح قاعدة مستقلة بذاتها يجري عن طريقها التفسير والاعتقاد..كمثال ما قاله الإمام الطحاوي رضي الله عنه ..حيث قال.." تعالى الله عن الحدود

والغايات والأركان والأعضاء والأدوات لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات"..هذا القول كان في سياق الرد على المُشبهة الذين ينسبون لله المكان والحدود، ولكن فور أن تم تقعيد هذه النظرية كقاعدة مستقلة إلا و أصبحت مُدخلاً خطيراً للقول بوحدة الوجود، فظاهر النظرية لا يرى في المخلوق حداً لله لأن جميعنا -حسب هذه النظرية- حدوداً لله، بينما كان نفي الحد ثبوتاً لصحة وجوده حيث كان البديل الأسلم هو التفريق بين نسبة القول لله من حيثية الوجود -كون وجوده سبحانه مستقلاً-وبين حيثية المفهوم حيث يجري تقعيد النظرية للتعريف بالله وصفاته فيجري الخلط في الأذهان.

أيضاً كون النظرية لم تتضح بشكلٍ كافٍ عند بعض المتكلمين فيما يخص وجود الله هل يقصدونه بالفعل أم بالقوة..والظاهر أنهم يقصدون الوجود بالفعل ولكن لم تُسجل ذلك أقلامهم لاعتقادهم أن المسألة بديهية-وهي كذلك-فاكتفوا ببرهان واجب الوجود ولكن انطلاقاً من حدوث العالم وليس عبر التعرض لمفهوم الله الذي لا يقبل المفارقة لعدم القول بالوحدة،إذ المفارقة بالكُليات المنطقية وجميعها تُشكل الماهية ولا يجوز نَسب الماهية لله وبالتالي فلا مفارقة بين وجود الله وغيره كون وجودها يلزمه ثبوت الماهية وهذا مُحال على الله، ويكفي في هذا السياق أن نتعرض لمفهوم الله كونه معقولاً ثانوياً فلسفياً له وجود في الذهن واتصافه في الخارج، أي أن الإنسان لا يرى الله ولكن في ذات الوقت له وجود في ذهنه لا يجري عليه وصف..هذه المسألة غاية في الأهمية وأظن أنها بحاجة لاستقصاء أكثر من ذلك وأكتفي بالإشارة إليها وربما أتعرض لها مستقبلاً بإذن الله.

رسالة في البنوك

من أكثر الموضوعات التي شغلت الرأي العام في بلاد المسلمين والتي دار حولها الجدال ولم يتم التوصل فيها إلى رأيٍ قاطعٍ وموحد.. هو موضوع المعاملات البنكية وماهيتها وهل هي حرام أم حلال، ونحن هنا سنناقش هذا الموضوع من عدة جوانب ليس لهدف الفتوى واصدار الأحكام الشرعية ،ولكنها ستكون فرصة نسأل فيها السؤالات ونطرح بعض الأجوبة ..على أمل أن تكون قضية البنوك والمعاملات المالية في بلاد المسلمين هي خطوة لمراجعة تراثية شاملة تُعالِج ما علق بالإسلام من تفسيرات وتوضيحات بشرية للدين جرى اعتبارها نصوصاً مقدسة.

مبدئياً أرى أن المعاملات المالية البنكية يمكن فهمها بسهولة عبر سياسة تبسيطية تخلع القضايا الفنية المعقدة التي يملكها المتخصصون في المال والاقتصاد عن معنى كلمة.."الشريعة"..بمعنى أن الإسلام لم يضع أسلوباً فنياً واضحاً للتعاملات المالية، سوى أنه يضع مصالح الفقير وعدم استغلاله كمبدأ عام وراء تحريم الربا، بينما أجاز الإسلام البيع وما يتعلق به من أرباح ، وفي تقديري أن مشكلة البيع والربا هي تخص أمرين اثنين كمدخل نفهم بهما أي تعاملات مالية.

1- القيمة الثابتة: وهي القيمة المالية أو العينية التي يضعها الشخص في البنك أو يقترضها منه حسب الحاجة، وفي العُرف الاقتصادي جرى

تسميتها بالودائع أوالحسابات الجارية، أما القروض فهي قيمة القرض الأصلية دون زيادة.

2-القيمة المتغيرة: وهي القيمة المالية أيضاً أو العينية التي يربحها الشخص من البنك، أو هي الزيادة على القيمة الثابتة في القروض، وفي العُرف الاقتصادي جرى تسمية هذه القيمة بالأرباح أو الفوائد.

ما يهمني في هذه القصة أن لا تكون القيمة المتغيرة هي في أصل القيمة الثابتة، بمعنى أن الفصل بين القيمتين يجعلنا نفهم قضية البنوك ومعاملاتها بسهولة، بمثال بسيط شخصاً وضع مليون دولار في البنك..هذه هي القيمة الثابتة، وجرى الاتفاق بين الشخص والبنك على أرباح وفوائد بنسب تقديرية ولتكن مثلا 10%، هذه النسبة التقديرية هي القيمة المتغيرة، والمعلوم أن البنوك لا تُجبر عملائها على قبول نسب معينة ، بل وأحياناً تضع خياراتها للعميل ومن ضمنها مبدأ قبول الربح والخسارة، ولكن إذا جرى الاتفاق على نسبة معينة وقتها تُصبح الزيادة هي القيمة المتغيرة أو العائد، أما تسميتها بالعائد في الأعراف البنكية فهي إشارة إلى أن أصل القيمة الثابتة لا يمكن أن يظل متجمداً دون أرباح ، والسبب أن البنوك ليست حصّالة للادخار بل هي تستثمر أموالها في مشروعات ، والعائد من وراء هذه الاستثمارات هي الزيادة التي اشتُبِه فيها بعض الفقهاء وظنّوها هي الربا المُحرّم..وهذا غير صحيح.

لأن الفارق بين هذه المعاملات البنكية والشخص المرابي هو أن البنك مؤسسة تفصل بين القيمتين الثابتة والمتغيرة بعامل الزمن، وتضع

المتغيرة رهينة للربح عن طريق أقساط تحقق النسبة والتناسب بين القيمة المتغيرة والزمن، بحيث كلما زاد الأجل كلما نقصت القيمة المتغيرة وزادت في الثابتة المملوكة للبنك، وكلما انخفض الأجل كلما زادت القيمة المتغيرة ونقصت في الثابتة..وهذه معاملة بنكية مشهورة تختلف تماماً عن مفهوم .."الربا المُحرّم"..لأن البنك في هذه الحالة يضع لك الخيار في رفض وقبول هذه السياسة أو اختيار الأنفع لك، بمعنى أن تحديد الأرباح عند البنوك هو قابل للزيادة والنقصان، بدليل عدم ثبات عائد شهادات الاستثمار، فمرة يزيد هذا العائد ومرة ينقص حسب معايير أسواق المال المحلية والدولية.

أما الشخص المرابي فهو يفرض قيمة متغيرة معلومة سلفاً، وهو لا ينظر للأجل لأن ما يهمه هو الزيادة على القيمة الثابتة، لذلك فلو اقترض منه شخص مليون دولار مثلاً سيفرض عليه نسبة 10% بعد فترة يسترد فيها أمواله مرة واحدة، وهذا هو الفارق بين الربا والبيع، لأن ما يقوم به هذا الشخص هو ربا أصبحت فيه القيمة المتغيرة وهمية، بل هي في الحقيقة قيمة ثاتبة متغيرة في نفس الوقت، ثابتة بالنسبة له ومتغيره بالنسبة للمقترض، ولو لجأ لمعاملات البنوك أن أقرض شخصاً مليون دولار مثلاً ثم استرد هذا القرض على أقساط تراعي النسبة والتناسب بين القيمة المتغيرة والأجل..حينها يُصبح ما قام به هو بيع حلال لأمواله.

بتوضيح أكثر لهذه الجزئية ، نفترض أنه لو قام شخصاً باقتراض 50 ألف دولار من بنك ، ثم قام هذا البنك بتحديد سعر الفائدة على القرض بحيث لو كان التسديد على 7 سنوات فالفائدة ستبلغ 25% من قيمة

القرض –القيمة الثابتة التي تحدثنا عنها- ولو كان التسديد على 5 سنوات سيرتفع قيمة القسط وتقل فيها الفائدة إلى 15%، ولو كان التسديد على ثلاث سنوات سيرتفع أيضاً قيمة القسط وتقل فيها الفائدة إلى 9%، هذه السياسة هي سياسة بنكية شهيرة لا أعلم لماذا يتغاضى عنها فقهاء الشريعة التُراثيون، فالبنك هنا لا يفرض ربحاً مالياً له إلا بالاتفاق وحسب ظروف واختيار الشخص المقترض، والدليل على ذلك أن قيمة القرض يمكن أن تُسدد دون زيادة أو أي قيمة متغيرة بعد شهرين مثلاً أو ثلاثة شهور، أو تكون نسبة الفائدة أقل معدلاتها إذا تم تسديد القرض قبل مرور عام.

سيسأل سائل لماذا يأخذ البنك فائدة أصلاً على القرض، أقول أنه لا يمكن أن يُقرِض البنك قروضاَ دون فوائد إلا ويخسر، والسبب أن أسواق المال في تصاعد والأسعار في ارتفاع، ومع هذه الظروف تقل قيمة العُملة، بتشبيه بسيط أن ما يقوم به البنك هو مثل ما قام به شخص أقدم على تسديد نُقطة مديون بها منذ 10 أعوام في حفل زفافه، كانت النُقطة القديمة هي وليكن 10 دولارات، وبعد مرور ال10 أعوام لا يمكن ردها بنفس المبلغ ، لأن النقطة القديمة كانت تمثل له نسبة من راتبه وليكن 5%، فإذا سددها بنفس القيمة أصبحت تمثل لديه 1%، هنا يخسر صاحب النقطة القديمة ويكسب صاحب النقطة الجديدة، لأنه لم يُراعِ الفارق المتغير في ثمن العُملة، الصحيح أن يُراعي صاحب النقطة الجديدة ثمن العُملة فيُسدد قيمة النقطة بسعر العُملة الحالي وليس القديم، وعليه يجب أن يُسدد 50 جنيه نظير 10 جنيه، عموماً هذه نِسَب تقديرية تزيد وتنقص من شخص

آخر، وأعرف أن شخصاً سدد قيمة نقطة خمسة جنيهات من 20 عاماً سددها 200 جنيه مصري.

أيضاً فالبنك هو مجرد وسيط مالي بين مودعٍ ومقترض، أما الفائدة التي يدفعها البنك للمودعين فهو يأخذ أكثر منها من المقترض، والفارق بين هذه النسبة هي أرباح البنوك، بتوضيح أكثر أن فلاناً أودع في البنك مليون دولار بفائدة 10 %، ثم جاء فلاناً آخر واقترض نفس المليون دولار ولكن بفائدة يدفعها 12%، هذا الفارق في النسب وهو ..(2%)..هو أرباح البنك، أي أن البنوك في هذه الحالة لا تستفيد سوى عملها كوسيط أو كسمسار، وليست صاحبة مصلحة كي تأخذ فارقاً ربوياً يستغل الفقير، والسبب أن كلا الطرفين.."المودع والمقترض"..جاءاً عن تراضٍ منهم، وباتفاق على السياسية البنكية بعد أن علموا كافة الخيارات والأمور التي تحقق مصالحهم.

الحقيقة أن هذه الرؤية أفهمها من قوله تعالى.." ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أمولكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم"..سوة النساء آية 29، والتراضي عكس الإكراه، فالمعاملات البنكية بالعموم تقوم على مبدأ التراضي، أما الربا فيقوم على الإكراه، حينها لو قُلنا أن شخصاً ما مُجبر على الاقتراض ..لا يمكن أن نزعم حاجته تراضيا، بل هو إكراه ولو ظهر للشخص المرابي غير ذلك، فالبيع يدخل في كل شئ حتى المال، وهناك أسواق للعُملة يجري فيها بيع العُملة للمنتفعين ، فإذا كان مفهوم البيع ضيقاً لدرجة تحريم المعاملات البنكية-التي هي في أصلها تجارة-سيلزم بالضرورة تحريم تجارة العُملة، وهو ما حدث فعلاً

مع من يُحرمون أموال البنوك ، فهم قد اتحدوا مع أنفسهم حتى حرّموا تجارة العُملة ولو كانت من شركات الصرافة وليست فقط في السوق السوداء،أما من يُحرم أموال البنوك ويُجيز تجارة العُملة فالأمور يبدو أنها غير واضحة لديه، لأن القيمة المتغيرة التي أجازها في فرق العملة هي نفسها القيمة المتغيرة التي حرمها من أموال البنوك..!

لا يُفهم من ذلك أنني ضد تجارة العُملة بل أرد فقط على التناقض والتعارض في منطق ومبادئ المُحرمين لأموال البنوك، وأرى أن هذه التجارة تخص الفروق بين الأسواق المالية، وهذه الفروق حديثة لم تكن موجودة في عهد الرسول أو السلف، وفي تقديري أنها التي أحدثت هذا الفارق لدى المُحرّمين فاشتبهوا عدم جوازها قياساً على عدم وجودها في عصور السابقين، ولا أفهم كيف يزعم المحرمين أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وهم عاجزين عن فهم الدولة الحديثة وما يتبعها من مؤسسات وأسواق ومعاملات مالية..!

في تقديري أن تحريم أموال البنوك وراءه عوامل نفسية أكثر منها فقهية ، فالمُحرّمون يعملون بالأحوط غالباً، وهو ما اصطُلِحَ لدى الفقهاء.."بسد الذرائع"..كان قديماً هذا المبدأ يخص كف الأذى عن المسلمين، ولكنه أصبح اليوم تحريماً لكل شئ غير مفهوم، يكفي أن يختزل الفقيه كافة معاملات البنوك المعقدة في فتوى بجُملة واحدة تُلخص هذه الكُتب التي كُتِبت في الاقتصاد جُملة ، وهذه إحدى أمراض المسلمين بشكلٍ عام، وقد تحدثنا عن هذا المرض في مقال.."كيف يفكر الإرهابي"..فدوافع ونفسية الإرهابي الاختزالية قريبة من دوافع ونفسية المُحرمين، والتعميم

ذميم..هناك من يُفتي عن جهل وسد ذرائع ولكن ما بينه وبين الإرهاب ما صنع الحداد، ولكن الحديث هنا عن دوافع قد تكون مُشتركة عامة بين الإرهابيين ومن يتشددون في التحريم دون علم.

الاختزال دائماً يؤدي إلى الغلو، فيُنكر على من خالفه دون يقين بمشروعية التفكير إلا من خلاله، وقد شّبه المفكر جورج طرابيشي هذا الأمر بعُقدة.."التفكير من المرجعية"..وقال أن التفكير من المرجعية يعني أن شخصاً ما ذهب إلى الفضاء بصاروخ، فهو لن يمكنه رؤية الفضاء والكواكب والأجرام إلا من خلال هذا الصاروخ، فيضع الأبعاد والاتجاهات والمسافات من داخل الصاروخ، ويعتقد أنه لا يمكنه أن يبرح مكانه وإلا سيموت، نفس الحال بالنسبة لهؤلاء الشيوخ فهم يعتقدون أن التفكير من خارج مرجعيتهم يعني نهايتهم.

إن الغلو دائماً يعني الإنكار على المخالف ونزع أي مشروعية له في الحقيقة أو حتى مشاركة في حق التفكير.. حتى يُصبح إنكاره تعبيراً عن عُقد نفسية، وفي تحريم أموال البنوك شاع بين المُحرّمين رفض الآخر ونزعة المؤامرة، حتى وصل الأمر للتعبير بأن البنوك هي مؤامرة على الإسلام..هكذا دون اعتبار للمصالح والمفاسد، ولو دققنا لسلوكياتهم لن نجد فارقاً بين ما يفهمونه عن الربا وبين معاملاتهم المالية، وما تجربة شركات توظيف الأموال عنا ببعيدة، فانهيار هذه الشركات كان عن جهلهم بأسواق المال والاقتصاد المعاصر من جذوره.

في الحقيقة لقد اشتبه عليّ قضية تحديد الأرباح والفوائد سلفاً أكثر من مرة، والسبب أن شُبهة استثمار المال يعني في مضمونه المكسب والخسارة وهي شُبهة قوية على البنوك، ولكن سألت نفسي وهل البنوك تخسر دائماً أو تكسب دائماً ؟..لا يمكننا القول بذلك، ولكن إذا خسرت البنوك مرة فهي تكسب في أخرى فتغُطى أرباحها خسائرها، لأن البنك مؤسسة مالية بالأساس وفيها معظم صور المعاملات المالية بل والعينية، وهي عندما تُقدم على أي إجراء فهي تهدف من وراءه الربح فتشرع في طمأنة العملاء وزيادة حجم الثقة، وهذا لن يأتي إلا بضمان أرباح العُملاء، وفرضاً لو حدث تقصير من البنك وخسر أموال المودعين فالقضاء هو الحَكَم في هذه الحالة، ولكم رأينا الاحتكام للقضاء ليس فقط في حال خسارة البنوك بل أي شركة أو مؤسسة بينها وبين الناس معاملات مالية.

كذلك فهناك جانب مهم نغفل عن رصده، وهو أن أحكام البعض على الفقهاء والمفكرين الذين أجازوا عمل البنوك وأموالهم هي أحكام سياسية وشخصية وليست أحكام فقهية، كمثال من يرفض فتوى شيخ الأزهر السابق سيد طنطاوي أو مفتى الديار المصرية السابق علي جمعة بُحجة أنهم علماء دولة أو سلطان أو أو أو...إلخ..جميع هذه الأحكام هي سياسية شخصية لا يمكن أن تكون فقهية علمية، والسبب أن الحُكم الفقهي يتطلب تجاوزاً للشئ ومعرفة تامة به، وكل الذي يسلكون هذا المسلك من الأحكام المتسرعة ليسوا على درجةٍ من العلم تؤهلهم للرد، والدليل أن ردودهم اختزالية شخصية لا تناقش أدلة .."المدعين"..أو حتى تُحاول أن تفهم القضية بمنظور مختلف عما يفهم به شيوخهم ومرجعياتهم.

أخيراً تبقى قضية البنوك والمعاملات المالية هي من الأمور المستجدة، ولا سبيل لفهمها داخل نصوص الفقهاء وقواعدهم التي خرجت معظمها في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ثم أعيد صياغتها –بنفس المنهج- في العصور اللاحقة من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري، من وقتها لا تجديد ولا نَظرَ في هذه القواعد والأحكام، وهي أزمة فقهية عامة أصابت وعي المسلمين بتمسكهم بتراثٍ أصابه الشلل ولم يعد قادراً على مجاراة العصر، وعليه فكافة الأمور المستجدة تتطلب بحثاً علمياً صافياً يبحث في طبيعة الشئ وليس تحكيم طبيعته لفهم أو نص فلان، وهو ما يُعرف.."بالحقيقة لذاتها"..وهذا لن يحدث إلا باقتحام المتخصصين في هذا الشأن أي معارك فكرية تدور حوله وحول طبيعته، فالمتخصص أكثر دراية وحرصاً على تجريد مما يرافقه من تصورات مغلوطة وقواعد مهترئة لا تتناسب مع طبيعة وحجم هذه القضايا المهمة.

رسالة في أبي حيان التوحيدي

هو من العلماء والمثقفين والأدباء المسلمين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري ...وهناك العديد من العلماء والمؤرخين والمحققين من يمدحونه وآخرون يذمونه، وفئة ثالثة يُترجمون له دون مدحٍ أو ذم على طريقة شيخ المتصوفة محي الدين ابن عربي، في النهاية يصعب القطع برأي أحدهم إلا قولنا رحمه الله فقد أفضى إلى ما قدم فيحيل علينا وغيرنا التثبت، وأنه ترك لنا علوماً شتى ينتفع بها المسلمون.....رغم أنني لم أقرأ لأبي حيان إلا قراءة سريعة في "البصائر والذخائر" إلا أنني أعتقد

بأن للرجل عقلاً راجحا يشبه –في صياغته-طُرق بعض أدباء القرن العشرين في حبهم للحكمة والخوض في غمار النفس الإنسانية...وهؤلاء الرجال من محبي الحكمة هم العهد في تفصيل وفهم الدين وتبسيطه للناس دون تكلف وعسير.

طالعت مقال بعض الفقهاء والمؤرخين فيه فوجدت تبايناً ملحوظا-كما سلف، وقد اخترت أن أبحث أولاً عن ما شاع عن الرجل كطريقة أحبذها دوماً في التقاط الصورة الأولى والبحث في صحتها بتوكيدها أو نفيها أو تعديلها، وكعادة البحث في السير عن محققي وطلاب العصر رأيت أن هناك اتفاقاً بين الذهبي وابن حجر في ذمه حتى باستخدام أقسى العبارات التصنيفية والتكفيرية:

1-فيقول الذهبي:" الضال الملحد أبو حيان، علي بن محمد بن العباس، البغدادي الصوفي، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية، ويقال: كان من أعيان الشافعية... كان أبو حيان هذا كذابا قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل، ولقد وقف الوزير الصاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدغله ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقتله، فهرب، والتجأ إلى أعدائه، ونفق عليهم تزخرفه وإفكه، ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته، وما يبطنه من الإلحاد، ويرومه في الإسلام من الفساد، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح، فطلبه الوزير المهلبي، فاستتر منه، ومات في الاستتار، وأراح الله, ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية... وقال أبو الفرج بن الجوزي: زنادقة الإسلام

ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وأشدهم على الإسلام أبو حيان، لأنهما صرحا وهو يُحجم ولم يصرح...."
انتهى...سير أعلام النبلاء(ج17ص119)

2-أما ابن حجر فيقول:" بقي إلى حدود الأربع مائة ببلاد فارس وكان صاحب زندقة وانحلال، قال جعفر بن يحيى الحكاك قال لي أبو نصر السجزي إنه سمع أبا سعد الماليني يقول: قرأت الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر وعمر مع أبي عبيدة إلى علي على أبي حيان فقال: هذه الرسالة عملتها رداً على الروافض؛ وسببها أنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء -يعني بن العميد- فكانوا يغلون في حال علي فعملت هذه الرسالة؛ قلت: فقد اعترف بالوضع" انتهى...لسان الميزان(ج9ص55)

بينما كان لتقي الدين السُبكي وياقوت الحموي رأي آخر:

1-يقول السبكي:" شيخ الصوفية وصاحب كتاب البصائر وغيره من المصنفات في علم التصوف... وقد ذكره ابن خلكان في آخر ترجمة أبي الفصل ابن العميد فقال: كان فاضلاً مصنفاً... وقد ذكر ابن النجار أبا حيان وقال: له المصنفات الحسنة كالبصائر وغيرها، وكان فقيراً صابراً متديناً إلى أن قال: وكان صحيح العقيدة قال الذهبي: كذا قال، بل كان عدواً لله خبيثا, وهذه مبالغة عظيمة من الذهبي" انتهى....طبقات الشافعية(ج1ص59)

2-ويقول الحموي:" أبو حيان التوحيدي... صوفي السمت والهيئة، وكان يتأله والناس على ثقة من دينه... شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام, ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان، سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شانه، والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً محارفاً يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه" انتهى...معجم الأدباء(ج2ص142)

قلت: وهكذا أنكر الإمام تقي الدين السبكي مقالة ووصف الذهبي عليه وصنع خلافاً حول الرجل، وأنصفه بقدر يكفي مبلغ ما وصل إليه.."كان صحيح العقيدة"..ورغم أنها منقولة عن ابن النجار إلا أن نقله لها-أي السبكي- كان في سياق التأكيد والتبني بقرينة استنكاره لتوصيف الذهبي....وأستغرب تباين الآراء فيه حتى وصلت من "ملحد صاحب زندقة" إلى "فاضلاً صحيح العقيدة"...في ثبوت لوجاهة رأي من قال أن "الاختلاف يولد التدافع".. وما خلاف هؤلاء إلا حماية وحصانة من جور المجتمع الشامل وتغول.... كي يظل الرأي الآخر حياً إلى أن يشاء الله بإظهاره وتمكينه في إطار مداولة ربانية يخبرها كل بصير ويعيها كل راشد.

وختاماً لعرض مذاهب القوم في أبي حيان نعرض رأي الفئة الثالثة التي ترجمت له دون جرح أو تعديل فمنهم الألوسي في "جلاء العينين" و كرنيليوس فانديك في "اكتفاء القنوع بما هو مطبوع"والصفدي في "الوافي

بالوفيات"..والأخير جمع له مواقف وأقوال تحمل في مضمونها الموافقة والاستشهاد ، وقد أنصفه بجمع مذاهب القوم فيه من الذهبي إلى الحموي...وحقيقةً أنا لم أقوم ببحث كامل وشامل كي أعلم كافة الأقوال التي قيلت في الرجل وإلا لصارت كتاباً يُدرس... ولكن ما أوردناه يكفي –كإشارة-إلى أن خلاف البشر في التصنيف والحُكم مرده إلى الاعتقاد والنوازع، والبُعد عن التشخيص هو أزكي وأكثر رشدا، حيث وبنقل الفكرة تتغذى ضمائر الناس ولكن بتشخيصها تتأذى ضمائرهم ولا يأخذون إلى عن ميلٍ وهوى مما يعزز ذلك من واقع الفُرقة والتشتيت.

على جانبً آخر فقد خصصت الدكتورة آمنة نصير –أستاذة العقيدة والفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر- في مقالها الذي نشرته إحدى الصُحف جانباً مضيئاً لأبي حيان وكأنه تحدي لمنتقديه.

تقول الدكتورة آمنة نصير:

"كان أبو حيان جاحظي الأسلوب في طريقته الكتابية؛ حيث أولى المعنى غاية اهتمامه، فهجر السجع وغيره من المحسنات البديعية، ومال إلى الإطناب والتعليل والتقسيم، كما مال إلى أسلوب الكتابة الساخرة.

وتؤكد د. آمنة أن أبا حيان يعد أحد الشخصيات المثيرة للجدل حتى الآن، فما زال الناس فيه بين مادح وقادح، وتباين تلك المواقف يعود في جانب منه إلى طبيعة الرجل الشخصية والتي أثارت عليه حنق الكثيرين، كما يعود في جانب آخر إلى ما نسب إليه أو تبناه من آراء ومواقف.

وتوضح د. آمنة أن الإحباطات الدائمة، والإخفاقات المتواصلة التي صادفها أبو حيان التوحيدي على مدى حياته الطويلة انتهت به إلى غاية اليأس، فأحرق كتبه بعد أن تجاوز التسعين من العمر، وذلك بعد أن رأى أن كتبه لم تنفعه وضن بها على من لا يعرف قدرها،، فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق، وقبل ذلك فّر من مواجهة ظروفه الصعبة إلى أحضان التصوف عساه يجد هنالك بعض العزاء فينعم بالسكينة والهدوء، ولعل السر في ما لاقاه أبو حيان في حياته من عناء وإهمال وفشل يعود إلى طباعه وسماته حيث كان مع ذكائه وعلمه وفصاحته واسع الطموح، شديد الاعتداد بالنفس، سوداوي المزاج إلى غير ذلك من صفات وضعت في طريقه المتاعب وحالت دون وصوله إلى ما يريد"..انتهى

أعتقد أنه وبعد سرد مقال الأئمة-بإيجاز -يتبين لنا أننا أمام خطين اثنين في التفسير والرؤية -بما فيها الرؤية التاريخية.. وليست فقط قاصرة على الجرح والتعديل ونبش السير..خطاً يقوده الإمامين الذهبي وابن حجر وفيه تعضيد لرؤية الأسلاف والطلاب ومنه خرجت أغلب الآراء التي تُدرّس إلى عصرنا هذا، وأكثر ما يعيب هذا الخط هو النقل والحفظ دون دراسة وتمحيص حتى تكيفت عقول "مناضليه" على التناقض كضريبة للتلقي وكبت السؤال،وخطاً آخر يقوم على الرأي والعقلانية وهؤلاء لهم مدارس شتى بين الفلسفة والكلام والتصوف والزهد ومنهم من وافق الخط الأول في جزئية الرواية ولكن ظلوا على منهجهم السامي في الفهم... وأكثرهم لهم خط عرفاني وعقلاني جعل من النص وسيلة للفهم ولم يكتفي بتقييد فهمه على النص...هذا ما يحدث في بلاد المسلمين

إلى اليوم من تصارع"علمي " لفريقين أحدهما روائي والآخر روائي عقلاني، وكأنه تقنين لمقولة الإمام مالك للخليفة المنصور حين أراد حمل الناس على موطأه فرفض بذريعة اختلاف الناس إلى فريقين "رأي ورواية" وهما نفس الفريقين إلى يومنا هذا ولكن تتبدل الأزمان ويبقى الفعل والأثر.

أعتقد أيضاً أن مثال أبو حيان التوحيدي هو مثال حي للمشاهد التي نراها اليوم بالخلاف حول بعض من ظنوا أنهم مجددين كالشيخ "حسن بن فرحان" المالكي ذلك الشيخ السعودي الذي يلاقي الويلات والتهجم والإقصاء نتيجة لآرائه والثاني هو الشيخ "عدنان ابراهيم" ذلك الثائر المجتهد الذي صنع حراكاً علمياً جابت مسامعه أرجاء المعمورة، وأعتقد أن شهرة الشيخين المالكي وعدنان وإمكانية تبني آرائهم -ومن وافقهم- رسمياً تتوقف على طبيعة الحالة السياسية، فكثيراً منا يجهل طبيعة هذه الحالة بل أكثرهم لا يعدونها كمؤثر على الجرح والتعديل ، وهذه رؤية قاصرة ومقصّرة في ذات الوقت، إذ الثابت أن السياسة -وكما تشهد الأحداث التاريخية- كانت هي عامل الحسم في الحكم على بعض الفقهاء والعلماء حتى وصل بالحاكم حينها لاستحلال دماء العلماء باسم الدين.

ومهما يحدث في الخلاف حول الأشخاص فنحن أمام نصوص روائية أغلب ناقليها لم يتبينوا من صحتها، وإيمانهم بها لا يعدو كونه إيمان الواثق في شخص فلان وعلان رغم أن هذا لا يكفي لنسبية الثقة بين البشر.. في النهاية سنقف أمام نصوص ميتة لا حياة لأصحابها، فلو كان عدناناً يعيش في القرن الرابع الهجري-كما أبي حيان- لسمعنا أقوالاً عن

الرجل تفوق ذم أبي حيان والجاحظ وغيرهم ، رغم أن الرجل كما يبدو أنه صحيح العقيدة وسني أصيل ومجاهد كبير في حقول العلم المختلفة من الفقه إلى الحديث إلى علوم اللغة "كالنحو والبلاغة والصرف" إلى الفلسفة إلى المنطق إلى سائر العلوم الطبيعية التي يعلم عنها ويلقنها لتلاميذه..فقط نحن بحاجة لخيال راشد لنفهم مسلك السلف وخلفهم في فهم وتأويل النصوص، والأعظم من ذلك أن نفهم معنى الحرية، فلا علم دون حرية ولا حرية دون فهم، وكأن الرابط الذي يصل بين العلم والفهم هو الحرية، فلنترك الناس لربهم هم أحرار لما يعتقدون ويكن منهاجنا هو التربية والتثقيف.

رسالة في ابن تيمية

إن ابن تيمية و أكثر شيوخ المسلمين كذباً في التاريخ، هذا ما تقوله ادعاءاته المرسلة ومزاعمه في أشهر كتبه وهو .."مجموع الفتاوى"..، فقد حوى هذا الكتاب مئات الادعاءات الكاذبة بإجماع المسلمين والعلماء والسلف..!..رغم أن هناك علماء آخرين كابن حزم الأندلسي نفى وجود ما يسمى بالإجماع أصلاً..أو إمكانية تحققه في أي عصر ، كذلك وابن دقيق العيد قال بصعوبة تحقق هذا الإجماع بقوله.."ودعوى الإجماع هي عسيرة الثبوت"..ومشهور عن ابن حنبل قوله.."من ادعى الإجماع فهو كاذب"..ورغم هذا فيُطل علينا ابن تيمية بمئات الادعاءات الكاذبة بالإجماع دون استبيان أو تحري الصدق فيما يقوله عن الآخرين..

هذه إحصائية بكذب ابن تيمية وافترائه على المسلمين في كتاب واحد فقط وهو كتاب.."مجموع الفتاوى"..لاحظوا جُرأته في نسب الأقوال للناس....وفيها ذكر الإجماع 26 مرة ولكن بألفاظ وأشكال مختلفة مئات المرات في سابقة لم تحدث في تاريخ المسلمين..

الإحصائية متسلسلة من الأعلى للأسفل

1- قال كلمة.."باتفاق المسلمين"..(303) مرة.

2- وكلمة.."باتفاق العلماء"..(195) مرة.

3- وكلمة.."بإجماع المسلمين"..(102) مرة.

4- وكلمة.."اتفق المسلمون"..(61) مرة.

5- وكلمة.."اتفق العلماء"..(51) مرة.

6- وكلمة.."أجمع المسلمون"..(38) مرة.

7- وكلمة.."اتفق الصحابة"..(14) مرة.

8- وكلمة.."باتفاق الفقهاء"..(13) مرة.

9- وكلمة.."اتفق السلف"..(11) مرة.

10- وكلمة.."اتفق الفقهاء"..(10) مرات.

11- وكلمة..."اتفق أهل السنة"..(7) مرات.

12- وكلمة.."باتفاق الصحابة"..(6) مرات.

13- وكلمة.."أجمع أهل العلم"..(6) مرات.

14- وكلمة.."بإجماع العلماء"..(5) مرات.

15- وكلمة.."بإجماع السلف"..(4) مرات.

16- وكلمة.."أجمع العلماء"..(4) مرات.

17- وكلمة.."باتفاق السلف"..(3) مرات.

18- وكلمة.."باتفاق أهل السنة"..(3) مرات.

19- وكلمة.."باتفاق أهل الإيمان"..(3) مرات.

20- وكلمة.."أجمع الفقهاء"..(مرتين).

21- وكلمة.."إجماع الفقهاء"..(مرتين).

22- وكلمة.."أجمع السلف"..(مرة واحدة).

23- وكلمة.."أجمع أهل السنة"..(مرة واحدة).

24- وكلمة.."أجمع الصحابة"..(مرة واحدة).

25- وكلمة.."بإجماع الصحابة"..(مرة واحدة).

26- وكلمة.."فلا خلاف بين الأمة"..(مرة واحدة).

وهكذا فالرجل يكذب دون استحياء ويفتري على العلماء والناس بأنهم أجمعوا واتفقوا ، رغم أن الإجماع ممتنع حتى بين أهل البيت الواحد، فما بالنا بمذاهب وأديان كاملة كل جهة لها طريقتها وفهمها للعبادة..الملاحظ أن تلاميذه من الإخوان والسلفيين وسائر جماعات التكفير يستخدمون نفس اللغة، ويقولون أجمع العلماء والفقهاء نزولاً لطريقة شيخهم في البحث والإفتاء، لذلك عندما نزعم أن هؤلاء يكذبون على الله والرسول فنحن نعلم ما نقول، وأنهم مجموعات من الجهلة والمقلدين باعوا بإثم شيخهم وصنمهم المقدس.

حقيقة لم أكن أتوقع ردود الأفعال على نشر هذه الإحصائية على شبكة المعلومات ، فقد تصورت أن ردود الأفعال ستكون في المستوى الطبيعي، إلا أنني فوجئت بأن بعض ردود الأفعال كانت على طرفي نقيض، فمنهم من كان يُسرف في الرفض وإطلاق أحكام الكُفر والزندقة، رغم أن الإحصائية كانت من كُتب ابن تيمية!..ومنهم من كان يُسرف في القبول ومدح الإحصائية ، وأخيراً مجموعات أغلبية تقبلت الإحصائية بارتياح، وتعني أنه ربما ساهمت تلك الإحصائية في تفسير بعض من غموض وتناقضات الرجل، وبعضاً من أحكامه المتهورة في إطلاق فتاوى التكفير والقتل.

تلك الأحكام التي سنعرض جزءاً منها في هذه الدراسة، آملين أن يتوسع الباحثين في النظر لمنهج الرجل بعين النقد، بعدما ظهر أنه المرجعية الأولى للإرهاب والجريمة باسم الدين، وبعدما شاع أتباعه من السلفية أنه عالِم لا يُشق له غبار، حتى رأيت بعض العوام يذكرونه بشيخ الإسلام،ومستمر إلى وقتنا هذا دون أن يفطن الأغلبية للحقيقة التي ستؤلمه شخصياً، أنه وبفتاوى وأحكام ابن تيمية دمه أصبح مهدوراً حتى لو كان من أتباعه، كيف ذلك؟.. هذا ما سنراه في السطور القادمة بعرض أحكام وفتاوى الرجل في حق المخالفين .

هذه الأحكام تُثبت أن فقه ابن تيمية كان من أكثر صنوف الفقه جريمة في الإسلام، حيث لم يتورع الرجل في هدر دماء الناس، ولم يكن يخشى عواقب تكفيره للمسلمين وهدر دمائهم لأتفه الأسباب ، سنعرض ثمان نماذج على هذا التهور الفقهي لابن تيمية، وبعدها إحصائية من

كتابة.."مجموع الفتاوى"..ترصد أحكامه الإجرامية في تكفير وهدر الدماء بتوسع..

النموج الأول..(تكفير وقتل من يجهر بالنية)

" الحمد لله الجهر بلفظ النية ليس مشروعا عند أحد من علماء المسلمين ولا فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فعله أحد من خلفائه وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها ومن ادعى أن ذلك دين الله وأنه واجب فإنه يجب تعريفه الشريعة واستتابته من هذا القول فإن أصر على ذلك قتل "..مجموع الفتاوى(ج5 صـــ153)

النموذج الثاني..(تكفير وقتل من يأكل الحيات والعقارب)

"الحمد لله أكل الخبائث وأكل الحيات والعقارب حرام بإجماع المسلمين . فمن أكلها مستحلا لذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل "..مجموع الفتاوى..(3/ 51)

النموذج الثالث..(تكفير وقتل تارك صلاة الجماعة والجمعة)

"فإن التعبد بترك الجمعة والجماعة بحيث يرى أن تركهما أفضل من شهودهما مطلقا كفر يجب أن يستتاب صاحبه منه فإن تاب وإلا قتل"..مجموع الفتاوى..(3/ 52)

النموذج الرابع..(تكفير وقتل من يخالفه في فهم الشرع)

"فأما الشرع المنزل : فهو ما ثبت عن الرسول من الكتاب والسنة وهذا الشرع يجب على الأولين والآخرين اتباعه وأفضل أولياء الله أكملهم اتباعا له ومن لم يلتزم هذا الشرع أو طعن فيه أو جوز لأحد الخروج عنه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل"...مجموع الفتاوى..(3/ 33)

النموذج الخامس..(تكفير وقتل من يقول أن القرآن مخلوق)

"اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال : القرآن مخلوق وأنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل"..مجموع الفتاوى..(3/ 128)

النموذج السادس..(تكفير وقتل من يتأخر عن الصلاة)

"ولا للمستأجر أن يمنع الأجير من الصلاة في وقتها . ومن أخرها لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته ، بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب "..مجموع الفتاوى..(5/ 80)

النموذج السابع..(تكفير وقتل من يُحرّم الأجر نظير العلم لو كان غنياً)

" وهل يجوز الارتزاق مع الغنى ؟ على قولين للعلماء . فلم يقل أحد من المسلمين أن عمل هذه الأعمال بغير أجر لا يجوز . ومن قال : إن ذلك لا يجوز ؛ فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل "..مجموع الفتاوى..(5/ 80)

النموذج الثامن..(تكفير وقتل من يقول بقتال الصحابة)

" وأما من قال : إن أحدا من الصحابة أهل الصفة أو غيرهم أو التابعين أو تابعي التابعين قاتل مع الكفار أو قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم أو أصحابه أو أنهم كانوا يستحلون ذلك أو أنه يجوز ذلك . فهذا ضال غاو ؛ بل كافر يجب أن يستتاب من ذلك فإن تاب وإلا قتل"..مجموع الفتاوى..(2/ 448)

إلى هنا نقف عن طرح المزيد من تلك النماذج الموجودة لديه بالعشرات، ونحيل القارئ إلى تلك الفتاوى الإجرامية في مصدرها.."كتاب مجموع الفتاوى"..الذي في حقيقته هو مجموع الجرائم التيمية في حق البشر.

لقد خُدِعت في ابن تيمية..وموقفي منه جاء متأخراً وبالتحديد منذ خروجي من جماعة الإخوان، كنت قبل ذلك أقول أن ابن تيمية له وعليه وأنه عالِم لا يُشق له غبار، هكذا كانوا يدرسون لنا مذهب الرجل في السياسة والإفتاء، ولكن بعد الخروج صدق حدسي بأن النظر من خارج الصندوق يكشف مالم تراه العين من قبل، فقررت الإطلاع "الكامل"على آراء مخالفي ابن تيمية ، والبحث في منهجه بموضوعية ولم أجد أفضل من فتاويه وأحكامه النهائية، فهي علامة على منهج الرجل..وبعد الإطلاع

رأيت ضرورة عرض هذا الرأي على السلفيين والإخوان فما رأيت لهم حُجة، بل مجرد تبريرات وإنكار، وأن أحكام ابن تيمية في شأن الفرق والمخالفين هي شديدة التطرف، وقد أعلن شيوخ التفجير والتكفير من القاعدة عن إقتدائهم بالرجل، وأنه شيخ الإسلام ووووووو...إلخ من تلك التوصيفات التبجيلية والتقديسية.

ومن لا يزال يُنكر أن ابن تيمية هو الأب الروحي للإرهابيين فليقرأ مؤلفات شيوخهم من رموز الجهاد والتكفير في العالَم كأبو بصير الطرطوسي وجهيمان العتيبي وعبدالله الرشود وعبدالله عزام ...وغيرهم من شيوخ القاعدة والجهاد، بل يقرأ مؤلفات سيد قطب وهو من هو في عالم التكفير وتجهيل المجتمعات..بل هناك عباللطيف موسى مؤسس جماعة بيت المقدس الإرهابية في سيناء ورفح، ومن فرط حبه وعشقه لابن تيمية أطلق على مسجده في رفح اسم.."جامع ابن تيمية"..تأثراً بشيخه ورمزه.

لك أن تعلم أن ابن تيمية ذكر كلمات تكفيرية وتحريضية توازي اجتهادات شيوخ المسلمين منذ عصر الصحابة إلى عصرنا هذا ..ذكرها في كتاب واحد فقط وهو كتاب.."مجموع الفتاوى "..وهو ما جعل تلك الآراء والأحكام متوافقة مع ضمائر وطبائع الإرهابيين حول العالم.

1-فقد ذكر في هذا الكتاب كلمة.."فإن تاب وإلا قتل".. (75) مرة.

2- وكلمة.."فهو كافر".. (111) مرة.

3-وكلمة .." يجب قتله".. (13) مرة

4- وكلمة.."وجب قتله".. (9) مرات

5- وكلمة.."فإن أصر على ذلك قتل".. (مرة واحدة).

6-وكلمة.."قتل باتفاق الفقهاء"..(مرة واحدة).

7-وكلمة.."جاز قتله".. (مرتين).

8-وكلمة.."فهو مرتد"..(5)مرات.

9- وكلمة.."فإن تابوا وإلا قتلوا"..(3) مرات.

10-وكلمة.."كافر مباح الدم"..(مرتين).

11- وكلمة.."فهو زنديق"..(4) مرات.

وهكذا أحكام الرجل ما بين التكفير والقتل والردة والزندقة والاستتابة وإباحة الدماء، كل هذا في كتاب واحد فقط ..يعتبر مرجعاً للجماعات السلفية والإخوانية بالعموم، وأستغرب موقف هذه الجماعات وتقبلها لفتاوى ابن تيمية الإجرامية، رغم أن شيوخ عصره أكثرهم كانوا على

تكفيره والحُكم عليه بالبدعة، حتى ابن خلدون لم يذكره في المقدمة مطلقاً، وبعد عرضه لفصل راح يعدد فيه كبار العلماء لم يذكره، رغم أن ابن خلدون جاء بعد ابن تيمية بعشرات الأعوام، ولكن حكى له مواقف مع التتار في تاريخه المعروف.."بتاريخ ابن خلدون"..وهذا يدل على عدم اهتمام ابن خلدون به، رغم أن ابن خلدون زار سوريا-معقل ابن تيمية- إبان اجتياح التتار وقائدهم تيمور لنك لبلاد الشام.

معلومة : يزعم البعض أن ابن خلدون لم يكن يعرف ابن تيمية لذلك لم يذكره ضمن مصاف العلماء، والجواب كيف ذلك وقد ذكره في تاريخه دون أن يعده الكبار؟!..ابن خلدون ولد في تونس ، وبعدها هاجر إلى المغرب ثم إلى الأندلس ثم إلى الجزائر ثم مصر ثم إلى سوريا والعودة مرة أخرى..أي أن الرجل كان رحالة، و ظهر ذلك من نبوغه في بعض الأفكار، فكيف يجهل ابن تيمية وهو بهذا التوسع في المعارف، فالأصل أن التواصل معرفة ، وابن خلدون كان متواصلاً وكان يعرف ابن تيمية.. ورغم ذلك لم يعده من كبار العلماء.

وعليه ففي تقديري أن منذ عصر ابن تيمية في القرن السابع الهجري حتى زمن ابن عبدالوهاب في القرن الثاني عشر الهجري-أي مسافة زمنية تُقدر ب 500 عام- كان أغلب شيوخ المسلمين يحكمون على ابن تيمية بالكفر والبدعة والشذوذ ، ولولا إحياء الوهابية لتراثه لأصبح ابن تيمية وكتبه في حكم النسيان، وطبيعي أن تتفق آرائه مع مواقف بدو الصحراء وغلظتهم وفجاجتهم مع المخالفين، كونها تُعالِج لديهم موقفهم

من الآخر بالعموم، وإعلاء نزعاتهم الأيدلوجية على حساب العدل والمساواة.

نعم لقد كانت .."بعض"..أسباب تكفيره غير مقنعة وأنها نتيجة للتخلف الفقهي والعقلي الذي شاب فقهاء المسلمين ، إلا أنه لم يعتد بأفكاره أغلبهم من المصلحين والعقلانيين حتى وقتنا هذا، وقد ساعد على انتشار اسمه وفكره.. هو قيام البعض بإعادة إحياء مذهبه في الجزيرة العربية على أيدي الدعوة السلفية الوهّابية، وهي التي اتخذت من المذهب الحنبلي مرجعية فقهية بل وسياسية جامعة، على اعتبار أن المذهب الحنبلي لم يكن مجرد مذهب فقهي عند البعض بل هو –لديهم-توجه سياسي وديني متكامل.

فقاموا بنسخ وطباعة كتبه ونشرها في مواسم الحج، وساعدهم في ذلك أموال البترول التي لولاها ما كانت للسلفية قدرة على الانتشار، كذلك فابن تيمية هو من أكثر شيوخ المسلمين جمعاً للتناقض ، فالرجل في كثير من فتاويه يجمع الشئ ونقيضه، مثال حُكمه بالكفر على مخالف الإجماع، ورغم ذلك عارض علماء عصره وسلفه في كثيرِ من المسائل.

حقيقة كُتبه طافحة بأشياء غريبة ولهجة متعصبة وأحكام تقريرية دون عرضها للسؤال، وهو ما جعل البعض يشك في نَسَب بعض كُتبه إليه، فقالوا أن العديد من كُتبه منحول وهو براء منه، وفي تقديري أن هذا القول صحيح ، فالكُتب المنشورة لابن تيمية كثيرة إلى حد القول أنه تفرغ طوال عمره للكتابة!..وأن يحدث ذلك صعب جداً ، فالإنسان لا يكتب

سوى بحالة عقلية ومزاجية هادئة، وهذه الحالة لا تتوفر في بعض الأحيان، كذلك في القراءة ..لأن الكاتب بالأساس هو قارئ ومستمع جيد في نفس الوقت، فكيف أتى ابن تيمية بهذه الكتب جميعها دون أن يقرأ أو يستمع لأحد؟!..بل كيف كان هادئاً وعاقلاً طوال عمره؟!

إن ابن تيمية هو من وضع الأساس لفقه الجريمة في الإسلام، ثم ناقش فروعه بتوسع وأصّل لهذه المسائل بفتاوى ومناظرات عقلية وشرعية، حتى باتت دعواته محل قبول لذوي الرغبات والنزعات، وهذا ضلال وانحراف، لأن الأصل هو فقه التعايش والسلام والقبول لا الحرب والاعتداء، فالله لم يأمر المسلمين بالاعتداء في القرآن، وفي ذلك مبحث شرعي طويل أحيله إلى مكانه، ريثما نبحث فيه مستقبلاً، نعم يوجد من سبقوه في الدعوة للاعتداء والتكفير والقتل، ولكن في تقديري لم يكن لهم منهج وضابط مثل ابن تيمية الذي توسع في هذه الأشياء، ومشهور مواقفه التكفيرية ودعوات القتل الصُراح لمعتنقي المذاهب الأخرى خاصةً الشيعة الإمامية والعلوية، فقد أفتى الرجل بكل غرابة وعنجهية بجواز تكفير وقتال العلويين"النصيرية وقال فيهم:

"هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم ..أكفر من اليهود والنصارى ؛ بل وأكفر من كثير من المشركين وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم "

"ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات "

"هؤلاء يجب قتالهم ما داموا ممتنعين حتى يلتزموا شرائع الإسلام.. وهم مرتدون من أسوأ الناس ردة : تقتل مقاتلتهم وتغنم أموالهم . وسبي الذرية فيه نزاع ؛ لكن أكثر العلماء على أنه تسبى الصغار من أولاد المرتدين"..مجموع الفتاوى

رغم أن الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه.."إسلام بلا مذاهب"..نفى فيه هذه الأكاذيب والافتراءات على العلويين،وقال أن تعبير"النصيرية"هو يُغضبهم ويحبون بدلاً منه "العلويون" ، وقال أن العلويين لهم مواقف ضد الاستعمار ، وأن تعميم صفة الكفر فيهم غير صحيح وسلوك غير قويم،لأن في كل طائفة عقلاء ومنحرفين، وهناك عقلاء في العلوية يرفضون شطحات البعض منهم، ونقل عن بعض علمائهم .."كعبدالرحمن الخير وأحمد حيدر، ومحمود الصالح..وغيرهم"..أقوال تعضد هذا الكلام...

لكن في المجمل هذه الفتاوى المنحرفة لابن تيمية تظهر بشكل وظيفي، أي أنها تظهر عندما يجري توظيف أي صراع سياسي بين الفرق والمذاهب، مثال ما يحدث في سوريا، فالشحن الجهادي كان يركز على هذه النقطة، وهي شحن هؤلاء الهَمَج تحت عنوان.."قتال النصيرية"..رغم أن الحكومة السورية وجيشها الوطني أغلبها سنية، ودار إفتائها سنية ، ولكن حينما يُشحن هؤلاء القطيع هم يُشحنون تحت عناوين طائفية دينية ،

ويُصبح المرء أسير ومقود مثل البهائم، وهذا هو الهدف من تلك الفتاوى الإجرامية والمنحرفة لابن تيمية في حق البشر بل في حق المسلمين..

أخيراً كي أغلق هذه النقطة أختمها بفتوى لابن تيمية في حق الطائفة الدرزية، هي غاية في الغرابة والتهور والإجرام، فقد أفتى الرجل بقتل كل من ينتسب إليها حتى علمائهم وصُلحائهم إذ قال..." لا يباح أكل طعامهم وتسبى نساؤهم وتؤخذ أموالهم . فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم ؛ بل يقتلون أينما ثقفوا ؛ ويلعنون كما وصفوا ؛ ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ . ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم ؛ ويحرم النوم معهم في بيوتهم"..مجموع الفتاوى(9/ 222)..هكذا فالرجل تبدو بلطجيته وتعديه على الحرمات وأهمها حُرمة النفس ، وليس بعدها حُرمة، ولكن نخرج من هذه الجرائم لابن تيمية بأن للرجل موقف خطير من المخالفين، أصبح هذا الموقف هو عنوان كل من يقتل باسم الدين، وكما سبق فالرجل مرجعية لدى كافة جماعات الإرهاب.

سيقول قائل أن الذي يأمر بالقتل وينفذه هم القضاء والحكومة لا عموم الأفراد، وأن هذه الفتاوى هي مجرد حلول استثنائية بعد العجز عن دفع الضرر عن المسلمين ودينهم، وبالتالي فابن تيمية برئ من تهمة القتل، وهذا تبرير غريب، فالفتوى هي أمر وقرار قضائي واجب النفاذ، وعلى الجهات المعنية تطبيق القرار، لا يمكن لابن تيمية أن يقتل جميع المخالفين، ولكنه أعطى تصريحاً بقتلهم، فلا يُقال أنه برئ من دماء الناس هكذا بمنتهى السطحية..!

بدلاً من مراجعته في تلك الفتاوى الخطيرة وإعادة النظر في ما قاله -من هدر دماء البشر- يأتون ليُحلوا له ما أفتى من جرائم في محاولة كي يدفعون عنه تهم المسئولية.....!..وما هو القرار الاستثنائي الذي يقضي بقتل أكثر من 100حالة بمجرد المخالفة الفقهية؟!..وكيف سيحمي المجتمع من تبعات هذا القتل على الأفراد والعائلات، أم أنه وضع الفتوى والحُكم وبانتظار سفيه أسفه منه كي يقضي بقطع الرقاب ولعب كرة القدم بها كما فعل تلاميذه من الدواعش في سوريا..!

سيدعي الحمقى أن الرجل كان يستدل بالكتاب والسنة في التكفير وإباحة الدماء، وهذا خطل واستهبال، أولاً: لأن ابن تيمية نفسه يعترف بأن نشأة المذاهب كانت متأخرة عن دعوة الرسول، أي الأصل في الإسلام أن الأمة واحدة ثم تفرقت بعد ذلك لعوامل الفكر والبيئة والسياسة، فصارت المذاهب والفرق أديانا، وأصبح من الصعب التفريق بينهم، وقد اشتهر عن الإمام محمد عبده أنه قال.." عُرِف من قواعد الأحكام، أنه إذا صدر قولٌ مِن قائلٍ يحتمل الكفرَ من مئة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمِل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر" (الأعمال الكاملة د.محمد عمارة)..فلما كان يتوسع ابن تيمية في التكفير هذا دون ضابط أو رابط إلا أن نفسه سولت له هذه الجريمة..

ثانياً: أنه لا يوجد دين على وجه الأرض يقضي بإباحة الدماء، وأن مُحكم القرآن يقضي بأنه لا قتل إلا في أحوال الدفاع عن النفس وردع الأعداء في المعارك، سوى ذلك فالسلام والتعايش ولكم دينكم ولي دين، وأن

الدعوة هي بالحكمة والموعظة الحسنة، ومئات الآيات التي تحض على حُسن المعاملة والأخلاق وزرع ثقافة الحوار، وأحيل القارئ إلة دراسة مميزة بعنوان.."منهج الحوار في القرآن الكريم"..للكاتب عبدالرحمن حللي قرأتها منذ عامين، ولكنها أحدثت أثراً في نفسي كشفت أن رواد الإرهاب والتكفير والإقصاء بالجملة ليسوا على الإسلام الصحيح، وأنا ما جاءوا به هو من عند أنفسهم.

أخيراً: فجامعات الأزهر الشريف والزيتونة وكافة الجامعات العلمية ،مطالبة بكشف حقيقة ابن تيمية للناس، لئلا ينخدع به البسطاء والسفهاء، ربما ينخدعوا بشخص آخر هو أقل من ابن تيمية حماقةً وجريمة، وتصديقاً للمثل القائل.."قضاء أخف من قضاء"..بعدما وصل الحال بنا إلى أن نهتف لشيوخ الجهل والفتنة ، بعدما وصل هذا التيار الإرهابي وتلاميذ ابن تيمية للحُكم في بعض البلدان، وهم في ذواتهم يحتكرون الحقيقة لأنفسهم، ويسعون لتكوين سلطة سياسية بمقتضى هذا الاعتقاد فينتشر الفساد في البر والبحر، وتنعدم التنمية ويهلك الإنسان بانشغاله في الصراع وأشكاله ، ونسيان ما جعله خليفة الله في أرضه، أن الأرض جعلها الله للإنسان كي يعمرها ويبسط فيها الأمن والعدل.

رسالة في التطرف

من أخطر السلوكيات على المؤمن أن يقع بسلوكه تحت طائلة قوله تعالى..(إن الذين يحادون الله ورسوله كُبِتوا كما كُبِت الذين من قبلهم)..والمُحادّة هنا تعني الخصومة والممانعة لله ولرسوله، وقد يُخاصم

الإنسان ربه من حيث لا يدري فيقع في الشر والإثم جزاءً بما كسب من الفِعل الأثيم والإجرام الفاضح...الكبت تعددت معانيه لدى المفسرين، منهم من قال أنه الغيظ والكمد، ومنهم من قال الذُلّ، ومعنى الآية أن الله سيُعاقب الذين يُمانعون ويخاصمون الله ورسوله بالذلّ والغيظ...

ولكن يبقى السؤال:

كيف نعلم أننا ممن يحادون الله ورسوله أم لا؟

مفهوم المحادة في معناه الأصيل يعني..(المخالفة)..والمخالفة عند المفسر الكبير الإمام الطبري تعني..(التبديل والتحويل في أحكام الله)..فيفرضون على أنفسهم –والناس- حدوداً غير حدود الله، وأحكاماً ما أنزل الله بها من سُلطان، رغم أن هذه الأحكام قد تؤذي البشر، ولكن تمسكهم بها "دليل محادة" فيكون العقاب هو أن يكمدوا ويكثر غيظهم ويُذلّون في الأرض.

سيدخل ضمن نطاق المحادين لله من فرض على الناس أحكاماً وفتاوى قاطعة جازمة في أمور وشئون تحتمل الخِلاف، ولكن بتشددهم وتنطعهم يُحادون الله فتخرج أفعالهم على صور شتى تحمل الأذى والظلم لأنفسهم وللناس..

في هذا الزمان أرى أن المُحادة قد انتشرت وفَشت بين الناس، خاصةً أولئك الذين يفرضون آرائهم على الآخرين بالقوة والعُنف، وسماتهم أنهم لا يقبلون الحوار ولا أن يُقدموا على التحقق من صحة آرائهم بالسؤال،

فالسؤال –لديهم-يعني الشك في الدين، وهم ممن لا يشكون لذلك فهم ممن لا يسألون، وإذا سألوا سألوا شيخهم ومُفتيهم، فهم على مذهبه حتى لو دخل نار جهنم سيدخلوه!

الدين ليس هكذا..بل هناك قواطع وجوازم وقِيَم ومُشتركات عامة إنسانية إذا تحققت في النفس ظهرت صورة الإنسان صورة دينية ربّانية سَمِحة..فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يقتل ولا يُؤذي ولا يَظلم ..فإذا جاءه الحُكم من "أشياخه" وكان يحمل في مضامينه التعدي على هذه الحدود فينبغي مراجعتها فوراً لئلا يقتل نفساً بغير علمٍ ولا هُدى، ولا أن يكذب دون أن يتبين ويتحقق، ولا أن يسرق دون أن يُراعي حُرمة الناس في أموالهم، ولا أن يؤذي دون أن يرى في هذا الإنسان الحرية، ولا أن يظلم دون يُراعي الحقيقة وأولها حقيقة نفسه وموقفه.

الدين ليس عسير الفهم بل هو يسير ، إذ لو كان عسيراً لكان للناس فُسحة في دينهم بأن يُخطئوا ولا يحاسبهم ربهم على ما فعلوه، ولكن الله عدل وأنذرنا جميعاً بأن المُخطئ سينال عقابه والصادق البرئ سينال ثوابه، ومن هنا يأتي اليُسر، أن الحلال بيّن والحرام بيّن..فالكذب والقتل والظلم حرام ..الكذب هو الآفة التي يستهين بها بعض الناس ..وربما لا يعلمون أنها كانت السمة العامة والملمح الأول لليهود وللكافرين في القرآن-ليس كل اليهود فالخطاب القرآني فيهم ليس عام- وقد خص عباده المؤمنين بالصدق، وأن التحري والتحقيق من صفات المؤمنين..فلماذا إذاً نستحل الكذب وإطلاق الإشاعات في حق المخالفين ونحن نعلم حجم هذه الجريمة

التي جعلها الله الجريمة رقم ..(3)..في القرآن..هل –حينها-سنكون من الصادقين بعد أن خدعنا أنفسنا وتوهمنا بأننا ننصر دين الله بالكذب..؟

أكثر من يحادون الله الآن هم من ..(الكاذبين)..فسائر الحروب الأهلية من ليبيا إلى العراق إلى سوريا إلى لبنان جميعها كانت صناعة حصرية لهؤلاء الكذّابين الأفّاقين، فصدق عليهم قول ربهم أنهم يحادون الله وأنه سيكبتهم ويزرع في قلوبهم الذُلّ والغيظ..ولن نبذل الجهد في التعرف عليهم بعد الآن فبالإمكان أن نراهم في الشاشات وفي مواقعهم وفي الشارع.. أن من صفاتهم ..(الغِلظة -وسُرعة الغضب -والضيق من الآخر- واحتكار الحق –والتقليد والآبائية)..هؤلاء هم أخطر على أنفسهم من أعدائهم، وهم أخطر على الدين من أعدائه، فلو أنفق أعداء الدين حتى يوم القيامة كي يُشوّهوا هذا الدين ما استطاعوا ولكن شاء الله أن يكون هؤلاء الكذّابين هم المشوِّهين للدين، وأن انتصارهم لأنفسهم أغلى -لديهم- من الانتصار لله.

أيها المتطرفون لا يهمنا من أنتم لأننا نُعاملكم كونكم بشراً لكم حقوق وعليكم واجبات..فالحقوق مُقدمة على الواجبات، وبدون الحقوق فلن يكون للواجب معنى، إذا ارتأيتم أن الدين هو حِصانكم لتبلغوا مآربكم فالحق والعقل هو سلاحنا للدفاع عن أنفسنا..لا ننقدكم لذواتكم بل لأعمالكم..واسألوا أنفسكم كم من غيركم –على منهجكم ومذهبكم- لا نقربه بنقدنا..إن الدين عند الله هو العدل فأيما كان العدل فهو دين الله..الإسلام في أذهانكم يختلف بطرائق أفكاركم فانتبهوا..فكل واحدٍ منكم له دين يختلف عن الآخر..لا تفصلوا بين الفكر والسلوك وبين

الدين..فأفكاركم قابلة للنقد وللدحض..ولا تخافوا من النقد فهو شيمة الأنبياء والمُصلحين..فما من نبيٍ بعثه الله إلا وكانت تعتريه نزعة النقد والتمرد على كل واقعٍ سلبي.. وفكرةً لا تصلح إلا لشريعة الغاب ومملكة الحيوان..

إن اليقين لن يأتي إلا من باطن الشك...وإلا فأنتم مُفسدون..فشُكّوا في أنفسكم وأفعالكم ولو لدقيقة..ولا تركنوا إلى اطمئنانكم لأنفسكم ولأعمالكم..فهو الشيطان قد زين لكم ما تكسبون..فالدين كالبئر العميق لن يعلم أغواره إلا من كان له دلواً يهبط به إلى القاع..فلا يكفيَ النَظَر من فوق سطح البئر لنعلم حقيقة وجود الماء..لابد من التجربة، فاليقين هو الماء..والشك هو الدلو الذي تهبطون به إلى اليقين...واعلموا أن الإنسان ينزع إلى الإيمان والعمل الصالح دوماً، فلا تجعلوا أنفسكم أوصياء على الناس لئلا ينقلب هذا العمل إلى حقد وحسد وانتقام..فتكونون ممن حق القول عليهم أنهم يُفسدون في الأرض من حيث أرادوا الإصلاح.

نعلم أن مفهوم التجارة بالدين هو غريبُ عليكم وأن عقولكم لا تستوعب معناه، والحق أنكم تشعرون بأن الاتهام يأتي من مُقصّرين يكرهون "القيود" الدينية، ولو شككتم في أنفسكم قليلاً لوجدتم أن تلك القيود ما أنزل الله بها من سُلطان، وأنها صناعتكم الرديئة، وأن ميلكم إلى القيد والوصاية هو منبع تلك التجارة..قد تكون مشاكلكم مع العقل هي السبب..أو كمن قال من أسلافكم.."من تمنطق فقد تزندق"..وهذا قول بِدعُ يرفضه الدين والعقل سواء...وإلا فاسألوا أنفسكم لو كنتم من السائلين...هل يجوز على الله أن يُشرّع لعباده ديناً يُخالف عقولهم؟!..فإذا

قلتم نعم يجوز فقد كفرتم بعد إيمانكم..لأنكم تعتقدون في معبودكم أنه يتعامل معكم كحيوانات لا تعقل وليس لها إلا الطعام والشراب والنكاح..وإذا قلتم لا يجوز فاهتدوا بعقولكم إلى الله..فإن أرواح الناس وعقولهم لا يُمكن لها إلا أن تتكامل.

كل إنسان منا له طبيعة خاصة يرى بها الحق والعدل وينفر بها عن الباطل والظلم، فهو كائن مُنسجم مع نفسه حتى أنتم..فليس بمجرد انسجامكم مع أنفسكم أنكم على الحق..حتى إرادتكم لا تمتلكونها لأنها خاضعة لتأثير الآخرين..فالشيخ والأستاذ والقائد والإعلام جميعهم سلبوا منكم إرادتكم واستطاعوا تشكيلها حسب رؤاهم وطبائعهم..وإلا فانظروا للرأي الآخر ستجدون شيئاً من الحق يهدم به مزاعم هؤلاء..هم يريدونكم طوعاً لهم بدعوى أن ما ينطقون به هو الحق، لِذا فهم يكرهون التجديد وينظرون للشك في أقوالهم بأنه عين الشك في الدين..ولو أنهم ارتأوا في أعمالكم القلق والمُراجعة وأن طبائعكم وانسجامكم مع أنفسكم يفرض عليكم أن تُعيدوا النظر..وقتها سيُطالبونكم بالتوبة، وبأن ما وصلت إليه عقولكم هو عين الضلال..فإذا جادلتموهم فلن يبقى منهم إليكم إلا الطرد من رحمة الله، ومن شذّ فيشذّ إلى النار ولا يأكل الذئب من الغَنم إلا القاصية!

وقتها سيتبين لكم أن ماضيهم معكم قد غالَبَه السوء والمُنكر من القولِ والعمل..وليس كما توهمتموه في السابق بأنهم قومُ صالحين يدعون إلى الرُشد..وقتها ستعلمون أنهم كانوا يزرعون فيكم العِصمة فيهم وفي أنفسكم..وإن إنكاركم للعِصمة لم يكن إلا قولُ ينقصه العمل..كونوا

أحراراً وخلّصونا وخلّصوا أنفسكم من الخطر الدهيم..فهؤلاء لا يعلمون عن العدل إلا اسمه..وقلوبهم ملئ بالكِبر والحقد والحَسد ..ولتكن هي المفاصلة التي تُعلنون فيها للعالم بأنكم أحرار ولستم عبيد.

أخيراً فإن بيئتنا العربية متنوعة بذاتها ثقافياً ودينياً..وفيها تتحقق سنن الله الكونية في وجوب الخِلاف، ولكن من السُنن أيضاً أن يخرج علينا قومُ لا يهتدون إلا بآرائهم..ويدّعون العصمة فيما لو كان هناك صراع هم أحد أطرافه..فالاعتراف بالذنب حينها هزيمة، وكأن حياتهم بُنيت على الصراع..ومن علاماتهم أن أكثرهم متدينون..ومن هنا يأتي المصدر..الدين..يبقى السؤال هل الدين هو الذي أنتج هذه الصنوف من البشر؟...القارئ لكل الأديان وليس فقط الإسلام سيرى في الأديان السماحة وقبول الآخر كسمة عامة طاغية..ولكن تبقى هناك أوجه تفسيرية تساهم في تكوين فكر متطرف في كل دين..ومن هنا تأتي الحكمة..أن اتباع الهوى النفسي هو الذي يستهدف هذه الوجوه، ويعمل لها ويتغاضى عن سماحة الأديان على غرار اقتلوهم فإن في قتلهم خير..اقتلوهم فإننا نشم في دمائهم رائحة الجنة!

ليس في القتل فقط بل في كافة أنواع المصادرة..سواء للرأي أو للحريات والحقوق وبالتالي ليس من حقك أن تعيش إلا إذا سمحوا لك بأن تعيش..فقد وهب الله لهم مفاتيح الحياة..يهبونها لمن يشاءوا..ويمنعونها عن الجميع.. إلا هم...مُخطئ ثم مُخطئ ثم مُخطئ من اعتقد في أن صراع هؤلاء مع الآخر يقتصر على الطرف الذي يواجهونه..بل هي سلسلة تبدأ من هذا الطرف وتنتهي بآخر مخالف على وجه الكرة

الأرضية..حتى إذا اكتشف الإنسان حياةً أخرى خارج هذا الكوكب فسيظل على صراعٍ تام مع أصحاب تلك الحيوات..إنها صناعة الأعداء لا تكف عن صناعة الوهم حتى تتنفس..ولما لا ومكنوناتهم البشرية لا تتوقف عن الاستغلال سواء للدين أو للعلم أو للمال وحتى للأخلاق..الجميع مُسخّر في أيديهم لتحقيق رغباتهم ومطامعهم.

نزعة الإقصاء تحرق صاحبها..ولكنها لا تستجيب لناصحيها..وفي مثال برتراند راسل تصوير لما يحدث..أن زريبة البهائم تحترق وفي داخلها حِمار..فحاول أن يُقنع الحمار بأن الخطر يتهدده ولكنه لم يستجب..فما كان له إلا أن يسحبه بالقوة كي يُنقذه...المُلاحظ أنه وبتكوين الحِمار الحيواني قد يؤذي منقذيه سواء بالرفس أو بالعضّ..ولكنه لا يجنح لتشويه منقذيه ويقول أنهم زنادقة وكفّار لا يستحقون الحياة، فيبقى المنقذون صالحين لمهماتٍ أخرى وفي أماكن أخرى..فياليت هؤلاء البشر كانوا كالحمار واكتفوا برفس وعضّ من يسحبهم خارج لهيب المعركة..ولكنهم يشنون على مُنقذيهم أقسى صنوف وألوان الحرب البدنية والكلامية والنفسية..فيشرعوا في اتهامهم على الفور بأنهم عُملاء لا يُقبَلُ منهم صرفاً ولا عدلا..يقولون أنهم زنادقة وكفار يقولون أنهم شيعة روافض..يقولون أنهم ملاحدة...وهلم جرّا..فإذا رأوا أن الجو العام في صالحهم شرعوا في تحقيق مكنوناتهم التي كتموها في صدورهم كثيرا..فيقتلون ويسفكون الدماء ويقطعون الرؤوس..ليس لإقامة حدّ الله..ولكن لأن بديل ذلك لن يُرضيهم..

الأخطر أن يفتتن بهم العوام..فقد يُعطي الله لأحدهم مَلَكة الخطاب وحُسن البيان..وكما أن الخطابة كانت سبباً في إحراق أوروبا..فالخَطابة قد تحرق المسلمين والعرب..النكبة أنهم يحرقون باسم الدين..والأديان من أفعالهم براء..يقتلون ثم يبرأون من دماء ضحاياهم..يُحرضون على الفتنة..وإذا استشعروا الخطر على أنفسهم لجأوا إلى الكذب والتزييف بأنهم بُرءاء مما يحدث..فإذا واجهتهم بأفعالهم وكلامهم جادلوك فيها..فكان جدالهم حُمقهم بأنهم لا يعلمون بأن القتل يبدأ من فكرة تطرأ على الذهن..ثم يُنظّر لها بين الناس..ولو كانوا صادقين لأرفقوا بأفكارهم خطاب العدل والحُبَ ، ولكن لا يفعلون لأنهم لا يعرفون الحبّ ولا يشعرون بقيمته..ولِمَ لا وهم يُحرمونه حتى في خيالاتهم..فالحُبّ بدعة ومدخل من مداخل الشيطان!

رسالة في الانتحار باسم الله

المتابع لسلوك الجماعات الإرهابية في "الجهاد" سيرى أنه يمكن اعتبار مطلع القرن العشرين هو التشريع الرسمي لما يُسمّونه.."بالعمليات الاستشهادية"..كان قبل ذلك قتالاً يحرص على بقاء النفس بعيدةً عن الهَلاك إلا ما قُدّر لها أن تقع فستكون في عداد "الشُهداء".. وسنرى في هذه الدراسة ماهية هذه العمليات ، وعلاقتها بالانتحار المبني على إحباطٍ شديد ورغبة شعورية في تعويض هذا الإحباط بنجاحٍ وفوزٍ في الآخرة، ورغبة لا شعورية تحفظ لهم ما تبقى من كرامتهم أمام أنفسهم، والسبب أن هذه الفئة عنيدة إلى أقصى حد، فإذا ما ارتأت خطئها لا تسارع بالاعتراف، وهي جاهلة إلى حد بعيد تعجز عن إيجاد تصور واسع

وصدر رحب، وهي ساذجة أيضاً كونها تقع بسهولة في قبضة الخصوم وتُصبح معها آداة للحرب ومُستهلَكة إلى حد بعيد.

مثل هذه النفوس هي حربية في المقام الأول، أي لا يمكن أن تمارس دورها في البناء إلا عن قاعدة حربية قتالية، وهذا يعني أن هناك بناءً قد يحدث عن تلك القاعدة، ولكنه بناءً يُقصد الاستمرار إلى ما بعد ذلك من قتال، وهذا يعني أن البناء المقصود هو للربط بين الماضي الحربي والمستقبل الحربي، فهم قومُ محاربون، وبالتعبير العصري.."أمراء حرب"..وظيفتهم هي الحرب، ولا يبرعون في شئ آخر سوى القتال، وهم بالتالي يُصبحون هدفاً لكل أمراء وبُغاة الحرب في العالَم، فيُجنّدَون وتستهدفهم أجهزة المخابرات وتدعمهم بالمال والسلاح، وأحياناً بالخطاب المعنوي والتعبوي بكافة أشكاله السياسية والإعلامية.

السؤال هنا ما الذي أدى بهم إلى أن يُصبحوا فريسةً وحقلاً للتجارب وضحايا ضروريون لمنافع الآخرين ؟..الإجابة هي رغبتهم في السعادة الدائمة كونهم قومُ مُحبَطون، فهم لا يمارسون إرهابهم إلا عن ضعفٍ غالبا، وهي رغبة مزدوجة مع الشعور باللذة تعبيراً عن رغبتهم في القتل والتعذيب وقهر الخصوم، وهذه الرغبة هي التي اكتسبوها من الفقه والتراث الإسلامي، فكما أشرنا من قبل إلى نفسية الإرهابي الاختزالية وكونه نزّاعُ للاختزال، فكما اختزلوا الإسلام في الشريعة، والشريعة في الحدود، هم أيضاً يختزلون الجهاد في القتال والحرب، وهذا غير صحيح، لأن مفهوم الجهاد القرآني مختلف عن مفهوم الجهاد في الفقه والحديث، كون الأخير يقوم على مبدأ القتال..بينما الأول هو أعمّ وأشمل ويضم

معاني التضحية والفداء والصبر، وعليه فالقتال هو فرع من الجهاد وليس كله، ووارد أن تأتي بعض الآيات في سياق القتال بلفظ الجهاد، ولكن ليس بوارد أن تأتي كل آيات الجهاد بمعنى القتال.

إن لفظ الجهاد في القرآن أتى موافقاً لمعاني التضحية بالمال والنفس، وهو ليس قاصراً على القتال كما يفهمه فقهاء التراث الذين أنجبوا الإرهاب في عالمنا المعاصر، والدليل أن لفظ الجهاد بمعناه اللغوي أتى من فعل .."يُجاهد"..أي .."يُقاوم"..والمقاومة قد تكون لشيءٍ في غير ميادين الحرب، كمقاومة الشهوات والغرائز، ومقاومة الظلم بالكلمة، ومقاومة الجهل بالعلم، ودليل أن الأمر بالقتال جاء بلفظ.."قاتلوا"..وليس .."جاهدوا"..ولكن إذا تعرض لمقصود الجهاد -ذو المعنى الأشمل- قال أن.." جاهدوا بأموالكم وأنفسكم"..وأمر الله بذلك وأوحى إلى عباده أن الجهاد بمعناه اللغوي والقرآني هو من أسمى مراتب العبادة، كونه يقوم على أسس أخلاقية رفيعة تنصر المظلوم بالمال والكلمة والسلاح، وتخلق بذور الشهامة والمروءة والصبر ، وتُربّي النفوس على مجاهدتها بأن لا تقع في الحرام.

والغريب أن كتاب البخاري ينضح بروايات تعزز هذه الرؤية أن الجهاد غير القتال، وأن مفهوم الجهاد أعم وأشمل، فقد روى عن رسول الله أن عائشة سألته أي الجهاد أفضل قال.." أفضل الجهاد حج مبرور"..فالحج هو وجه من أوجه الجهاد وقس على ذلك بقية الفروض والشعائر كالصلاة والصوم والزكاة، جميعها شعائر تعكس معاني الصبر والكرم والشهامة والطاعة والتهذيب، وكلمة الحق عن السلطان الجائر..هي

صنف "مشهور" من صنوف الجهاد بالكلمة، في النهاية تخرج معاني الجهاد شاملة وأخلاقية، وضروري أن نفصل بينها وبين القتال،عسى أن لا يُسقِط الجُهلاء معاني الحرب جميعها على آيات الجهاد، فيظنون –وقد حدث- أن الله يأمرهم بما يفعلون من قتل وتدمير وحرق ونهب وفتنة، وكل ذلك لا يمكن أن يكون من شريعة الله، لأن الله في كتابه أمر بالعدل والإحسان،وبالبر والتقوى، وأن لو جنحوا للسلم فاجنح لها، أما الجهاد فجاء مساعداً لتحقيق هذه الغايات، مما يعني أنه ليس هدفاً بل وسيلة.

نخلص من ذلك أن المنتحر باسم الله قد أقدم على جريمته لاجتماع الإحباط مع الجهل مع التمني المُفعَم بإزاحة نفسية لا تُحاكي أصل المُشكلة، من وجه آخر أن مؤثرات قد اجتمعت على التأثير في نفسيته، هي ليست مؤثرات عند آخرين، بمعنى أن صورة الشريعة في ذهنه ليست كصورة الشريعة عند البعض، وكذلك صورة الدولة ، كل هذه مؤثرات قد تُحدِث تفاعلاً مُركّباً ينتظر عود كبريت للاشتعال، وهذا يعني أن صناعة الانتحار باسم الله تبدأ من أولى المراحل التعليمية، وهذا يعزز موقف التنويريين الذين يرفعون مطلب.."التربية قبل السياسة"..ومن هؤلاء محمد عبده ورفاعة الطهطاوي، ويظهر من مبادئهم أن النهضة لا تقوم إلا على التربية، فهي التي تضبط سلوك المجتمع وتزرع في نفسه حُبّ المعارف، فإذا ما تحقق له ذلك أصبحت لديه السياسة مُنضبطة، فيمارسها عن فهم وعن التزامٍ تام بالقانون.

إن دور المؤثرات مهم جداً في فهم طبيعة.."الانتحار باسم الله"..فالوضع ليس متوقفاً على صورة تُراثية وروائية مُشوّشة، لأن الطفل لا يعرف

أبيه أو أمه إلا عن صورة قديمة، كذلك فالمنتحر لا يُقدم على جريمته إلا عن صورة قديمة، ربما تكون انتقامية كالتي حدثت في فلسطين منذ سنوات ..وتحدث الآن في سوريا والعراق وليبيا ومصر، ومن قبلهم جميعاً حدثت في موقعة سبتمبر 2001 الشهيرة، والانتقام هو تعبير عنيف عن الكراهية، فكلما رأى المنتحر من يكرهه كلما ثارت لديه نوازع الانتقام، بالضبط هو نفس المؤثر الذي يؤثر في الطفل ويجعله يبكي كلما رأى الطبيب الذي وَخَزه بالإبرة وجعله يبكي أول مرة.

إذن هي مؤثرات فطرية تتحكم في المنتحر باسم الله، وتجعله مجرد آلة حربية لا تعرف علوماً ولا تسعى إليها، لأن من عَرِفَ الحرب كأداة دائمة للعلاج لا يمكن أن يعرف معنى الحوار، فالبشر قد اصطلحوا على الحوار إذا تعقدت مشاكلهم، أو شعروا بُقرب نذير الخطر، وإلا ما بقيَ العنصر البشري على الكوكب، وقد رأينا أنه ما من زمانٍ قد جهل فيه الإنسان طريق الحوار إلا وتكثر فيه الحروب والمآسي، وهذا يجعلني أتفهم موقف الرافضين للحوار مع الإرهاب ومع من ينتمون لفئة.."الانتحار باسم الله"..وأن التعامل الأسلم معهم لا يخرج من نفس الطريق الذي ارتضوه لأنفسهم، لأنهم لا يعرفون الحوار ويجهلون حتى أقصر الطُرق المؤدية إليه، بل هم لا يسعون إليه أصلاً، ولا توجد أي فكرة حوارية تواصلية على برامجهم وشعاراتهم.

من ناحية أخرى فيصعب التعرض لموضوع الانتحار دون التعرض لسؤال مباشر.."كيف يرى المنتحر الموت ؟"..في تقديري أن النفس المنتحرة تكون في حلٍ بينها وبين الشعور العادي بتمني الخلود دون

تحقيقه، بمعنى أن الإنسان يتمنى الخلود ولكن يستحيل أن يحصل عليه، فالخلود صفة أزلية لله يُعبر عنها الله بأنه هو.."الباقي"..ولا باقي غيره، الجميع سيموت، أما المنتحر فيرى نفسه خالداً وأن موته هو مجرد مرحلة ينتقل منها من عذاب الدنيا إلى نعيم الآخرة، إذن فهو لا يشعر بانتهائه كنفس موجودة ، ويُعزز ذلك الغريزة اللاشعورية الموجودة داخل كل نفس بالخلود، فهناك شعور عادي يتملك الفرد منا بالفناء، ولكن هناك لا شعور –هو في حقيقته غريزة-تكشف إلى أي مدى ينظر الإنسان في حقيقته إلى الموت.

وهذه قضية مفصلية..لأن أصل ذنوب الإنسان هو في هذا الاعتقاد اللاشعوري بالخلود، وكأن الشعور العادي هو مجرد أمنيات مستحيلة، فالكذب والسرقة والقتل وسائر الذنوب تعني أن أصحابها لا يشعرون بالزمن، وأن متعتهم في تحقيق هذه الذنوب دون النظر إلى الحد الفاصل بينها وبين غيرها يعني عدم تصورهم لمستقبل ما بعد هذه الجرائم، وهذا ينطبق على جريمة.."الانتحار باسم الله"..فذاك المنتحر لا يرى مستقبله إلا بما أسلفنا أنه انتقال من عذاب إلى نعيم، وهذا يعني اعتقاد يقيني بالخلود يُساوي جريمة السرقة التي يعتقد صاحبها ببقاءه دون عقاب.

عكس ما يظنه الشخص العادي من خوفٍ مزدوج من الموت والسرقة كون ما يتبعهم مجهول لا يضمن فيهم مصيره، بتوضيح أكثر أن الشخص العادي يخاف من الموت كونه حالة مجهولة لا أحد فيها سيموت وبعد موته سيعود ليحكي ما حدث له، ومجهولية حال الأموات هو ما سببّ هذا الرعب الإنساني من الموت، وعزز هذا الرعب عند المسلمين

هو اعتقادهم بظواهر وأشياء فظيعة ومخيفة تحدث لهم في القبر..فيما عُرِف لهم.."بعذاب القبر"..وقد أسلفنا في بحوثٍ سابقة أن تعرضنا لهذه العقيدة وبيّنا على وجه التفصيل أنها أسطورة عقائدية مصدرها خرافات اليهود القُدماء..والتي قد تكون مأخوذة عن الفراعنة وطريقة تصورهم للموت وأحداث الآخرة.

أما الشخص المنتحر باسم الله فهو ليس كذلك، هو لا يخاف من الموت لسببين، الأول هو طغيان العامل اللاشعوري لديه بخلوده، والثاني فرعُ عن الأول أنه يعلم حالة بعد الموت، يعلم أنه لو انتحر فسوف يبعث الله له مَلَكين في القبر يُؤنسانه في وحدته إلى قيام الساعة، وأن يُفتح له أبواب -من داخل حفرته التي تأوي جثته -ينظر بها على رياض الجنة ، وبعد ذلك سيُبعث ويدخل الجنة وينعم بالحور العين دون حساب، فهو في اعتقاده شهيد لا عليه حساب كما ظن من القرآن، ونحن أمام هذه الصورة أمام كارثة اعتقادية إنسانية تُبيح القتل وفناء الحياة على هذا الكوكب ،كون هذا الدافع هو أقوى الدوافع التي يمكن أن يحصل عليها إنسان للتضحية، وقد غفل الإنسان عن مواجهة هذه الكارثة وأسماها.."بالتطرف"..ومقاومته أمنياً دون التعرض لجذوره الذي يصنع يومياً مئات من هؤلاء على استعداد لتقديم أرواحهم وأنفسهم فداءً لما يعتقدون.

إن التعامل مع "ظاهرة" الانتحار باسم الله يستوجب أولاً أن نتعرض لأولى مراحل بناء هذه الظاهرة وهي النوايا ، وصحة أن يكون عامل الصدق هو المعيار الوحيد لسلامة تلك النوايا وما يتبعها من أفعال، وقد

تعرضنا في بحوث سابقة لهذا الجانب وأوضحنا أن النوايا لا يمكن أن تكون فقط هي معيار صحة وسلامة الأفعال، فيما عُرِف بحديث النوايا الشهير وما أحدثه من أزمة فكرية واعتقادية خطيرة أطاحت وتُطيح بملايين الأنفس وممتلكاتهم على مر التاريخ، وحكينا كيف تصدى الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان لهذا الحديث الكارثة في وقته وما يَنتج عنه من قواعد وأزمات..حتى اتهمه المحدثون والرواة بالبدعة والكُفر فقط من أجل تصديه لهذا الحديث المنسوب كذباً لرسول الله.. وحكاه البخاري في مطلع كتابه المُسمّى بالصحيح.

وفي الإعادة إفادة.. أن حديث.."إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى"..هو تقرير نهائي بسلامة الأفعال بُناءً على سلامة النوايا، وهذا يعني بالضرورة أن كل قاتل بنية حسنة وكل سارق بنية حسنة هو صاحب فعل حسن في النهاية، وقد حرص المسلمون أن يُخلصوا نواياهم قبل كل عمل حتى لو كان فاسداً، والمعنى واضح وهو ما حمل أبو حنيفة على التصدي له وقال قولاً صريحاً خلده أتباعه من أهل الرأي.."أن الأعمال بالظواهر أما النوايا فهي لله"..وهذا يعني أن القول بأن الأعمال بالنوايا هو جريمة في حق الله وفي حق الدين، ولكن نَظَرا لخصومة البخاري المشهورة مع أبو حنيفة قام بتدوين هذا الحديث في مطلع كتابه ..كإشارة إلى الأزمة الفكرية التي كانت تجتاح هذا العصر بين أهل الرأي –ومنهم الأحناف والمعتزلة- وبين أهل الحديث وهم بقية مذاهب المسلمين سُنةً وشيعة.

إن القول بأن الأعمال بالنوايا لا ينفك عن جريمة.."الانتحار باسم الله"..فالمُنتحر يحرص قبل جريمته على إخلاص نواياه لله، ويردد الشهادة والنصوص والأدعية التي تُقنعه بسلامة عقيدته قبل موته، أو قبل انتقاله كما يعتقد، فيموت مرتاح البال والضمير وهو ينتظر أن يُكافئه الله تلك المكافأة الكبيرة التي ظنه أنه وعده به وهي الجنة والحور العين، رغم أنه في الحقيقة مجرد قاتل ومفسد كبير في الأرض ومُجرم في حق الله وفي حق الإنسانية كما يُفترض من كلام أبو حنيفة، لأن الأعمال عند أبو حنيفة هي بالظواهر وليست بالنوايا، وقد ظهر من العمل أنه فساد وانتهاك لحُرمة الدماء التي حذّر منها الله أو أن يقترب منها أي مدعٍ أو ظالم، فالنفس التي كانت هي سر عظمة الله في أرضه لا يُمكن أن تُستباح بهذه الصورة تحت عنوان مرضاة الله، فيخرج العنوان بأنه ادعاءُ كاذب وتعدٍ على الله قولاً واحدا.

من ناحية أن الله نهى عن قتل النفس تحت أي ادعاء، إذ قال الله في قرآنه.."ياأيها الذين آمنوا لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما"..وهو نهي صريح عن الانتحار مهما كانت الدوافع، وإلا لاستثنى الله بعض الحالات التي قد تكون من ضمنها حالة ذلك المنتحر المجنون، ولكن هذا لم يحدث فالأمر على إطلاقه أنه لا قتل مُطلقاً للنفس حتى لو كان تحت عناوين مثل الجهاد أومقاومة الظلم، ومن ناحية أخرى أن التجارب أثبتت أن فقه الانتحار في المعارك لا يُمكن أن يُحدث نصراً عسكريا، إذ أنه بمثابة خيار أخير بعد استهلاك كافة الخيارات الأخرى ومنها المواجهة المباشرة، وبما أنه خيار أخير فهو بمنطق.."شمشون"..علي وعلى أعدائي، أي أنه قد يُحدث خسائر على مستوى الدماء والممتلكات، ولكن

من الذي قال أن النصر يتحقق بمجرد إراقة الدماء ؟!..هذا تعطيل لكافة المفاهيم الحربية أن الانتصار في المعارك يستوجب حضوراً لكافة القُدرات البشرية من قوة ودهاء وحكمة وصبر.

لقد أحدثت الحرب الأهلية السورية هذا الفارق وأوضَحَت معنى الانتحار أنه مجرد جريمة قد تريق الدماء ولكنها لا تُحقق أي انتصار عسكري، فالمعارضة حرصت منذ بداية الحرب على تنفيذ عشرات بل مئات وربما آلاف العمليات الانتحارية في حق جنود الحكومة، بل وفي حق المدنيين من الشيعة والمسيحيين بل وفي الأحياء المعارضة لهؤلاء الانتحاريين حتى لو كانت سنية، ولكن الانتصار يبدو أنه يذهب لصالح الحكومة بعد أكثر من ثلاث سنوات من اندلاع هذه الحرب، وأتذكر هنا بالمناسبة مشهداً مُعبّراً من تلك الحرب، ففي ريف مدينة اللاذقية وبالقُرب من حدود تركيا مع سوريا هجمت جنود المعارضة على مرتفع جبلي من أجل السيطرة عليه، ويبدو من الهجوم أن هذا المرتفع المُسمّى.."بمرصد 45"..كان مرتفعاً هاماً من الناحية العسكرية ..يُتيح لمن يسيطر عليه أن يتحكم في الميدان.

المهم أن الهجوم قد بدأ بالفعل عبر سيارة مفخخة يقودها شخص انتحاري ، وتسبب هذا الانتحاري بالفعل في إحداث خرق لجبهة الدفاع عن المرصد/ المرتفع، وبعدها هجمت جنود المعارضة، وبدأوا ينعون صاحب هذه العملية الانتحارية من قبيل.."إلى الجنة ياشهيد ونلقاك مع الحور العين...إلخ"..ولكن المثير أنه وبعد ساعات معدودة هجمت قوات الحكومة وقتلت كل من سيطر على هذا المرصد، واستعادت السيطرة

عليه بعملية عسكرية خاطفة كشفت إلى أي مدى تتحكم قوات الحكومة في المشهد الميداني، فهي عندما تخسر فهي قادرة على التعويض، وهذه قمة من قمم التفوق العسكري، أنه ليس بالخسارة الميدانية تحدث الهزائم ولكن تحدث الهزائم عندما يعجز المحارب عن التعويض.

وأنا أسأل هنا ما مصير هذا الانتحاري وقد أفنى نفسه مقابل لا شئ، قد يظن هو أو أتباعه ومناصريه أنه مع الحور العين، ولكن هذه قصة أخرى، ما يهمني أن انتحاره ذهب رخيصاً بل تسبب انتحاره في مقتل العشرات وربما المئات من زملائه الذين ساعدهم على اختراق الموقع، أين هي الثقافة العسكرية عند هؤلاء، وهل فنون الحرب لديهم قاصرة إلى هذا الحد ؟!

الإجابة تكمن في نفوسهم أنه من كثرة حديثهم عن.."الجهاد والاستشهاد"..أصبح الانتحار لديهم هدفاً وليس وسيلة تقربهم إلى الله، والسبب في هذا الخلل أنهم يُحاربون ليس من أجل الانتصار أكثر من أنهم أشخاص أنانيون يُريدون الفوز والنجاة بأنفسهم ، هكذا أحدث مفهوم الجهاد القاصر لديهم خرقاً على المستوى الفكري والسلوكي، فترى منهم من يقود مجموعة قتالية دون أي خبرة عسكرية أو إنسانية تُمكنه من القيادة ..فيُفاجأ هو وباقي أفراد مجموعته أنهم وقعوا ضحية لكمينٍ من قوات الخصوم، والمشهد السوري ملئ بهذه الكمائن التي وقعت فيها قوات المعارضة بكل بلاهة حتى تسببت هذه الكمائن في قلب الميزان العسكري والاستراتيجي في أنحاء سوريا بالكامل، رغم أن الدعم التي تلقاه قوات المعارضة أضعاف ما تلقاه قوات الحكومة من دعم.

لقد اجتمع ثلاثة أرباع العالَم على الاعتراف بما يُسمى.."بالثورة السورية"..منها أمريكا وإسرائيل والاتحاد الأوروبي وتركيا ودول الخليج، اجتمعوا على هدفٍ واحد وهو دعم المعارضة الثائرة بكل ما يمكنهم من أدوات حربية سواء كانت سياسية أو إعلامية أو مالية أو فنية أو عسكرية، وقد جاهروا بهذا الدعم في مؤتمراتهم المُسمّاة.."بأصدقاء سوريا"..حتى أن الجامعة العربية هي الأخرى سارت في نفس النهج الخاطئ ودعّمت هذه المعارضة بطرد ممثل الحكومة والاعتراف بممثل المعارضة، ولكن ما هي النتيجة ؟

النتيجة أنه وبعد كل هذا الدعم الذي لو كان تحقق لألمانيا في الحرب العالمية الثانية لاستطاعت أن تغزو العالَم ..!

لقد فشلت المعارضة السورية وتفككت وانهزمت في معركتها العسكرية وبدا أن جماهير الشعب السوري غير متعاطفة معهم، وأن ما نُشر من قبل على هذا الإعلام الداعم للمعارضة كان مُصطنعاً، وأن ثقافة هؤلاء العسكرية هي في أمرين اثنين.."الحرب المقدسة والانتحار باسم الله"..وليس غريباً أن تدعم أمريكا هذه الثقافة وقد صنعتها من قبل في أفغانستان، فأمريكا هي التي أججت الأصولية الدينية في القوقاز بحُجة حرب الملاحدة الشيوعيين، وساعدهم في ذلك بلاهة شيوخ السلفية والإخوان الذين انتشروا في ربوع العالم العربي يطلبون المقاتلين والدعم المالي، وأفغانستان في الحقيقة كانت وجهاً من أوجه الحرب الباردة ولا مصلحة حقيقة للعرب أو للمسلمين فيها سوى أنها كانت محطة لتدمير

أفغانستان، والدليل أن أمريكا احتلت بعد ذلك نفس البلد ولم يهب العرب لنجدتها سوى ما يفعلونه الآن مع فلسطين وغزة ، مجرد تنديد واستنكار وشجب وإدانة..

أخيراً لقد ساقنا الحديث إلى مواضيع جانبية ولكن هي في تقديري جزء من الكل، وأن التعرض لها ضروري بغرض كشف الجوانب المجهولة التي تتعلق بالقضية الرئيسية التي نحن بصددها وهي.."فقه الانتحار باسم الله"..وأن كشف هذه الجوانب مهم لبناء صورة واقعية تُترجم ما يسطره القلم على شكل صور وأحداث، وربما تكون هي طريقتي في النقد أحياناً، وأحياناً أخرى أتقيد بالنواحي النظرية والعقلية، ولكن في تقديري أن هذه القضية تمس جانبين مهمين وهما الأمن والدماء، وفي هذين الجانبين تسقط أي معايير نظرية لصالح الواقع، وأن التحقيق العقلي يجب أن يمس الواقع بشكل رئيسي، لأن الحقيقة في الأزمات هي على الأرض وليست في الذهن.

فالدماء لا يجب التسامح فيها، بل تجب مقاومة من لا يتسامح فيها أصلاً، وهذا ليس إقصاءً بالمناسبة، لأن إقصاء ومقاومة الإرهابي- والمنتحر باسم الله -هو فضيلة تعمر بسببه الأرض ويعم السلام والعدل، لأن ذلك المنتحر هو مصدر الفتنة والظلم، فهو لا يقبل الآخر دائماً ومعاييره دائماً تفاضلية وليست تكاملية، هذا أفضل من فلان، وهذا أتقى وأصلح من عِلّان، وتلك المعايير لا يمكن أن تنتج سوى إنسان إقصائي جاهل لا يعرف معنى العدل والإعمار، لذلك كان معياري في قبول الناس هو .."التكامل"..وليس التفاضل، والمعنى أن قصور الناس يستوجب تكاملاً

بينهم يسد هذا القصور، فمن يبرع في شئ لا يبرع في آخر، فالناس جميعهم مُكمّلون لبعض.

رسالة في الحرية

لو أن مسجوناً في مكان هل له أن يتحرك أكثر ممن كان خارج السجن؟..الإجابة بدهية وهي أن الإنسان الحر يمتلك مساحة أكبر للحركة من المسجون؟..وعليه ينشأ سؤال آخر، لو كان الإنسان الحر يمتلك مساحة أكبر فهل هذه الحركة ستؤثر في معرفته كماً وكيفا؟..لا توجد إجابة نهائية لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتجاوز بعقله حاجزي الزمان والمكان، وعليه يمكن معه أن يكون المسجون أكثر معرفةً من الحُر، فالإنسان وصل بعقله إلى المريخ دون أن يسافر، ووصل إلى المجرات دون أن يراها، وتنبأ بمستقبله دون أن يحسّه..

ولكن ثمة اعتراض على هذا وهو أن الحركة للإنسان الحر تسمح له بقدر من التواصل أكثر من اللاحر، والتواصل هو تصرف معرفي بالأساس، كون معرفة الإنسان بنفسه مشروطة بمعرفته للغير والعكس، لأن الإنسان كائن اجتماعي لا يعيش وحده في هذا الكون، ولو كان وحيداً في عالمه ما كان له أن يعرف خلاف نظريات حي بن يقظان وغيرها، فالمعرفة هنا ليست ذاتية بل موضوعية كونها ترتبط بالحس والخيال والعقل، وكل هذه ملكات معرفية ترصد العالم الخارجي، فلو لم يكن الحس-مثلاً-ما كان للإنسان أن يرى ويسمع... الأشياء من حوله، ولو لم يكن الخيال ما كان له أن يعرفها، كون معرفة الأشياء تلزمها صور

قديمة في الذاكرة، ولو لم يكن العقل ما كان له أن يفهم العلاقة بين هذه الأشياء والمخلوقات من حوله..

هكذا فالمعرفة مرتبطة بمعرفة الآخر بالعموم، وأما دور الذات فهو للتفريق بين حقائق هذه الأشياء وأوهامها، وبدون الأشياء لن يكون هناك تفريقا وستنعدم سلطة الذات ومعرفتها، ويرجح ذلك أن علاقة الإنسان بغيره تكون عبر وسائل مساعدة، فعندما تنبأ بمستقبله كان عن رؤيته لواقع حسي وعقلي، وهذا الواقع هو ما يساعده على التنبؤ أو ما أسميه بعالم الأفكار في الذهن وعلى الأرض، ونفس الحال عندما وصل إلى المريخ والمجرات إضافة إلى أدوات اتصاله تُصبح هذه الأدوات وسائل مساعدة للمعرفة كماً وكيفا.

هكذا فالمعرفة تكون بالتواصل ومعها كلما تزيد الحركة كلما يزيد معدل التواصل وبالتالي تنمو معرفة الإنسان، ولا يوجد تواصل بدون مساحة أكبر للحركة يستطيع الإنسان من خلالها معرفة الأشياء، وحينما يكون مطلب زيادة الحركة ومساحاتها يتبادر إلى الذهن فوراً معاني الحرية، إذ كيف ستزيد الحركة بدون قيود، فالحرية هي التي تسمح بالتواصل والمعرفة على هذا النحو.

لذلك -وفي هذا السياق- أرجح أن يكون مبدأ الحرية قبل كل شئ كونه يساعد على زيادة المعارف، وبالتواصل الذي يعمم ثقافة السلام، وفي تقديري أن الديمقراطية الليبرالية قامت على هذا المبدأ وبنفس الحُجج

والبراهين، وعليه تكون كافة الإشكاليات على الليبرالية أو الديمقراطية هي في تقديري إشكاليات وشبهات على الحرية بالتبعية.

ومن هذه الإشكاليات ما يُعرف.."بالطبيعة الإنسانية"..كون هذه الطبيعة تحوي مجموعات من المصالح والأهواء والعواطف والنزعات المقدسة، إضافة إلى ما يرافقها من تفكير نسبي يضع مبدأ الحرية وفق تقدير ذاتي قاصر عن معرفة الآخر وحقوقه، لذلك كانت الحرية في أعراف الدول منصوصة وفق قوانين ملزِمة تنظم العلاقة بين الناس في إطار الدولة، وإلا أصبحت الحرية في ذاتها قانوناً عاماً ومعياراً يُقاس به تقدم الأمم وانحطاطها، والدليل على ذلك أن شعوباً فرضت قيوداً على الحرية لكن لم يمنع ذلك من تقدمها ، حتى التاريخ يشهد -وفق المنطق التجريبي- أن أحداثاً سياسية فارقة مثّلت لدى البعض قمة من قمم الظلم والاستبداد هي –في نفس الوقت-كانت محوراً عند آخرين في التقدم والنهوض.

كمذبحة المماليك في مصر -مثلاً-البعض يراها خيانة سياسية واستبداد وجريمة بشرية عظيمة، ولكن البعض الآخر يراها أنه لولا ما كانت تلك المذبحة أن تقوم دولة محمد علي أو أن يبني الرجل دولة مصر الحديثة، وهذا يردني إلى المبحث السابق بعنوان.."لماذا الديمقراطية أولاً؟"..والذي قلت فيه أن على من يُطالب بالحرية أن يلتزم بعض الشروط كي يحقق معنى الحرية، ومنها السلمية والشراكة وعدم التخوين وبناء الثقة والرد على المخاوف، وبالتالي يكون ندائه بالحرية محصور وفق مطالبته بحقوقه دون المساس بحقوق الآخرين.

وتلك هي أعظم إشكالية على الحرية أن تمارسها دون الانتباه للطبيعة البشرية وأهوائها ومصالحها، فتلك الطبيعة تفرض في النهاية غُلافاً على النفس يضع القيم رهينة للمصالح الآنية والشخصية، كل ذلك من أثر الجهل أو كون هذا الغلاف هو عن ردود أفعال على هواجس ومخاوف أحياناً.

ولكن تبقى الحرية في النهاية قيمة ليست فقط إنسانية أو اجتماعية بل هي قيمة دينية، كون الأديان ترفض مبدأ العبودية للمحسوسات، وتجعل الآلهة في حلٍ عن وجود الإنسان وبيئته، حتى من يصنع صنماً أو وثناً لإلهه هو يعتقد أن هذا الإله يعيش خارج العالَم ..أو بمعنى أدق هو الذي يتحكم فيه، لذلك خرجت الحرية عند المتدينين قيمة دينية أصيلة ترفض تبعية البشر للمخلوقات، مع التنويه أن مبدأ الحرية هذا لا يخص كهنة الأديان وأحبارها وقساوستها وشيوخها ورهبانها، كون هؤلاء يجعلون الحرية وفقاً لمصالحهم وحدود أفهامهم النسبية والتي تحدثنا عنها في السابق بالطبيعة البشرية وظهر لنا أن تلك الطبيعة هي أكبر شبهة على الحرية.

تبقى الأسئلة حول تعريف الحرية هل هي أن نفعل ما نريد أم أنها محصورة بحقوق الآخرين، وفي تقديري أن الإجابة مرتبطة بالواجبات والشروط المفروضة على من ينادي بالحرية، والتي طرحنا جزءاً منها في تلك الدراسة والدراسة السابقة عن الديمقراطية، إضافة إلى الطبيعة الإنسانية وكونها تضع الحريات مهب تقدير الإنسان داخل عقله القاصر وعواطفه ومصالحه، كمثال من يقتل إنساناً آخر بدعوى الدفاع عن دينه، هو بذلك يرى أن جريمته من منطق حريته في الدفاع عن مقدساته، فلو

ما أجرى مراجعات ظهر له خطأ هذا الفعل، وأن اعتقاده السابق بالحرية كان عن جهل أو محكوماً بالعواطف والأهواء.

وهذا يعني أن جواب سؤال.."لماذا الحرية أولا؟."..محصور في جواب ما هو؟..أي ما هو معنى الحرية المقصود، هل تقصد الحرية السلوكية داخل إطار الدولة وفق قوانين، أم هل تقصد الحريات الشخصية المادية كحرية الطعام والشراب واللباس، أم تقصد الحريات الدينية والفكرية، أم تقصد أن الحرية تعني الحقوق، وبالتالي تبحث عن الحقوق الخاصة بك أولاً دون اعتبار بحقوق الآخرين، هنا تتعارض معاني الحرية ولكن أرد تعارضاتها في المجمل إلى تفكير الإنسان النسبي، وتبقى معها الحرية قيمة مطلوبة أولاً، ولكن دون أن تكون معياراً للصلاح والفساد.

ففارق أن تكون الحرية مطلوبة كحق إنساني داخل المجتمع، وأن تكون هذه الحرية معيارا ...حينها تصل معاني الحرية لدرجة من درجات التطرف في الرأي والسلوك،وقد تتجاوز حدود وآداب المجتمعات، بل قد تتجاوز الدولة نفسها وتقضي عليها مثلما حدث في سوريا، أن تُصبح الحرية ذريعة وحجة لتدمير المجتمع ودولته، وتقضي فيه على أبسط حقوق العيش الكريم والآمن، لذلك أميل إلى أن تكون الحرية قيمة مطلوبة كون أفعال الإنسان ومنتجاته نابعة من إرادته الحرة، فلو جرى الاهتمام بتلك الإرادة وتطويرها -بحيث لا تتعارض مع مفاهيم المجتمع والدولة -كانت الحرية مطلباً وجودياً بدونه تفنى المجتمعات نتيجة للصراع الناتج عن الطبيعة الغرائزية للإنسان.

رسالة في الديمقراطية

ألم يسأل أحد نفسه لماذا تقوم فكرة الجماعات الإرهابية على مفهوم الدولة أو الأمة (الإسلامية) قبل أن تقوم على مفهوم الديمقراطية؟..فهم يهتمون بإعادة تعريف الأمة وفق منظور عقائدي..وبإعادة تعريف الدولة وفق منظور أيدلوجي دون التعرض للديمقراطية وآلياتها، وقد نضحت كتاباتهم في تفصيل هذه الفكرة التي خرجت في النصف الثاني من القرن العشرين.

أعتقد أن السبب كان في ظهور تلك الجماعات بعد حقبة الاستعمار وترسيم الحدود والفصل بين الشعوب، فجاءت هذه النزعة كرد فعل وحدوي يريد أن يجمع الأمة تحت لواء سلطة واحدة تعالج مفهوم الأمة والدولة لديهم..

جاء بحث هذه الجماعات الإرهابية عن مفهومي الأمة والدولة في غياب كامل لبحثهم عن الديمقراطية، فهم لم يجعلوا الديمقراطية والعدالة السياسية مطلباً رئيسياً لهم، وظنوا أن فكرة.."الدولة أو الأمة الإسلامية"..ستحقق لهم هذا المطلب..وهذا غير صحيح ، لأن بحثهم عن هوية الدولة/ الأمة لابد معه من حصر الهوية في جانب ديني وسلوكي معين، وأما بقية الجوانب فهي خارج اهتماماتهم، مثل إقصائهم لليهود وللمسيحيين وللشيعة وللإباضية وللعلمانيين ولكافة من يخالف وجهة نظرهم في تلك المفاهيم.

لذلك لم تُطرح أسئلة كموقف هذه الجماعات الإرهابية من الديمقراطية إلا بعد وضوح موقفهم من الدولة/ الأمة، أي لم يناقش أحد موقف جماعة منهم-كالإخوان المسلمين- من الديمقراطية إلا مؤخراً وبالتحديد منذ 20 إلى 30 عاما، كان قبل ذلك موقفهم من الدولة/ الأمة العقائدي والأيدلوجي يكفي لبيان رؤيتهم السياسية في المجمل، وبعد تعدد مشاكل هذا الموقف مع الديمقراطية جاء السؤال القاطع..ما موقف هذه الجماعات من الديمقراطية؟

حقيقة أن تأخر طرح هذا السؤال.."موقف الجماعات الإرهابية من الديمقراطية"..يحمل في مضمونه أزمة فكرية وسياسية عربية تعاني فيها النخب والأحزاب من ضمور معرفي ..يجعلهم مع تلك الجماعات في وحدة مفهوم الدولة، إلا أن هذه الجماعات تراها بصورة دينية أما هذه الأحزاب فتراها بصورة قومية أممية، والسبب –كما قلنا- أن حقبة الاستعمار وترسيم الحدود تلتها حقبة تطالب بإعادة مفهوم الدولة الأممي والقومي وإلغاء تلك الحدود في النصف الثاني للقرن العشرين.

وتتساوى في ذلك الجماعات الإرهابية مع الأحزاب والنخب العلمانية بشكلٍ مطلق..وأكبر دليل على ذلك أن برامج الأحزاب العلمانية تظهر وتبطن العداء للاستعمار وللغرب بوضوح، وقد أصبح هذا العداء دافعاً لهم في اختزال الديمقراطية بنفس الطريقة التي اختزلت فيها الجماعات الإرهابية الديمقراطية، وكلاهما قد توحدت صورة الاختزال لديه ولكن اختلفوا في شكل هذه الصورة، منهم من رآها بيضاء ومنهم من رآها حمراء ومنهم من رآها سوداء، ولكن في المجمل خرجت صورة

الديمقراطية لديهم واحدة ومُختزَلة.. فهي مطلب ثانوي بعد تحقيق مفهومي الدولة والأمة..!

لست ضد أن يكون هناك عداءً للاستعمار أو لأي جهة لإيماني بقوة الدوافع والمبررات التي تخلق هذه الحالات أحياناً ، ولكنني ضد أن يكون هذا العداء مرادفاً لاختزال قيم ومعاني الديمقراطية في مفاهيم سلطوية أممية قد تُصبح إمبريالية إذا اقترنت بأفكار عنصرية.

إن الجماعات الإرهابية اختزلت الديمقراطية في مفهوم.."حُكم الأغلبية"..أما النخب والأحزاب العلمانية فقد اختزلوا الديمقراطية في مفهوم.."الحرية"..لذلك خرج صراعهم في مصر في الفترة الماضية بهذه الصورة، الإخوان يعيبون على العلمانيين كفرهم بمبدأ حكم الأغلبية، والعلمانيون يعيبون عليهم كفرهم بمبدأ الحرية، هذا الصراع بينهم كاد يقضي على الدولة، لذلك كان تدخل الجيش المصري ليعيد بناء العملية السياسية من جديد على أسس صحيحة يحافظ بها على الدولة، والحقيقة أن كِلا الطرفين يعانيان من أزمة قديمة حملتهم على تجاهل الديمقراطية ككقيم وآليات بينما اهتموا بصياغة مفهوم الدولة والأمة العقائدية والقومية أكثر.

أخيراً فإن الديمقراطية لها قيم ولها آليات..جاء حكم الأغلبية فيها ضمن آلياتها وقيمها التي تُعطي السلطة وحق الرأي والقرار للشعب، بينما الحرية هي قيمة أصيلة في الديمقراطية بدونها تُصبح السياسة دون معنى ويكثر فيها المظالم والصور الخاطئة، لذلك فالديمقراطية عندي هي اتحاد

الأغلبية مع مفهوم الحرية، ولكن كل ذلك ضمن إطار الدولة، فلو اتفقت الأغلبية على وجود تهديد للدولة من الحريات لا يجب النزول لرأيها دون الاحتكام للقانون العام/ الدستور، فلو أجاز لها الدستور أن تقلل أو تقيد من الحريات جاز لها ذلك، وهو ما أعرفه بحق القوانين الاستثنائية في الظروف الطارئة .

أما من يرفع لواء الحرية في وجه الأغلبية فيجب عليه أن يتقيد بأسس العملية السياسية أولاً وهي..السلمية والشراكة وعدم الإقصاء والرد على المخاوف وبناء الثقة والتخلي عن مفهوم المؤامرة، أي يكون عمله منصب تحديداً في المطالبة بحقوقه دون المساس بحقوق الآخرين..فلو لم يحقق أيٍ من هذه الأشياء كان نزول الأغلبية للقانون العام في تقييد الحريات هو واجب قومي وسياسي للحفاظ على الدولة، لذلك وقفت في صف الحرب على الإرهاب في مصر وما يتبعها من قوانين استثنائية أو قرارات حكومية صارمة.

خاتمة

خرج هذا الكتاب في منتصف عام 2014 وفيه أن العرب يمرون بأعظم نكبة في تاريخهم المعاصر، ليست نكبة استعمارية أو أن جيوش الكرملين والبيت الأبيض غزت شوارع القاهرة ودمشق والرياض، بل ذلك الغول المتوحش المُسمّى.."بالإرهاب"..قتل الناس وحرق ديارهم ولم يرحموا صغيراً أو كبيرا، ذبحوا البشر باسم الدين، وبكل برود يُعلنون أنهم شهداء لله ويتقربون إليه بدماء البشر، ظهروا للعرب وللمسلمين بصورة

مصاصي الدماء، صورهم وجرائمهم البشعة تملأ الشاشات، لقد ارتعدت فرائس البعض منهم خوفا ورعبا، وصمم البعض الآخر على مواجهتهم مهما كان الثمن.

إذ ذلك الغول المتوحش ما كان لينشأ إلا بذلك التراث الدموي الذي أحل دماء البشر باسم الدين، أعلنوا مقاطعتهم مع العصر وعودتهم للقرون الوسطى بحذافيرها، حتى قال أحد العقلاء من أراد أن يعود بزمنه للقرون الوسطى فليرى ما تفعل جماعات.."داعش والإخوان والنصرة وبوكو حرام وسائر جماعات السلفية الجهادية والإرهاب"..إنهم نكبة العصر، وهم بلاء الله على العباد بما كسبت أيديهم، لقد مثلت تلك الجماعات التراث بصورته الحقيقية الغير مزيفة، والتي يحاول البعض تلميعها غيبةً وبلاهةً وانكسارا، فلا زالت عوامل الهزيمة تسري في دمائنا، لا يريدون التقدم خطوة، الخوف يتملكهم، إما أن عقائدهم ستنهار أو جماعاتهم ستندثر، ولا يهم الإسلام بعد ذلك ..ولا يهم البشر، الأهم هم ذواتهم وأنفسهم.

لقد جاء هؤلاء بالعبودية بأبشع صورها التي عرفها التاريخ، لا يعرفون تعايشاً مع أحد، يقتلون حتى أنفسهم على النفوذ، لا يفهمون معنى المساواة، ويظنون أن العدالة تبدأ بقطع الرؤوس والأيدي والأرجل فداءً لله، هذا لأن إلههم دموي ليس كإله المسلمين..إله العدل والرحمة والمحبة، لا يبحثون أبداً عن الحلول لأن ثقافتهم قامت على الأزمة.

إن ما ظهر من هؤلاء الوحوش يدفعنا إلى التفكير ملياً في التجديد وتنوير الناس، لا نخاف أحد، يجب أن ننطلق بأفكارنا للناس ونواجههم بأسلوبٍ حسن وبمنطقٍ جميل، فالمعركة -مع ذلك الغول- هي فكرية في المقام الأول، لقد جربنا سائر الحلول الأمنية لم تُجدي معهم نفعا، قد تعيق تقدمهم أو تعطيلهم لفترة، ولكن سرعان ما يعودوا على جهل وغرائز البشر، فهم يقتاتون بالأصل على الجريمة والكراهية، هي الشريان المغذي لديهم، لو ما نجحنا في قطع ذلك الشريان وأعلنا الحب ثقافة عامة سنهزمهم ونقضي على رجسهم للأبد.

إن أولى خطوات التجديد ليست رفع نداءه كشعار، وإنما الخوض في قواعد وأصول وأفكار هؤلاء، وما كان هذا الكتاب إلا حلقة في سلسلة طويلة من الردود عليهم ومقاومتهم واستئصال شأفتهم إلى أبد الآبدين، وأعذر من لم يستطع الحصول على الكتاب مطبوعاً أن يعذرني فظروفي الاقتصادية لم تسمح بطبعه، وآثرت أن لا يكون مخزوناً عندي لا يقرأه أحداً غيري، فطرحته للنشر ألكترونياً ومجانياً عسى أن ينتفع به العقلاء، ويحرض به المتقين على العمل الصالح، وأن يكون سبباً في فوزي وفوز غيري بالجنة، أٍسأل الله العلي القدير أن يغفر لي ما قصّرت فيه في هذا الكتاب، ولو كان من خطأ فهو مني والله ورسوله والإسلام منه براء.

كتبه الفقير إلى عفو ربه الكريم: سامح عسكر

يوم السبت الموافق 21 يونيو 2014

23 شعبان 1435